على غُصن أخير
مجموعة قصصية
2026
الدكتور عدنان بوزان

مجموعة قصصية

على غصنٍ أخير

الدكتور. عدنان بوزان

آذار ٢٠٢٦

"نكتبُ لأن الصمتَ كان سيجعلنا شركاءَ في الهزيمة، ولأن الكلمةَ، حين تولدُ صادقةً، لا تنقذ الحكايةَ فقط... بل تنقذ الإنسانَ من أن يصيرَ مجردَ ظلٍّ لنفسه."

الإهداء

إلى الذين عبروا الحياةَ بصمتٍ، وتركوا في قلوبهم أسئلةً أكثرَ من الإجابات...
إلى الذين لم تنصفهم الأيامُ، لكنهم ظلوا يقاومون الانكسارَ بكرامةٍ لا ترى...
إلى الذين خسروا أشياءَ لم يعرف أحدٌ أنهم فقدوها، وظلوا يبتسمون كي لا يخذلوا ما تبقى منهم...
إلى كل روحٍ نجت بنفسها، ولو على هيئةِ كلمة...
أُهديكم هذه القصص، لأنها، بطريقةٍ ما، لم تكن كتابةً فقط... بل كانت محاولةً للنجاة.

المحتويات

العنوان	الصفحة
مقدمة	١١
١- الليل الماطر	١٢
٢- لحظات لا تعود	١٦
٣- على كتف الجبل... رفرف العَلَم	١٩
٤- الندبة التي عبرت الجبل	٢٥
الفصل الأول: صدى في الضباب	٢٥
الفصل الثاني: العودة	٢٦
الفصل الثالث: الكوخ والزمن	٣٤
الفصل الرابع: المرأة التي نسيت الانتظار	٤٢
الفصل الخامس: الندبة في المرآة	٤٩
الفصل السادس: الغريب الذي عاد	٥٤
الفصل السابع: البئر لا تنسى	٦٠
٥- دعنا نؤجّل الرحيل	٦٥
الفصل الأول: محطة الانتظار	٦٥
الفصل الثاني: المدينة التي لا تنام	٦٧
الفصل الثالث: دفترٌ أسود... وقلمٌ أحمر	٧٠
الفصل الرابع: غرفةٌ مطلّة على الغياب	٧٢
الفصل الخامس: الرسالة التي لم تكتب أبداً	٧٣
٦- أسير الأرض	٧٥
٧- ظل العائد: حكاية الزيتون والخلود	٧٩
٨- حين بكى الحنين في دفاتر الغريب	٨٦
٩- وراء الحمير	٨٩
١٠- ديبو وليلة العاشق المتكبر	٩٢
١١- عيناها لا تنامان	٩٥
الفصل الأول: ظلال الشرفة القديمة	٩٥
الفصل الثاني: الحريق	٩٧
الفصل الثالث: عيناها تراقبان الغياب	٩٩
الفصل الرابع: الحوار الذي لم يكتب	١٠١
الفصل الخامس: الرحيل الذي لم يحدث	١٠٢
الفصل السادس: العيون التي لم تغمض	١٠٤
الفصل السابع: الدفتر الذي وجد بعد الغياب	١٠٦
١٢- مرآةٌ تسكنها امرأة	١٠٨
١٣- قُروية من قُورش	١١١

الفصل الأول: حين تنفّس الجبل ١١١
الفصل الثاني: حين تتكلم الجبال ١١٣
الفصل الثالث: حكاية اللغة المنسية ١١٥
الفصل الرابع: موسم الرحيل ١١٧
الفصل الخامس: زمن الذاكرة ١١٩
الفصل الأخير: في حضن النبي هوري ١٢١
١٤- وصيّة الراعي الأخير ١٢٣
١٥- التغريبة الكوبانية ملحمة الجرح والمنفى ١٢٥
الفصل الأول: الفقد ١٢٥
الفصل الثاني: الرحيل ١٢٧
الفصل الثالث: الغربة ١٣١
الفصل الرابع: المنفى ١٣٣
الفصل الخامس: الصمود ١٣٥
الفصل السادس: الحلم بالعودة ١٣٧
١٦- عندما يبكي المطر بصمت ١٤٠
١٧- على أجنحة المطر ١٤٢
١٨- حنين تحت سماء الشتاء ١٤٤
١٩- في مدينةٍ تحاسِبُ على الأحلام ١٥٤
الفصل الأول: النافذة التي لا تُغلق ١٥٨
الفصل الثاني: شرطة الأمل ١٦٠
الفصل الثالث: بيت الأحلام المحرّمة ١٦٣
الفصل الرابع: المحكمة الصامتة ١٦٥
الفصل الخامس: الذاكرة التي تشتعل ١٦٧
الفصل السادس: نبيّ الحلم ١٦٩
الفصل السابع: الثورة التي بدأت من نافذة ١٧١
الفصل الثامن: عصر الحالمين ١٧٣
٢٠ عصفورة القلب والميناء المنسي ١٧٥
الفصل الأول: المدينة التي لا تنام ١٧٧
الفصل الثاني: اللقاء الذي غيّر ترتيب الفصول ١٧٩
الفصل الثالث: زمن الامتلاء ١٨١
الفصل الرابع: الرحيل الذي لم يكن مفاجئاً ١٨٣
الفصل الخامس: الميناء الذي ابتلع صوته ١٨٥
الفصل السادس: الاكتشاف ١٨٦
الفصل السابع: التحول ١٨٧
٢١- الوطن يساوي حذاء ١٩٠

مقدمة

في بعض الأحيان، تشعر الحياة وكأنها تسحبنا إلى حافةٍ لا نعرف ما إذا كان سقوطاً أم بدايةً جديدة. هناك، على الغصن الأخير، يقف الإنسان يتأرجح بين الخوف والأمل، بين الألم والحنين، بين ما فقد وما بقي. وفي تلك اللحظة بالذات، تتكشف الحقيقة: أننا لا نعيش لكي نتجنب السقوط، بل لكي نعرف كيف ننهض عندما يكون كل شيء حولنا قد انهار.

هذه القصص ليست مجرد سردٍ لأحداث، ولا محاولة لتجميل الجراح. إنها تسجيلٌ صادقٌ للنبض الذي يرفرف في داخلنا حين نواجه الخسارة، حين نحتفظ بالكرامة رغم كل ما يحاول العالم أن يسلبنا إياه، وحين نكتشف أن النجاة ليست في البقاء على قدمين ثابتتين، بل في القدرة على أن نتمدد، نترنح، ونعانق الحياة حتى ونحن على وشك الانهيار.

ستلتقون في هذه الصفحات بأرواحٍ لم تختر طريقها بعقلها فقط، بل بقلبٍ ثملٍ بالألم، عابرٍ للظلال، باحثٍ عن معنى، عن كلمة، عن غصنٍ أخير يمكن أن يمسكه قبل أن يغادره العالم بلا رجعة. ستجدون هناك من ضحك على الجراح، ومن صمت خوفاً من أن تتحطم الكلمة قبل أن تولد، ومن أحب وأضاع، ومن فقد كل شيء لكنه اكتشف أنه ما زال يملك شيئاً لم يعرف قيمته: نفسه.

لقد كتبت هذه القصص لأنني أؤمن بأن الكلمات قادرة على إنقاذنا، ليس فقط من العزلة، بل من أنفسنا أيضاً. كل قصة هنا هي محاولة لفهم العالم، لمحاولة الإمساك بما يهرب دائماً بين الأصابع، ومحاولة أن نثبت لأنفسنا أن الحياة تستحق أن تعاش حتى عندما يكون الغصن الذي نقف عليه هشّاً، وكأن كل شيء يهمس لنا بالرحيل.

"على غصن أخير" هو مكان لكل من شعر بأن العالم غادره قبل أن يترك له فرصة لفهم نفسه، لكل من جرب أن يسقط ويعود، لكل من تمنى أن يكون هناك شعاعٌ واحد يضيء ما تبقى من روحه. وربما، إذا كنتم مستعدين، ستكتشفون أن الغصن الأخير ليس نهاية المطاف، بل بداية الطريق لفهم أن الإنسان، مهما اهتزت قوائمه، قادر على أن يجد في داخله الضوء الذي ينقذه من الظلال.

هذه الصفحات ليست دعوة للانكسار، ولا للتشبث بما هو مفقود. إنها دعوة للمواجهة، للبحث عن معنى، للاحتفاء بالألم، وللاعتراف بأن كل سقوطٍ، مهما كان مؤلماً، يحمل في داخله بذرةَ ولادةٍ جديدة... وربما، على الغصن الأخير، سنجد أنفسنا مرة أخرى، أقوى، أعمق، وأكثر قدرةً على الحب والعيش والكتابة.

د. عدنان بوزان

الليل الماطر

تأخر الليل على غير عادته، وغارت أنجمه خلف سحبٍ خريفيةٍ متفرقة، سوداء كثياب الحداد، تلف المدينة الصغيرة بصمتٍ كئيب. الريح كانت تهب من بين الأشجار القديمة، تعوي بين أغصانها اليابسة، تلمس وجوه العابرين بلطفٍ بارد، كلسعةٍ لا يدركها إلا من يجرؤ على مواجهة الفراغ.

هي وحدها تمشي على دربٍ موحش، لا مأوى أمامها، ولا أحد لتشارك خطواتها المتعثرة، سوى صدى أنفاسها المتسارعة. المطر بدأ بغزارة مفاجئة، يطرق الكتف والوجه كصفعاتٍ هادئة، ثم يتحول إلى همسٍ يرافقها، يروي الأرض الموحلة ويزرع انعكاسات الضوء الخافت على الحصى المبلل، كعيونٍ ساهرةٍ تتفحصها، تحاول أن تقرأ قصتها قبل أن تعرف هي نفسها ما يحدث.

كانت تمضي بلا هدف، بلا رغبة في الاستسلام، لكن بلا يقينٍ أيضاً. كل خطوة كانت كأنها تحدٍّ للظلام، للمطر، للبرد، وللعالم الذي تخلى عنها منذ زمن بعيد. المنحدر أمامها كان حاداً، صخوره مغطاة بالوحل، لكنه لم يثنِها. سالت مياه المطر بين أصابع قدميها، وبللت أطراف ثوبها المهترئ، لكن كل قطرة كانت تتغلغل في جسدها، تحرك شيئاً دفيناً فيها، شيئاً لم تعرفه إلا الليلة، على هذا الطريق الطويل تحت المطر.

كانت سنواتها قد أرهقتها، والحياة قد أنهكتها، لكن الليلة لم تكن ككل الليالي. كان شيء ما في الهواء، شيء لم يُسَمَّ، يهمس لها بأن الرحلة التي بدأت قبل سنوات لم تنته بعد، وأن الغصن الأخير الذي تمسك به ليس مجرد غصنٍ هش، بل وعدٌ خافت بالنجاة.

ومع كل خطوة، كان قلبها يخفق بقوة، يعلو ويهبط كأنما يردّد صدى المطر على الأرض. فجأةً، جاء العواء... متقطعاً، غريباً، يقترب شيئاً فشيئاً من الظلال حولها. توقفت المرأة، تجمدت أطرافها للحظة، شعرت بوخزةٍ من الخوف تمتد إلى أعماقها. التفتت ببطء، عينان مفتوحتان تبحثان في الظلام عن مصدر الصوت، والليل، كما لو أراد أن يحمي سره، أخفى كل شيء عنها.

لكن حدسها لم يخطئ: لم يكن العواء مجرد صوتٍ عابر. كان نداءً، نداءً قديماً، من داخلها، من ماضٍ لم تلتقِ به منذ زمن طويل، من شيء عميق في روحها، يطالبها بالعودة، بالمواجهة، وبالاعتراف بما فقدته وما بقي.

رفعت رأسها إلى السماء، المطر يغسل وجهها، وعيونها تغلق للحظة، ثم فتحت فمها وأطلقت عواءً طويلاً، متواصلاً، كأنها تتحدث بلغةٍ نسيتها، لغة الروح والليل والمطر. العواء لم يكن صرخة خوف، بل صرخة استدعاء، إعلان ولادةٍ جديدة، تأكيد على أن هناك ما لم يمت بعد فيها.

هدأ كل شيء بعد ذلك. لا المطر ولا الريح استطاعا أن يصمدا أمام صدى عواءها. أصبح المكان صامتاً، لكن ليس خالياً؛ كان ممتلئاً بشيءٍ آخر، شيءٍ لم تستطع تسميته، شيء يتحدث بلغةٍ غير مفهومة، لكنه ملموس في كل جسدها وكل قلبها.

واصلت السير نحو النار الخافتة في البعيد، تلك النقطة الصغيرة التي تومض بين الظلال، تتحدى الريح والظلام. كل خطوة كانت صعبة، المنحدر صعب، الصخور حادة، ولكن كل خطوة كانت أيضاً رسالة لنفسها: لم يحن الوقت بعد للاستسلام.

وعندما اقتربت من النار، رأت في ضوئها أطيافاً تتراقص، أيدي متشابكة، وجوهاً مطموسة، وعيوناً تحدّق بصمت. كل شيء كان غريباً، لكنه مألوف في آن واحد، كأنها دخلت على ذاكرةٍ نسيت أنها تملكها.

ثم جاء الصوت... عميقاً، ثابتاً، ممتلئاً بالدهشة والمعرفة:
"لقد تأخرتِ."

رفعت بصرها ببطء، ورأت العجوز ذو اللحية البيضاء، وعيناه الحادتان كأنهما تعرفان كل أسرارها. لم تجب، جلست على الحافة، مدّت يديها المرتعشتين نحو الدفء. لم يكن خوفها من المجهول، بل من حقيقة أنها وصلت أخيراً، وأن كل ما واجهته كان مجرد مقدمة لما كانت تبحث عنه: ذاتها.

ابتسم الرجل وقال:
"العواء أخبرنا."

فهمت حينها. لم يكن العواء مجرد صدى الذئاب، بل صدى الماضي، صدى روحها الضائعة، صدى القدر الذي انتظرها طويلاً. كل سقوط، كل ألم، كل ضياع كان يهمس لها بأن هناك شيء آخر ينتظرها، شيء أكثر من مجرد النجاة... شيء أشبه بالولادة من جديد.

جلست بجانب النار، المطر يهمس فوق السقف الخفيف من الأشجار، والعواء اختفى في الصمت، كما لو كانت الطبيعة نفسها أبرمت اتفاقاً مع روحها. أدركت أن الغصن الأخير، الذي ظنّته هشاً، كان دائماً وعداً: وعد بالحياة، بالأمل، بالقدرة على الحب، على الكتابة، وعلى أن نكون كاملين رغم كل شيء.

* * *

جلست المرأة بجانب النار، تستشعر دفئها وهو ينساب عبر أطراف أصابعها المرتعشة، يلامس قلبها قبل جسدها. الهواء الماطر حولها أصبح أقل قسوة، وكأن الليل نفسه يلين أمام حضورها. لم تعد وحدها؛ لم تعد خطواتها مضطربة، ولم تعد الأشجار الصامتة تبدو غريبة، بل كأنها شهود على لحظة ولادة جديدة، على اكتشافٍ لم يعرفه قلبها منذ زمن.

جلس العجوز أمامها صامتاً، وعيناه تتحدثان قبل أن ينطق. كل مرة ينظر فيها إليها، كانت تشعر بأن شيئاً ما في روحها يفتح، كالنافذة التي تسمح لها لأول مرة أن تتنفس بعمق، أن ترى نفسها من الداخل، بلا أقنعة، بلا حماية، بلا خوف.

بعد لحظة، قال العجوز بصوت منخفض لكنه ثقيلي الوزن:
"كل خطوة في المطر، وكل سقوط على الطريق الموحل... كانت جزءاً منك. لم تكن تهدرين الوقت، بل كنتِ تتعلّمين كيف تصمدين."

أغمضت عينيها للحظة، وسمعت صدى المطر في داخلهما، كأنها تعيد قراءة حياتها كلها في صوت المطر. كل فقد، كل ألم، كل انتظار طويل، أصبح له معنى، كأنها لم تمشِ وحدها أبداً، بل كان الغصن الأخير يحملها طوال الطريق، صامتاً، لكنه دائماً هناك.

نهضت بعد ذلك، لم تكن حركتها عشوائية، بل كأنها حركة متوقعة منذ البداية، حركة تثبت أن الرحلة ليست عبوراً للظلام فقط، بل اكتشافٌ للضوء الذي يختبئ في داخلنا. اقتربت من النار، ومدّت يديها لتلمسها، وشعرت بارتعاش داخلي مختلف، ينبع من إدراكها أنها لم تعد تهرب من شيء. لقد تعرفت على خوفها، على ألمها، على فقدها، وعلى نفسها.

ابتسم العجوز مرة أخرى، وقال:
"الليل لا يخيف من يعرف كيف يسمع."

نظرت إليه باستفهام، وعادت عيناها لتستقبلان الضوء الخافت للنار. كان هناك شيء ما في الظلال حولها يتحرك، لكنه لم يكن تهديداً. كانت الظلال أشبه بأرواحٍ كانت تنتظرها منذ زمن طويل، أرواح تختبر صبرها على الوحدة، صبرها على الصمت، صبرها على الخوف، وتجعلها تدرك أن الحياة ليست فقط ما نراه، بل ما نحمله في الداخل.

بدأت تتحدث بصوت خافت، كأنها تتحدث إلى نفسها أولاً، ثم إلى العجوز، ثم إلى العالم كله:
"لقد فقدت كثيراً... ولكني ما زلت هنا. كل سقوطٍ، كل دمعة، كل ليلة مظلمة، كانت تدريباً على ما سأصبح."

العجوز لم يرد، لكنه لم يكن بحاجة للكلمات. كان صمت الليل، وصوت النار، وهمس المطر حولهما، يجيب عنها.

في تلك اللحظة، شعرت المرأة أن الغصن الأخير لم يعد هشاً. لقد أصبح ساقاً متينة، جسداً من نور، يحملها فوق كل انهيار، كل وحل، وكل عواء. لم يكن الغصن مجرد مكان للتشبث به، بل كان وعداً بأن الإنسان قادر دائماً على النهوض، على مواجهة الظلام، على العثور على نفسه، حتى في أصعب اللحظات.

ظلّت المرأة هناك، تتأمل النار، تستمع إلى المطر، وتسمع صوت العواء يبتعد شيئاً فشيئاً في الغابة. لم يعد خوف، بل أصبح مجرد صدى قديم يذكرها بأن الحياة، مهما كانت قاسية، تحمل دائماً فرصة جديدة... فرصة لإعادة اكتشاف الذات، فرصة للحب، فرصة للكتابة، فرصة لأن نكون أكثر من مجرد ظلال.

نهضت أخيراً، وجعلت خطاها ثابتة هذه المرة، خطوات تدل على أنها تعرف الآن أنها قادرة على الاستمرار. وقف العجوز بجانبها، وابتسامة خافتة ترتسم على وجهه، كأن الليل كله، والمطر، والغصن الأخير، قد أعطوها طاقتها الجديدة.

وفي الطريق، بينما كانت تبتعد عن النار وتعود إلى الغابة، أدركت شيئاً مهماً: ليس المهم المكان الذي تصل إليه، بل الرحلة نفسها، كل سقوط، كل صمت، كل خطوة في الظلام، كل لحظة انتظار... كل ذلك كان الطريق الحقيقي للنجاة.

الليل استمر ماطراً، لكن المرأة لم تعد تخاف. الغصن الأخير كان حقيقياً، والرحلة لم تنته بعد، لكنها تعلمت كيف تمسك به، كيف تمشي عليه، وكيف تتحول من مجرد ظلٍ لنفسها، إلى شخصٍ قادر على مواجهة كل ظلام، وكل مطر، وكل عواء.

لحظات لا تعود

في أحد الأرياف البعيدة، حيث تمتد الحقول بلا نهاية وتداعب الرياح سنابل القمح برفق، كان هناك رجل يُدعى سلمان. كان فلاحاً عجوزاً قضى عمره بين الأرض والسماء، يزرع ويحصد، دون أن يفكر يوماً في الزمن الذي يسرق منه العمر شيئاً فشيئاً. كان سلمان رجلاً صلباً، نادراً ما يبوح بمشاعره، وكأن قلبه كان قطعة صخرية تآكلت بفعل الأعوام.

كانت لِسلمان زوجة تدعى راحيل، امرأة صبورة تحملت معه مشاق الحياة دون شكوى. كانت الشمس تشرق وتغرب وهي بجانبه، تسانده دون أن تطلب شيئاً لنفسها. لكنها مع مرور الأعوام، بدأت تشعر بالوهن، وأصبحت أكثر هدوءاً، كما لو أن روحها تستعد لمغادرة هذا العالم.

وفي إحدى الليالي الباردة، حين كانت الأنجم تضيء السماء بوميض حزين، تمددت راحيل على سريرها الخشبي، وقد بدا عليها الإرهاق الشديد. حاول سلمان أن يبعد القلق عن قلبه، لكنه شعر بخوف لم يختبره من قبل. كان خوفاً لا علاقة له بالمطر الذي تأخر هذا العام، ولا بالمحصول الذي تراجع إنتاجه، بل كان خوفاً من فقدان الشيء الوحيد الذي جعله يتحمل صعوبات الحياة دون أن ينهار.

أمسك بيدها المتعبة، وكان يعلم في قرارة نفسه أن لحظاتهم معاً أصبحت معدودة. قال لها بصوت متحشرج: "راحيل... أنتِ كنتِ دائماً قوتي، لم أشكرك يوماً كما ينبغي، ولم أخبرك كم كنتِ مهمة بالنسبة لي."

ابتسمت راحيل ابتسامة خافتة، وكأنها كانت تنتظر هذه الكلمات طيلة حياتها، لكنها لم تنطق بشيء. في تلك اللحظة، أدرك سلمان أن الحب لا يُقاس بعدد السنين التي نقضيها مع من نحب، بل بعدد اللحظات التي نعبر فيها عن هذا الحب.

وفي اليوم التالي، حين بزغ الفجر بنوره الخافت، لم تعد راحيل بجانبه. تركته وحيداً في هذا العالم، ومعها رحلت كل الكلمات التي لم يقلها لها في الوقت المناسب.

أصبح سلمان بعد ذلك رجلاً مختلفاً. لم يعد ذلك الفلاح الصامت، بل أصبح يحرص على قول الكلمات الجميلة لمن حوله، لأنه أدرك أن الوقت لا ينتظر أحداً، وأن المشاعر التي لا تُقال قد تموت في الصدور دون أن تجد طريقاً إلى النور.

وفي كل صباح، كان يقف أمام قبر راحيل، يتحدث إليها كما لو كانت تستمع. يحكي لها عن حقوله، عن السماء، وعن الأشجار التي كانت تحبها. يهمس لها بكلمات الحب التي لم يقلها من قبل.

هكذا تعلم سلمان الدرس الأكبر في حياته: لا تؤجل الحب، ولا تبخل بالكلمات الطيبة، لأن هناك لحظات لا تعود، وأرواحاً لا تنتظر كثيراً قبل أن ترحل.

لم يكن الزمن يسير كما كان يظن. فقد بدأ سلمان في ملاحظة تفاصيل صغيرة كانت غائبة عن عينيه طوال السنين. كل زهرة تخرج من الأرض كانت تذكره براحيل، وكل غيمة تمر في السماء كانت تحكي له عن لحظات جمعتهما تحت ضوء القمر. وعندما كان يعمل في الأرض، كان يشعر وكأن راحيل لا تزال إلى جانبه، تهمس له بلطف وتشارك معه كل لحظة. أصبح يجد نفسه يتحدث إليها في كل خطوة يخطوها، على أمل أن يسمع صوتها، على أمل أن يعود الزمن ليعطيه فرصة جديدة.

ومع مرور الأيام، أدرك سلمان أن الحب الذي كان يظنه ضياعاً من الزمن هو في الحقيقة الخلود نفسه. ففي كل حبة قمح يزرعها، وفي كل زهرة تفتح على جوانب الأرض، كان يجد جزءاً من راحيل. وكلما نظر إلى السماء، شعر بأن روحها تراقبه، تشاركه ضوءها الذي لا يغيب.

وكلما اجتمع أهل القرية حوله، كانوا يرون في عينيه حكمة عجوز عرف قيمة اللحظات الصغيرة. أصبحوا يقدرون كلمات سلمان أكثر، ويحرصون على أن يُعبّروا عن حبهم لمن حولهم، فلا شيء يستحق التأجيل، ولا شيء يستحق العيش دون أن يقال.

مرت السنوات، وأصبح سلمان رجلاً عجوزاً بشكلٍ حقيقي، ولكن قلبه ظل شاباً، مليئاً بالحكمة والمشاعر التي تعلم أن يعبر عنها. كان يجلس في الظلال تحت شجرة التين التي زرعها مع راحيل في أول أيام زواجهما، يدير أصابعه بين أوراقها وكأنها تتحدث إليه. كان يرى فيها صوراً من الماضي، ومشاهد تمثل لحظات حبهما، وحلمه بأن تبقى الأرض خصبة دائماً، والحياة قائمة على تلك المحبة البسيطة التي تغني القلب.

في أحد الأيام، بينما كان يتجول في أرضه، جاءه أحد شباب القرية، شاب لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره. كان اسمه ياسر، وكان يحمل معه بذور قمح جديدة، يسعى لزراعتها في الأرض التي ورثها عن أجداده. لكنه كان يعاني من شكوكه، وكان يشعر أن الأرض التي ورثها لا يمكنها أن تُثمر كما كانت تفعل في الماضي.

جلس ياسر بجانب سلمان، وقد بدا عليه التوتر والقلق. قال: "أيها العجوز، لقد جربت كل شيء، وزرعت كل البذور التي قيل لي إنها الأفضل، ولكن الأرض هنا لم تعد كما كانت. هل تعتقد أنني قادر على العيش كما عشتَ؟"

نظر سلمان إلى ياسر بعمق، ثم ابتسم ابتسامة هادئة. "يا بني، الأرض ليست هي التي تغيرت، بل نحن الذين تغيرنا. لا تتوقع أن تأتي الثمار دائماً كما تريد، لأن الأرض تحتاج إلى الصبر، مثلما تحتاج الأرواح إلى الصبر. أعتقد أن الأرض سترد لك في يوم ما، ما بذلته فيها، لكن عليك أن تكون صبوراً. عليك أن تعرف كيف تحبها، وتقدرها، وتفهمها."

ثم أضاف، وهو ينظر بعيداً نحو الأفق: "ولكن الحب ليس فقط للأرض. تعلم أن تحب من حولك، وأن تعبر عن حبك في الوقت المناسب. لأن هناك أياماً تنقضي دون أن تقول كلمة طيبة أو تشارك أحداً شيئاً من قلبك، وستندم على تلك اللحظات."

شعر ياسر بصدق كلمات سلمان، وكان يعي أن ما قاله لم يكن مجرد نصيحة حول الزراعة، بل كان حديثاً عن الحياة نفسها. بدأ ياسر يعيد التفكير في طريقة تعامله مع الحياة، وكان يشعر بأن كل كلمة قالها سلمان كانت بمثابة نور يضيء له الطريق.

ومع مرور الوقت، بدأ ياسر يزرع بذوره بعناية أكبر. ولم يكن يزرع الأرض فحسب، بل كان يزرع في نفسه قيماً جديدة، ويغرس في قلبه حباً أعمق لكل لحظة يعيشها، ولكل شخص يلتقي به. بدأت الأرض تستجيب له، وكأنها تعرف أنه أصبح جزءاً منها، وأنه بدأ يتعامل معها بحب وصبر، تماماً كما فعل سلمان في شبابه.

وأصبح ياسر يزور سلمان بشكل منتظم، يتعلم منه ليس فقط عن الزراعة، بل عن الحياة بشكل عام. كان سلمان يعلم أنه مع مرور الزمن، سيغادر هذا العالم كما غادرت راحيل. لكنه كان يطمئن نفسه بأن حبّه لما حوله، وكلماته الطيبة، ستظل حية في قلب ياسر وغيره من أبناء القرية الذين تعلموا منه أن الحياة لا تتعلق بما تملك من مال أو أرض، بل بما تملك من قلب محب وكلمات صادقة.

وفي يوم من الأيام، وعندما كان موسم الحصاد قد أتى، وقف سلمان في قلب حقله، ينظر إلى الأشجار التي زرعها، والزهور التي كانت تبتسم في وجه الشمس. كان يشعر بشيء من السلام الداخلي. وكان قلبه ممتلئاً بالطمأنينة، لأنه كان يعلم أن الأرض ستستمر في العطاء، وأن الحب الذي زرعه في قلوب الآخرين سيستمر في النمو.

وبينما كان يهم بالعودة إلى منزله، نظر إلى السماء، حيث كانت الغيوم تتراقص فوقه، وكأنها تهمس له بشيء. ابتسم، ثم همس: "راحيل، ربما الآن فقط أدركت كم كنتِ محقة في كل شيء. وأنتِ لن تبتعدين أبداً، لأن حبك لا ينتهي."

تلك اللحظة، كان سلمان قد أكمل دائرته في الحياة. أدرك أن الحياة ليست مجرد أيام تمر أو لحظات تُحتسب، بل هي سلسلة من التجارب، والمشاعر، والكلمات التي لا تُقال، ولكن تُحس وتُعاش. وفي آخر أيامه، كان قد علم الجميع أن الحب الحقيقي لا يحتاج إلى كلمات كثيرة بقدر ما يحتاج إلى أفعال صادقة، وإلى زمن نعيشه بأكمله مع من نحب.

وهكذا، عاش سلمان بسلام، تعلم درسه العظيم، وترك في قلب كل من حوله أثراً لا يُنسى، وكلمات ستظل ترددها الأجيال القادمة: "لا تؤجل الحب، ولا تبخل بالكلمات الطيبة، لأن هناك لحظات لا تعود، وأرواح لا تنتظر كثيراً قبل أن ترحل."

على كتف الجبل... رفرف العَلَم

كان اسمه جودي، على اسم الجبل الذي ولد عند سفحه. لم يكن يعرف الكثير عن السياسة، ولا عن خرائط العالم المعقّدة، لكنه كان يعرف هذا:
أن هناك رجالاً غرباء، بلغة غريبة، لا يشبهون الأرض، قد أحكموا قبضتهم على قريته، ومنعوا الأغنية التي كانت أمه تدندن بها كل صباح، بحجّة أنها "لغة لا وجود لها."

كان جودي في السابعة حين رأى الجنود يقتادون والده في الليل، بتهمة حيازة كتابٍ بالكوردية. لم يره بعدها قط.

وفي اليوم التالي، لم تبكِ أمه. مسحت الغبار عن باب الدار، أوقدت نار التنّور، وغنت بصوتٍ مبحوح:

"إذا متنا، فإن التراب سيغني بلغتنا..."

كبر جودي، وكبرت فيه نارٌ لا تنطفئ. لم يكن طالباً في الجامعة، بل راعياً في الجبال، ولكن الكتب كانت تصل إليه خلسة، عبر شبكات سرية من المعلمين المنسيّين.

قرأ عن جيفارا، ومانديلا، ومظفر النواب، وذات ليلة قال:

– "لماذا لا تكون لي حريتي أنا؟ لماذا لا يكون لجبلي عَلَم، ولغتي كتاب، ولأمي ذاكرة لا تمنع؟"

تسلح جودي بصوته أولاً. راح يكتب على الجدران ليلاً:

"نحن شعب ولسنا رعايا"
"لغتنا وطننا"
"الحرية لا تُطلَب... تُنتزع"

ثم تسلح بالكلمة في السراديب. أسّس مع رفاقه مطبعةً سرية في كهفٍ مهجور، وبدأوا يطبعون منشوراتٍ عن الحقوق، عن الظلم، عن التاريخ الممنوع من المدارس، عن الثورات التي خنقت قبل أن تولد.

وذات ليلة، داهمتهم القوات. اعتقل جودي، وعلق جسده بالسلاسل. أرادوا منه أن يوقع ورقةً واحدة، يتنازل فيها عن "أفكاره"، لكنه ضحك وقال:

– "لو كانت الحرية فكرة، لقتلتُها كي تناموا... لكنها دم، ودمنا لا يجفّ."

خرج من السجن بعد سنوات. لم يكن كما دخل. كان وجهه محفوراً كصخرة، ويداه ترتجفان من أثر التعذيب. لكنه، ما إن وطئت قدماه أرض الجبل، حتى قال لأخيه:

– "لن نكسر القيود... سنذيبها بحرارة النشيد."

عاد إلى العمل. نظم المظاهرات، أسّس مدرسةً سرية للأطفال. وكلما اعتقل، خرج أكثر اتقاداً. لم يكن يطلب مجداً شخصياً، بل فقط أن يستطيع الطفل أن يقول اسمه بلغته... دون خوف.

وفي ليلةٍ من ليالي آذار، اجتمع أهل القرية حول شعلة نوروز، ورفع جودي العلم الكوردي لأول مرة على كتف الجبل.

لم يكن علم دولة، بل قطعة قماش خاطتها أمه قبل أن ترحل.
قال وهو يعلقها:

– "الحرية تبدأ حين لا نخاف أن نسمي شهداءنا، أن نحكي حكايتنا، أن نغني لغتنا ونحن نزرع القمح."

وفي اليوم التالي... استشهد جودي برصاصة قناص.
لكن العَلَم لم يسقط.

رفعه طفلٌ في العاشرة، كان جودي قد علمه كيف يكتب "حرية" بالحروف الكوردية.

ومنذ ذلك اليوم، كلما مرّت الريح على الجبل، كانت تحمل همساً يشبه الصوت الذي لم يكسر:

"الحرية ليست حلماً... إنها دينٌ نسدده بدمنا."

(الجزء الثاني)

مرت الأشهر، وظل جودي وريان في ذاكرة القرية كنسيمٍ لا يرى، لكنه يحس به القلب. أصبح ريان شاباً، عيناه تحاكيان وهج الجبل، وصوته صار قوياً كصدى الصخور بين الأودية. لم يكن وحده؛ فقد انضمت إليه ليلى، ابنة أحد المعلمين الذين ساندوا جودي أيام المطابع السرية، فتاة في الخامسة عشرة، ذكية، صامتة أحياناً، لكنها تحمل في قلبها نارَ جودي نفسها.

كانت ليلى تحمل معها دفاتر صغيرة، مليئة بالقصص والأشعار المكتوبة باللغة الكوردية، والتي لم يسمح أحد بقراءتها علناً منذ سنوات. كانت تخبر الأطفال عن الشجاعة، عن المقاومة، وعن كيف يمكن للكلمة أن تكون سلاحاً أقوى من البندقية.

في صباحٍ مشمس، وقف ريان وليلى على سفح الجبل، يراقبان الريح وهي تعانق العلم. قال ريان:

– "كل رصاصة قتلتنا جسدياً... لكنها لم تقتل أفكارنا. هذه الجبال تحمل ذكرياتنا أكثر مما يحمل أي حجر."

ابتسمت ليلى وقالت:

– "نحن هنا لنعلمهم أن الحرية ليست خياراً... الحرية هي حياتنا نفسها."

بدأت القرية تتحول تدريجياً. صار الأطفال يأتون إلى الكهف ليتعلموا القراءة والكتابة بلغتهم، وبدأ الشباب يرسمون على الجدران الصغيرة في الأزقة، ينقشون على الحجر كلمات جودي:

"لغتنا وطننا... ودماؤنا ليست للنسيان."

وذات ليلة، بينما كان القمر يعلو على قمة الجبل، وصل إلى القرية كردو، شاب في السابعة عشرة، هرب من قرية مجاورة بعدما صادفته قوات جديدة تبحث عن أي أثر للعلم الكوردي. كان يحمل رسالة من جودي: دفتر صغير فيه أسماء الذين ارتقوا من أجل الكلمة، وقائمة بالأماكن التي يمكن أن تزرع فيها بذور الحرية.

استقبل ريان كردو بحرارة، وقال:

– "كل واحد منكم هو شعلة... ونحن معاً سنضيء هذا الجبل."

ومع حلول الشتاء، اشتدت المحن. عاد الجنود، هذه المرة بوحشية أكبر، لكن القرية كانت مستعدة. اختبأ الأطفال والشباب في الأنفاق، بينما رفع ريان وليلى وكردو العلم على أعلى صخرة، متحدين الرصاص والظلام.

ارتفع العلم، وارتجف الهواء، وكأن الجبل نفسه كان يصيح:

"لن ننكسر... لن ننسى."

في تلك اللحظة، فهم ريان ما لم يفهمه وهو طفل صغير: أن جودي لم يزرع الحرية فقط في الأرض، بل في القلوب، وأن أي محاولة لإسكاتها ستصطدم بجدارٍ من الإصرار والعزيمة التي لا تكسر.

مرت السنوات، وبدأت القصص تنتشر في القرى المجاورة. الأطفال الذين تعلموا في كهف الجبل صاروا يعرفون كيف يكتبون حروف "حرية" بأناملهم الصغيرة، وكيف يرفعون أعلامهم على تلالهم. أصبح العلم رمزاً للكرامة، لكل قلب يريد أن يسمع صوته، ولكل روح رفضت أن تسكت.

وفي يومٍ ربيعي، تجمع أهل القرية حول الشعلة الكبيرة، ووقف ريان على صخرة، يلوّح بالعلم، إلى جانبه ليلى وكردو، وقال:

– "جودي علمنا أن الحرية ليست حلماً... إنها دمٌ يسري في عروقنا، أغنية تغنى على كل كتف، ونارٌ لا تنطفئ."

هبت الريح بقوة، ارتجفت الجبال، ورفرف العلم. وشعر كل من حضر بأن قلبه أصبح جزءاً من هذا الجبل، وأن كلمات جودي لا تزال حية، تذكرهم بأن الحرية لا تسلب، ولا تباع... بل تحفظ، وتزرع، وترفع على كتف كل جبل، كما رفرفت لأول مرة على جبال وطنٍ صغير، لكنه لا يموت.

(الجزء الثالث)

مرت السنوات، وأصبح ريان شاباً قوياً، عيناه تحملان وهج الجبل، ويداه صارتا ترفعان العلم بجرأة، حتى في وجه كل تهديد. أصبحت ليلى صديقته وشريكته في كل خطوة، وكردو أصبح اليد التي تمسك دفتر التاريخ، يسجل كل اسم، وكل حدث، وكل فكرة لم يقدر الآخرون على محوها.

وفي أحد الصباحات الماطرة، جاء إلى الكهف آزاد، فتى في الثالثة عشرة، هرب من بلدة بعيدة بعدما شهد مذبحة قرية كاملة، بحثاً عن أي ملاذ أو قصة تبقيه على قيد الأمل. عيون آزاد كانت تحمل خوفاً لم يعرفه ريان في شبابه، لكنها كانت أيضاً تلمع ببريق فضول لا يقهر.

وقف ريان أمامه وقال:

– "إذا أردت أن تعرف لماذا نرفع العلم، فلماذا نقف على هذه الصخور، ولماذا لا نخاف... تعال معنا، وسنريك أن الحرية ليست حلماً، بل دمٌ يسكب على الأرض ليزرع في القلوب."

تعلم آزاد بسرعة، وأصبح يرافق ريان وليلى وكردو في زياراتهم الليلية إلى القرى المجاورة. هناك، بدأوا يعلمون الأطفال والشباب كتابة لغتهم، وقراءة التاريخ الممنوع، ورسم العلم على الجدران، وعلى الحجر، وعلى كل مكان يمكن أن يحمله الريح.

وذات يوم، بينما كانوا على تلة عالية يطلون منها على وادٍ عميق، رأوا أعلاماً صغيرة ترفع على تلال أخرى. كانت القرى المجاورة بدأت تستعيد شجاعتها، وكل علم كان بمثابة شعلة تضيء الطريق للقادم.

لكن هذا التوسع لم يمر دون ثمن. عاد الجنود، أكثر وحشية، مدججين بالأسلحة والمعدات الحديثة. اقتحموا إحدى القرى الصغيرة، حاولوا إزالة كل أثر للحرية، لكن الأطفال والشباب كانوا قد اختفوا في الأنفاق، بينما رفع ريان وليلى وكردو وآزاد العلم على أعلى صخرة في القرية الجديدة.

ارتجف الجبل تحت وقع الرصاص، وارتجفت الأرض تحت أقدام الجنود، لكن العلم لم يسقط. رفعه آزاد، الطفل الذي كان يرتعش من الخوف قبل أيام، وصرخ بصوتٍ لم يسمعه أحد من قبل:

– "الحرية ليست لك وحدك! هذه دماؤنا جميعاً... وهذه جبالنا!"

تجمعت القرى المجاورة، وصارت حركة المقاومة تنتشر كالنار في الهشيم. بدأ الشباب يشكلون مجموعات صغيرة، ينقلون الكتب والأفكار والرسائل السرية، ويرسمون العلم على كل صخرة، وكل جدار، وكل تلة.

وذات ليلة، جلس ريان على صخرة كبيرة، ورفع عينيه إلى النجوم. قال لليلى وكردو وأزاد:

– "جودي علمنا أن الأرض التي نحبها، واللغة التي نتحدث بها، والقصص التي نحكيها، كلها جزء من المقاومة. ليست فقط لأجلنا، بل لأجل كل من سيأتي بعدنا."

ابتسمت ليلى وقالت:

– "والأجيال القادمة، يا ريان... ستعلم أن الحرية لا تهدى، بل تزرع، وتحرس، وترفع على كل كتف جبل."

أصبح العلم رمزاً عالمياً للكرامة، لكل قلب يرفض أن يسكت، لكل روح تتوق إلى الحياة بلا خوف. ومع مرور الوقت، بدأت قصص الجبل تنتقل عبر الأجيال، ليصبح كل طفل يعرف أن رفرفة العلم على الجبال ليست مجرد قطعة قماش، بل أغنية لا تنطفئ، ورسالة لكل من يريد أن يعرف معنى أن يقف شامخاً، رغم كل المحن.

وفي نهاية كل يوم، كانت الريح تعانق العلم، والجبال تهمس، والنجوم تشهد، والقصص تنتشر:

"الحرية ليست حلماً... إنها دمٌ، وأغنية، ونارٌ في القلب لا تنطفئ."

(الجزء الرابع)

مرت السنوات، وتحولت القرى الصغيرة المحيطة بالجبل إلى شبكة من الأمل. أصبح ريان وليلى وكردو وأزاد قادةً صغاراً في حركة المقاومة، يعلمون الصغار والكبار معاً أن الحرية ليست مجرد كلمات تكتب على الجدران، بل دمٌ يسكب في الأرض ليزرع في القلوب.

وذات صباح هادئ، وصلتهم أنباء بأن الجنود يخططون لغزو الجبل بالكامل، لإسقاط العلَم وكسر إرادة الناس. لم يخفّ ريان، بل وقف على الصخرة الأعلى، ينظر إلى الأفق المظلم، وقال:

– "لقد حاولوا طوال حياتنا أن يمحو كل شيء... لكن كل رصاصة وكل تهديد زادنا صلابة. اليوم، سنثبت أن الحرية لا تسقط."

انطلقت القرى الصغيرة للتجمع حول الجبل. الأطفال الذين تعلموا في الكهف أصبحوا شباباً قادرين على الدفاع عن أرضهم بالكلمة والفعل، والنساء والرجال حملوا العلم في كل مكان. كل صخرة، كل شجرة، كل وادٍ أصبح شاهداً على إرادة شعب لا يقهر.

بدأ الجنود الهجوم. كانت أصوات البنادق والرصاص تهز الوادي، والرياح تحمل دخان المعارك إلى الأعلى. لكن ريان وقف مع ليلى وكردو وأزاد على الصخرة، يلوّحون

بالعلم. رفع آزاد، الذي كان في البداية طفلاً يرتجف من الخوف، العلم عالياً، حتى أصبح رمزاً للجبال كلها.

وفي لحظة عصية على الزمن، حدث ما لم يكن متوقعاً: انفجرت المقاومة الشعبية بشكل عفوي في القرى المجاورة. الأطفال والشباب والنساء حملوا الأدوات القديمة، رسموا الجدران، وأشعلوا النار في شعلة النوروز، حتى ارتجفت الأرض من قوة الإرادة الجماعية. لم يجد الجنود أمامهم إلا صخرة لا تتزحزح، وعلم يرفرف كأنه صرخة جبلية.

وفي قلب المعركة، التفت ريان إلى ليلى وقال:

– "جودي لم يزرع الحرية فقط في الجبال... لقد زرعها في كل قلب، وفي كل نفس، وفي كل فكرة. واليوم، كل واحد من هؤلاء الأطفال والشباب هو امتداد له."

ارتفعت الهتافات، وترددت صدى أصواتها بين الجبال، وحملت الرياح العلم فوق كل تلة، وفوق كل وادٍ، وكأنها تقول للعالم كله:

"الحرية ليست حلماً... إنها دم وأغنية ونار في القلب لا تنطفئ."

مع انتهاء المعركة، لم يقتل أحدٌ من الأطفال والشباب الذين رفعوا العلم، لكن الجبل نفسه كان قد اختبر قوة إرادتهم. أصبح العلم على القمة، ليس رمزاً فقط لجودي وريان، بل لكل روح رفضت أن تسكت، ولكل قلب حمل فكرة أن الحرية لا تموت مهما حاول الظلام أن يغلق الأبواب.

وفي مساء اليوم الأخير، جلس ريان وليلى وكردو وأزاد على صخرة عالية، ينظرون إلى الأفق. قال ريان بصوتٍ مملوء بالفخر والحزن معاً:

– "لقد بدأ جودي حلمه هنا... ونحن أكملناه. لكن الحرية لن تنتهي معنا، إنها في كل طفل يحمل القلم، وكل شخص يرفع العلم على كتف جبل."

ابتسمت ليلى وقالت:

– "كل جبل، وكل وادٍ، وكل صخرة... كلها الآن تعرف أن الإرادة لا تقهر، وأن الأفكار لا تسجن."

هبت الرياح من جديد، ارتجفت الجبال، ورفرف العلم، وشهدت النجوم. وهكذا، على كتف الجبل، استمرت أغنية الحرية، تغنى في كل قلب، وفي كل نفس، وفي كل فكرة، لتبقى قصة جودي وريان وليلى وكردو وأزاد خالدة، كما رفرفت لأول مرة على جبال وطن صغير لكنه لا يموت.

الندبة التي عبرت الجبل

الفصل الأول: صدى في الضباب

في قريةٍ نائية، كأنها تُوشك أن تنسلّ من خريطة العالم، كانت الضبابات تهبط كل مساءٍ وتحتضن البيوت الطينية بحنو أمٍّ تغطي طفلها من برد الأسرار. هناك، بين عواء الريح وندف الثلج، ولد "جوان" ذات شتاء، وكأنه لم يولد من رحم امرأة، بل من رحم الجبل نفسه.

كان وجهه يحمل صمتاً لا يليق بالأطفال، وعيناه كأنهما تتذكران شيئاً لم يحدث بعد. وكانت جدته، آخر من بقي يحفظ حكايا النار والليل، تهمس له كل مساء عن قرية مهجورة خلف التلال تدعى روها، حيث انفجر الجبل ذات فجرٍ وغرقت الأحلام في حجره.

"لا تصعد إلى هناك، يا بني... الجبل لا ينسى من أيقظه."
قالتها بصوتٍ يشبه حفيف ورقٍ جفّ من الحنين.

لكن جوان، كما كل الحالمين، لم يكن يهاب لعنات الأجداد، بل يهاب شيئاً آخر... الخوف من الكذب على نفسه.

مرت الأعوام، وكبر جوان على شفير الهاوية: بين الحكاية والخرافة، بين الجوع والحقيقة. وحين وقعت المجاعة، وانحنت الأمهات إلى الأرض لالتقاط الجذور من تحت الحجارة، بدأت الهمسات تتصاعد كدخانٍ خفيف: "في روها كنز... خبأه الهاربون".

ودّع أمّه، ووعد خليلته "هزار" التي كانت تلوّح له من بين السنابل الجافة، وقال لها:

"لن أعود بذهبٍ يا هزار... بل بوجهٍ لا يعرف الانكسار."
ثم قبّل يد أمّه، وغاب بين البياض، كأن الثلج طوى أثره.

كان الجبل صامتاً، لكنه لم يكن ساكناً. الصخور كانت تنزف صوتاً، والريح تعوي كذئبٍ مجروح. وبعد أيام من التسلّق، بلغ جوان تخوم روها. لم يجد كنزاً، بل كوخاً متداعياً وأمام بابه شيخٌ كأن الزمن اتكأ عليه ليستريح.

"ما الذي جاء بك، يا ابن الجبل؟"
سأله الشيخ، وصوته بدا كأنّه يأتي من داخل الصخر.

"أبحث عن ماضٍ ضيّعه الجوع..."
أجاب جوان، وكان صوته ناضجاً كحزنٍ قديم.
أشار له الشيخ أن يبقى، لكنّه حذّره:

"ابقَ إن شئت... ولكن إياك والبئر. لا تنظر في عينيها، فهي لا تظهر الماء، بل تريك نفسك كما ستكون لو لم تعد."

لم يسأل جوان لماذا. في البداية، قاوم البئر. عمل مع الشيخ، جمع الحطب، وتعلم أن يصغي لصوت الأعشاب وهي تشفى، وأن ينام على جلد الذئاب دون أن يحلم.

لكن البئر كانت تناديه... كل ليلة، في الحلم واليقظة، كان يشعر أن فيها شيئاً ينتظره، شيئاً يخصّه وحده.

وفي ليلة، نزل إليها. تطلع فيها... لم يرَ ماء، بل رأى وجهه، ولكن وجهه كان آخر. كان عجوزاً، له ذات الندبة التي في جبين الشيخ، وعيون من رأى كثيراً ليقول شيئاً.

صرخ. لكنه حين عاد إلى الكوخ، لم يجد الشيخ، بل وجد مرآة. وفيها... كان هو الجالس على الكرسي، والندبة تزين جبينه كوشمٍ من قدرٍ لا يمحى.

هناك، بدأ الزمن يعيد نفسه، لا إلى الوراء، بل إلى الداخل. وانتهى جوان.

الفصل الثاني: العودة

لم يكن المطر ذاك اليوم مطراً عادياً.
كان وكأنه اعتذارٌ قديمٌ من السماء، سقط على الأرض متأخراً بأعوامٍ كثيرة.

في أطراف القرية، عند حدود الذاكرة والعدم، ظهر رجل. كان يسير كأن قدميه لا تلمسان التراب، كأن الهواء نفسه يحمله، لا الأرض. ثوبه مبلل، كأن المطر لا يريد أن يتركه، أو كأن الحنين تسلل إلى الغيم وتلبسه.
وجهه ليس غريباً تماماً... لكنّه ليس مألوفاً أيضاً.

جلس في ساحة القرية، أمام شجرة اليابس التي كانت يوماً تلوّح له "هزار"، وأخرج مرآةً صغيرة صدئة، وضعها على حجرٍ قديم، وقال دون أن يرفع عينيه:

"اسمي ليس جوان... اسمي الآن هو الندبة."

ضحك بعض الأطفال.
ركض أحدهم إلى أمه وقال: "جاء رجل من الجبل... وجهه فيه نهر يابس!" لكن أحداً لم يقترب. فالجبل، كما تقول الجدات، لا يعيد أبناءه، بل يعيد ظلالهم.

مرت الساعات، ولم يتكلم.
جلس كصخرة تهمس بها الريح ولا تردّ،
حتى اقتربت امرأة عجوز، مكسوة بالشال والذكرى.
كانت "جدة جوان"، وقد شاخت تماماً، ونسيت كل شيء... إلا ملامحه.

قالت، وهي تتكئ على عكازها:
"أنت... ابنه.

كانت الكلمات تسقط عليه أثقلَ من المطر.

«أمّك ماتت وهي تنتظر...
وهزار؟ دفنت الوعد يوم لم يعد لك أثر.»

لم يكن الصوت قاسياً، بل كان بارداً... بارداً كحقيقةٍ لا تحتاج إلى صراخٍ كي تجرح.
توقّف كلُّ شيءٍ في داخله عند تلك الجملة، كأنّ الزمن نفسه انحنى قليلاً ليمنح الألم مساحةً أوسع.

أغمض الندبةُ عينيه.

لم يكن «الندبة» اسمه، لكن الناس، حين يكثر عليهم الوجع، ينسون أسماءهم الأولى. كان وجهه يحمل خطّاً طويلاً شاحباً يمتدّ من صدغه إلى طرف فكه، أثرَ شظيّةٍ قديمة. غير أنّ الندبة الحقيقية لم تكن على جلده... بل كانت في صوته حين ينادي: «أمّي»، ولا يسمع جواباً.

كان المطر لا يزال يسقط؛ خفيفاً في البدء، ثم أكثر إصراراً، كأنه يحاول أن يغسل المدينة من ذاكرةٍ لا تحتمل. غير أنّ الأرض حوله لم تكن مبتلة، كأنها فقدت قدرتها على استقبال السماء.
كان يقف في ساحةٍ ترابية أمام بيتٍ مهدَّم النوافذ، جدرانه التي كانت يوماً بيضاء صارت رماديةً كوجه عجوزٍ أنهكه الانتظار.

مدّ يده نحو الجدار، فشعر بخشونته وبرودةٍ كامنةٍ في مسامه.
قال في سرّه:
«أمي... هل كنتِ تقفين هنا كلَّ مساء؟ هل كنتِ تنظرين إلى الطريق نفسها؟»

تذكر الباب الخشبي الذي كان يصرّ حين يفتح، رائحة الخبز الساخن، يديها المغبرتين بالدقيق، وصوتها وهي تقول:
«لا تتأخر... الليل لا يحبّ الذين يمشون وحدهم.»

تأخّر.

ولم يكن يعرف أنّ التأخّر قد يتحول إلى غياب، وأنّ الغياب قد يتحول إلى قبرٍ بلا شاهد.

حين غادر القرية، كان يعدها بأشياء بسيطة:
«سأعود قبل الشتاء.»
«سأبني لكِ غرفةً تطلّ على الشمس.»
«سأشتري لكِ معطفاً لا يتسرب منه البرد.»

لكنّ الشتاء سبقه، وكان البرد أسرع من رسائله، وكانت الحرب أقسى من وعود شابٍّ لم يعرف أنّ الطريق قد يبتلعه.

أُسر.
ثم هرب.
ثم تاه.
ثم صار رقماً في قائمةٍ لا أحد يقرأها.

وفي كلّ تلك السنوات، كانت أمه تقف عند الباب.

كانت الجارات يقلن لها:
«انسَيْه، ربما مات.»
فتردّ بعنادٍ هادئ:
«ابني لا يموت بعيداً عني.»

كانت تشعل المصباح كلّ ليلة، كأنّ الضوء خيطٌ قد يهتدي به قلبه في العتمة. كانت تُعدّ طبقه، وتضعه جانباً، وتغطيه بقطعة قماشٍ نظيفة. وكانت تترك النافذة مواربة، حتى في أقسى الليالي، لعلّ الهواء، إن دخل، يحمل صوته.

لكنّ القلب، مهما كان صلباً، له عمر.
والانتظار يأكل الأيام كما تأكل النار الحطب.

ماتت وهي جالسة قرب الباب.

لم تسقط فجأة. لم تصرخ.
فقط أغمضت عينيها، كأنها تقول:
«ربما سيعود غداً... سأستريح قليلاً.»

أما هزار...

فكانت تضحك بعينين تشبهان الصباح بعد المطر. وكانت تقول له:
«الوعد ليس كلمة... الوعد ظلٌّ يمشي معنا.»
وكان يبتسم بثقةِ من يظنّ أنّ الحياة ستنتظره.

انتظرته سنة.
ثم سنتين.
ثم صارت تمشي في السوق ورأسها مرفوع، لكنها لم تعد تنظر إلى الطريق المؤدي إلى بيته.

وحين تأكدوا أنّه «اختفى»، جاء أهلها يخبرونها أنّ الحياة لا تتوقف.
لم تبكِ أمامهم.
دخلت غرفتها، أخرجت رسالته الأخيرة، قبلتها، ووضعتها في صندوقٍ خشبيٍّ صغير.
وفي المساء... وافقت.

قالوا له الآن:
«دفنت الوعد يوم لم يعد لك أثر.»

فشعر أنّ شيئاً ما يدفن في صدره هو أيضاً.

فتح الندبةُ عينيه.

كان المطر لا يزال يسقط، لكن الأرض حوله بقيت جافة، كأنها لم تعد تعرف كيف تبكي. نظر إلى قدميه، فرأى الغبار كما هو. رفع وجهه نحو الغيم، ومدّ كفيه... ولم يسقط فيهما شيء.

أدرك فجأةً أنّ المطر كان في داخله وحده.

ركع على التراب، ووضع جبينه على الأرض التي لم تبتلّ. همس:
«أمي... عدتُ. متأخراً، نعم... لكنني عدت.»

لم يجبه أحد.

مرّت امرأة عجوزٌ بقربه، نظرت إليه طويلاً، ثم قالت:
«أنت تشبهها حين كانت تبكي بصمت.»

رفع رأسه، وفي عينيه بحرٌ لم يجد شاطئاً.

لم يكن بكاؤه صراخاً، بل انهياراً هادئاً، كسقوط بيتٍ قديمٍ من غير ضجيج.
بكى كما لم يبكِ في الأسر، ولا في الهرب، ولا في الليالي التي نام فيها على أرضٍ باردةٍ بلا اسم.

بكى لأنّه فهم أخيراً أنّ الغياب ليس مسافةً... بل زمنٌ لا يستعاد.

مع الفجر، هدأ المطر.

نهض، ومسح وجهه بكمّ قميصه، ونظر إلى الطريق الطويل الممتدّ خارج القرية.
لم يعد ذلك الشاب الذي وعد، ولا ذلك الرقم الذي اختفى. صار شيئاً ثالثاً: رجلاً يعرف أنّ الحياة لا تنتظر، وأنّ الأمهات لا يعشن إلى الأبد، وأنّ الوعود، إن لم تُسقَ بالحضور، تموت عطشاً.

اقترب من الباب المتهالك، وأعاد تثبيته قدر ما استطاع. جمع بعض الحجارة ورصها أمام العتبة، كأنه يحاول أن يعيد للبيت شيئاً من شكله، ولو قليلاً.

قال بصوتٍ خافت:
«سأبقى هذه المرّة... ولو لأحرس الذاكرة.»

ثم جلس على العتبة نفسها التي جلست عليها أمه سنواتٍ طويلة.

لم تعد الأرض جافة.

كانت رطبةً الآن، لا من المطر...
بل من دموعٍ أخيراً وجدت طريقها إلى التراب.

**

تجمّع أهلُ القرية بعد الغروب.

لم يكن النداء صريحاً، ولا الدعوة معلنة، لكنهم جاؤوا كما تأتي الأرواح إلى ما يشبهها.
كلُّ من يحمل شكاً في صدره، كلُّ من يجرّ وراءه ماضياً حاول دفنه ولم يستطع، كلُّ من استيقظ صباحاً ولم يجد ليومه معنى.

جلسوا حول الندبة.

كان صامتاً.
لم يكن في صمته استعلاء، بل يقينٌ ثقيل يشبه اعترافاً مؤجّلاً.
أمامه وضعت مرآةٌ قديمة، إطارها الخشبيّ متآكل، وسطحها لا يعكس الوجوه كما هي، بل كما ينبغي أن ترى.

رفع رأسه وقال:

«كلُّ من ينظر في هذه المرآة...
سيرى ما سيخسره إن لم يصعد الجبل.»

لم يشرح.
لم يبتسم.
لم يهدّد.

ترك الجملة معلقةً في الهواء، كحبلٍ يتدلى فوق فم بئر.

اقترب أول شابٍّ.

كان في عينيه تمردٌ غير مكتمل، وفي خطواته ترددٌ يخشى أن يفتضح.
مدّ يده نحو المرآة، ثم سحبها سريعاً، كأنّ الزجاج قد يلسعه.
ابتلع ريقه، وانحنى قليلاً... ونظر.

في اللحظة الأولى لم يتغير شيء. ثم اتسعت عيناه فجأة. شهق، كأنّ الهواء تحول إلى حجرٍ في صدره.

لم ينطق بحرف.
لم يسأل.
استدار وركض.

ركض نحو الطريق المؤدي إلى الجبل، كأنّ أحداً يطارده، أو كأنه أخيراً رأى ما ظلّ يؤجّله طويلاً.

تقدّمت امرأة.

كانت أرملةً منذ أعوام، غير أنّ الحزن لم يعد واضحاً على ملامحها؛ صار طبقةً شفافةً من الصمت المستقرّ.

وقفت أمام المرآة طويلاً قبل أن تنظر، كأنها تدرك أنّ بعض الأسئلة، إذا استيقظت، لا تعود إلى نومها.

رفعت عينيها.

نظرت.

لم تصرخ.
لم تتراجع.

رفعت يدها إلى فمها، وغطت وجهها كمن يخشى أن تنفلت الحقيقة من بين شفتيه.
ثم همست بصوتٍ خافتٍ بالكاد سُمِع:

«كنتُ أنا من دفن الحبّ... لا الموت.»

انحنت قليلاً، ثم مضت ببطء.
لم تتجه نحو الجبل، بل نحو بيتها، كأنّ عليها أن تحفر قبراً آخر في داخلها قبل أن تصعد أيّ قمّة.

توالى الزائرون.

رجلٌ ادعى طويلاً أنه لا يخاف، فرأى خوفه مجسَّداً في عيني طفلٍ لم ينجبْه.
فتاةٌ أقنعت نفسها بأنها حرة، فرأت قفصاً من كلماتٍ لم تقلها حين كان يجب أن تقال.
شيخٌ ظنّ أنّ العمر أعفاه من الصعود، فرأى قمةً ظلت تنتظره، ولم تطأها قدماه قطّ.

كان كلُّ واحدٍ منهم يغادر المرآة أقلَّ يقيناً... وأكثر صدقاً.

أما الندبة، فظلّ يراقب بصمت.

لم يكن يمنحهم رؤيا، بل كان يدفعهم إلى المواجهة.

وبين كلِّ من جاء...

لم تأتِ هزار.

لم تقترب.
لم تسأل.
لم تختبئ خلف أحد.

كانت تعرف، منذ زمن، ما قد تريها المرآة.
هي التي انتظرت حتى جفّ الانتظار في عروقها، وبكت حتى صار البكاء عادةً بلا دموع، ثم نهضت ذات صباحٍ وقررت أن تعيش.

لم تعد تنتظر.

لم تعد تبكي.

تعلمت درساً لم يتعلمه الجبل، ولم تستطع المرآة أن تعكسه:

أنّ بعض الخسارات لا تستعاد بالصعود، وأنّ بعض الوعود لا ينقذها الاعتراف المتأخر، وأننا أحياناً لا نحتاج إلى الفهم...

بل إلى النسيان.

كانت تمشي في الطرف الآخر من القرية، ورأسها مرفوع، لا تحدّق في جبلٍ بعيد، ولا في مرآةٍ تعيد إليها ما دفنته بيديها.

أما الندبة، فظلّ جالساً.

ينتظر من يجرؤ على أن يرى...
ومن يجرؤ، أكثر، على أن يصعد.

**

في كلّ ليلةٍ، كان «الندبة» يشعل ناراً صغيرة.

يجلس أمامها طويلاً، كأنه لا يطلب الدفء بقدر ما يطلب ضوءاً يكفي لرؤية ما في داخله. يضع المرآة إلى جواره، بحيث يلامس إطارها الخشبيُّ وهجَ اللهب، فيرتجف الزجاج كأنه يتنفس.

ثم يفتح دفتراً من جلدٍ قديم.

دفتر الشيخ الذي اختفى...
أو تحول...
أو لعله لم يختفِ قطّ، بل ذاب في أحد تلاميذه، وترك اسمه يمشي في جسدٍ آخر.

كان الجلد متشقّقاً، تفوح منه رائحةُ رطوبةٍ عتيقة، كأنه احتفظ بآثار أصابعٍ لم تعد موجودة.
يقلّب الصفحات ببطء، كمن يخشى أن يوقظ كلماتٍ نائمة، ثم ينحني ويكتب.

وفي أعلى الصفحة الأولى، دائماً، كان يخطّ العبارة نفسها، كأنها تعويذةٌ أو اعترافٌ لا يكتمل:

«الحقيقة لا يشفى منها،
إنها كالبئر؛ كلما رمّمتَ فوهتها، تذكرتَ عمقها.»

لم يكن يغير حرفاً واحداً.
كأنّ التكرار نفسه طقسٌ سريّ، أو محاولةٌ يائسة للسيطرة على ما لا يُروَّض.

لم يسأله أحد عن البئر.

لم يسألوه: أين هي؟
ولا: من الذي سقط فيها أولاً؟
ولا: أفي قاعها ماءٌ... أم ظلال؟

كانوا يكتفون بالنظر إليه من بعيد: إلى النار الصغيرة التي لا تكاد ترى، وإلى المرآة التي تعكس لهبها، فيبدو كأنّ في الزجاج نارين؛ واحدةً تشتعل، وأخرى تتذكر.

لكن في عينيه...

كانت البئر واضحة.

لم تكن حفرةً في الأرض، بل فجوةً في الروح.
لم تكن مكاناً يزار، بل نداءً يسمع.

كان أحياناً، وهو يكتب، يتوقف فجأةً، كأنه أصغى إلى صوتٍ خافت. يرفع رأسه عن الدفتر، وينظر في المرآة، فلا يرى وجهه وحده... بل يرى شيئاً أعمق، شيئاً يشبه بداية السقوط.

كانت البئر تناديه.

لا بصوتٍ مرتفع، ولا بتهديد، بل بنداءٍ قديمٍ يعرفه منذ الطفولة؛ منذ المرة الأولى التي خاف فيها من الظلام، ومن عمقٍ بلا قاع.

كان يدرك أنّ الحقيقة لا تقتل، لكنها لا تتركك كما كنت.
تعطيك معرفةً... وتسلب منك راحة الجهل.

ولهذا كان يشعل النار كلَّ ليلة.
لا ليطرد البرد،
بل ليؤكد لنفسه أنه ما زال واقفاً على الحافة،
وأنه، رغم كلّ شيء، لم يسقط بعد.

غير أنّ في عينيه...

كانت البئر لا تزال تنادي.

الفصل الثالث: الكوخ والزمن

حين بدأ «الندبة» يكرر حياةَ الشيخ، لم يكن في القرية من يتذكر، على وجه اليقين، أين كان كوخه.

كان اسم الشيخ يقال همساً، كحكايةٍ قديمةٍ تروى بلا تفاصيل.
بعضهم أشار إلى جهة الوادي، وبعضهم أقسم أنّ الكوخ كان قريباً من العين اليابسة، وآخرون قالوا إنّ الشيخ لم يكن يسكن مكاناً، بل كان المكان هو الذي يسكنه.

أما الندبة، فلم يسأل أحداً.

لم يكن في الأمر تحدٍّ، ولا رغبةٌ في إثبات شيء، بل يقينٌ غامض يشبه النداء.
كان يمشي كمن يستعيد طريقاً سار فيه من قبل، لا بقدميه، بل بروحه.
كأنّ الخطوات تعرف.
أو كأنّ الريح، التي كانت تمرّ خفيفةً بين البيوت، تنحرف قليلاً كلما تقدّم، لتدفعه نحو الاتجاه الصحيح.

خرج من حدود القرية مع أول خيطٍ من غروبٍ باهت.
بدت البيوت خلفه كأنها تنكمش، والنوافذ التي طالما راقبته تحولت إلى عيونٍ مغلقة.
لم يلتفت.

كان الصعود إلى طرف التلة بطيئاً، لا لأنّ الطريق وعر، بل لأنّ الهواء هناك كان أثقل.
كلما ارتفع خطوةً، ازداد الصمت كثافة، حتى بدا كأنّه يمشي داخل شيءٍ غير مرئيّ، شيءٍ يشبه الذكرى حين تتكاثف فجأةً في الصدر وتضيق بها الأنفاس.

عند الحافة العليا، حيث ينتهي العشب ويبدأ التراب القاسي، توقف لحظةً.

كان الضباب يهبط باكراً، لكنّ الصمت كان أسبق منه.
صمتٌ لا يشبه سكون الليل، بل يشبه انتظاراً طويلاً لم يتحقق.

وتحت شجرة عنبٍ جافة، امتدت أغصانها اليابسة كأصابعٍ تشير إلى السماء في عتابٍ أبديّ، رآه.

الكوخ.

لم يكن بيتاً بقدر ما كان أثراً.
جدرانه مائلة، كأنها تعبت من الوقوف وحدها.
سقفه نصفه تراب، ونصفه ذاكرة.
بابه الخشبيّ معلقٌ على مفصلٍ واحد، يصدر صريراً خافتاً مع كلّ نسمة، كأنّه يهمس باسمٍ نسي طويلاً.

وقف الندبة أمامه.

لم يشعر بالدهشة، ولا بالخوف، بل بشيءٍ أقرب إلى الاعتراف.

كأنّ المكان كان ينتظره، لا ليزوره، بل ليكمله.

مدّ يده نحو الباب.

تردد لحظةً قصيرة، لا خشيةً مما في الداخل، بل إدراكاً أنّ العتبة ليست خشباً فحسب، بل فاصلاً بين حياتين: حياةٍ عاشها الشيخ، وحياةٍ سيعاد نسخها الآن بحروفٍ أخرى وجسدٍ آخر.

ثم دفع الباب.

انفتح ببطء، كما تنفتح صفحةٌ في كتابٍ قديمٍ نسي عنوانه، لكن رائحته ما زالت حيّة.
اندفع هواءٌ بارد من الداخل، يحمل غبارَ سنواتٍ لم يزعجها أحد.
رأى الطاولة الخشبية الصغيرة، والكرسيّ الذي لم يعد مستقيماً، والزاوية التي لا تزال تحتفظ بسواد نارٍ أُطفئت منذ زمن.

خطا إلى الداخل.

كان كلّ شيءٍ ساكناً، غير أنّ السكون لم يكن موتاً، بل كموناً ينتظر من يوقظه.

وشعر، للحظة، أنّه لم يدخل الكوخ...
بل دخل ذاكرةً لم تكن تخصّ الشيخ وحده.

أغلق الباب خلفه.

وفي الخارج، هدأت الريح، كأنها سلمته أخيراً إلى ما جاء من أجله.

**

في الداخل، بدا كل شيء كما لو أنّ الزمن مرّ من هنا ذات يوم، ثم قرر أن يستلقي قليلاً ولم يستيقظ بعد.

لم يكن السكون خالياً، بل ممتلئاً بأثر ما كان.
الهواء نفسه بدا راكداً، كثيفاً، كأنّه يحتفظ بأنفاسٍ قديمة لم تستكمل.

إلى يمين الباب، وضعت قنينة ماء مغطاة بخرقةٍ باهتة اللون، تشبّعت برائحة الرطوبة. لم يكن الماء بداخلها صافياً تماماً، ولا عكراً؛ كان في منزلةٍ بينهما، كما لو أنّه هو أيضاً توقف عن الاختيار. تخيّل الندبة يد الشيخ وهي تضع الخرقة بعناية، لا لتمنع الغبار، بل لتستر شيئاً أبعد من ذلك... ربما لتبقي العطش حيّاً تحت غطاءٍ خفيف.

على الجدار المقابل، انغرس مسمارٌ صدئ في الخشب، تتدلى منه مسبحةٌ داكنة. كانت حبّاتها غير متساوية، وبعضها متآكل، لكن أكثر ما شدّ النظر هو طرفها

المحترق؛ سوادٌ صغير عند الرأس، كأنّ النار لم تلتهمها، بل قبّلتها قبلةً قاسية ثم انصرفت. لم يعرف الندبة إن كان الاحتراق حادثةً عابرة أم طقساً متعمداً. ومع ذلك أحسّ بأنّ تلك المسبحة لم تخلق للعدّ، بل للاعتراف.

وتحت المسبحة، امتدّ رفٌّ خشبي مائل قليلاً، يحمل عدداً من الكتب التي لا عناوين لها. لم تكتب أسماؤها على ظهورها، ولم تُزيَّن بأحرفٍ مذهّبة. كانت مجرد كتلٍ ورقية صامتة. اقترب الندبة خطوة، ومدّ يده، ثم توقف قبل أن يلمسها، كأنّه يخشى أن يوقظ ما بداخلها.

من بين الصفحات المفتوحة قليلاً، ظهرت خطوط حبر متقاطعة، شطبٌ كثيف يغطي الكلمات حتى يكاد يخفيها. بدا كأنّ الشيخ كتب النص مرة، ثم أعاد كتابته، ثم عاد فمحاه. لم يكن محواً كاملاً، بل محواً يترك أثره، كأنّه لا يريد للكلمات أن تقرأ، ولا يريد لها أن تموت. كلماتٌ عالقة بين الظهور والاختفاء، مثل صاحبها تماماً.

جلس الندبة أخيراً.

كان الكرسي الخشبي في منتصف الغرفة، مواجهاً للجدار، كأنّه وضع هناك ليشهد لا ليستخدم. ما إن ألقى بثقله عليه حتى انبعث منه صريرٌ طويل، حادّ، كأنّ الخشب يصرخ. لم يكن صوتاً عابراً، بل احتجاجاً واضحاً، كأنّ الكرسي ضاق بما حمل من أجسادٍ وأسرارٍ وأسئلةٍ لم تجد جواباً.

تجمّد الندبة في مكانه، لا لأنه خاف، بل لأنّه شعر بأنّ الصوت لم يكن موجهاً إليه وحده، بل إلى ما يمثله... إلى التكرار، إلى الاستعادة، إلى من يأتي ليجلس حيث جلس آخرون معتقدين أنهم يبدأون من الصفر.

سكت الصرير أخيراً.

عاد الصمت، أعمق مما كان.

مدّ الندبة بصره في أرجاء الكوخ، وأحسّ بشيءٍ يتسرب إليه ببطء. لم يكن حزناً، ولا رهبة. كان إحساساً أثقل من ذلك... إحساس من يدخل حياةً لم تغلق، بل تركت معلقة، تنتظر من يكملها.

في تلك اللحظة، لم يشعر أنّه زائر، ولا أنّه وارث.

بل شعر أنّه جلس في مكانٍ كان معداً له منذ زمن، وأنّ الكرسيّ لم يكن يحتجّ على ثقل الأسرار...

بل كان يختبره.

**

في اليوم التالي، بدأ «الندبة» حياته الجديدة، حياة لم تسجل في أي دفتر، ولم يخبر بها أحد من قبل. لم يكن صباحه مختلفاً في ذاته، الشمس نفسها تسللت عبر الغيم باهتة، والرياح أخذت تعبث بأوراق الأشجار كما كانت تفعل دائماً، لكن شيئاً بدا مختلفاً في كل خطوة، في كل حركة، في كل صوت.

خرج باكراً، قبل أن يفاقم الصمت وجوده. سار بين البيوت المهجورة وكأنّه يختبر كل زاوية وركن، يتلمس الأرض بأقدامه قبل أن تتعرف عليه الريح. جمع الحطب بعناية، كل غصنٍ وكل قطعة خشب تبدو عادية للآخرين، لكنها في نظره كانت مفاتيح صغيرة للحياة، حروف تعيد ترتيب الزمن الذي كاد أن يتوقف.

عاد إلى الكوخ، ووضع الحطب حول النار التي لم تشتعل بعد. جلس على الكرسي الخشبي، ذلك الكرسي الذي اعتاد صريره أن يستقبله كتحية قديمة، وبدأ يدون في دفتره. لم يكن يكتب ليقرأ، ولا ليُعلق كلمة في الهواء، بل ليمنع الزمن من التوقف، ليبقيه متحركاً ولو ببطء، كأن كل كلمةٍ مكتوبة تحرك الساعة قليلاً، تجعل الشمس تدور أكثر، تجعل الليل يبتعد خطوة صغيرة.

ثم مدّ يده إلى المرآة، أزال الغبار عن إطارها الخشبي، ونظر فيها طويلاً، كأنه ينتظر أن تنطق. لم ينطق شيء، لم يتحرّك شيء، لكن في صمتها كان هناك حديثٌ أعمق من الكلمات. رأى فيها انعكاسه، نعم، لكنه لم يكن هو وحده. كان يرى الماضي يتخلل الحاضر، الحنين يتشابك مع الغياب، والأمل يتسلل بين الذكريات.

جلس أمام المرآة، لا يتحرك، كأنه جزء منها. يداه على الركبتين، تنفسه بطيء وثابت، كل عينٍ منه تحمل سؤالاً بلا جواب. كانت المرآة ساكنة، لكنها أرهقته، أجبرته على مواجهةٍ ما لم يواجهه أحد قبله: أنه لم يعد شاباً يبحث عن ذاته، بل كان روحاً تحاول أن تفهم معنى الوجود، وتحافظ على حافة الحقيقة قبل أن تتساقط كلها في النسيان.

مرّت ساعات، والشمس تتسلل ببطء، الظلال تمتد على الأرضية الخشبية، لكن «الندبة» لم يتحرك. أحياناً كان يغمض عينيه للحظة، يستعيد أنفاسه، ثم يفتحها، ويواصل النظر، كأنه يحاول أن يقرأ في عمق المرآة أكثر مما تسمح له العين.

في ذلك الصمت، كان يسمع صرير الحطب، همسات الريح عبر الشجرة اليابسة، خفقان قلبه وحده. كل شيء حوله ساعده على أن يفهم شيئاً واحداً: الحياة ليست في حركة الناس، ولا في الوعود المنسية، بل في هذه اللحظات الصامتة التي يواجه فيها المرء نفسه بلا ستار، بلا مبرر، بلا فرار.

هكذا، بدأ «الندبة» يومه، لا كإنسانٍ جديد فقط، بل ككائنٍ خرج من ظلال الماضي، يحرس الزمن بكلماته، ويراقب انعكاسه في المرآة، منتظراً أن تنطق، أو أن تظهر له شيئاً لم يجرؤ أحد على رؤيته من قبل.

**

اعتاد أهل القرية غيابه.
لم يعد السؤال عنه طارئاً، ولم يعد البحث في أمره يملأ الألسنة، لأن وجوده صار شيئاً مألوفاً، كأنّه جزء من الهواء، من الصمت، من تلك الأزقة الضيقة التي تعرف كل خطواته قبل أن يخطوها.

كلما سأل أحدهم، كان الأطفال يجيبون ببساطة، بصوتٍ صغيرٍ يختلط بالضحك:
— ذهب إلى كوخ الشيخ... صار يشبهه.

ضحك بعض الكبار، وسكت البعض الآخر، كأنهم شعروا أنّ الكلمات قد تفسد ما لا يفسد، أو تضيّع ما لا يفقد.
لكن العجائز كانوا أكثر من يفهمون، كأن أعينهم رصدت خطوط الزمن على وجهه قبل أن يختفي، وكأنهم يقرؤون بين ضلوعه، بين صمته، بين كل خطوة يتركها خلفه.

في إحدى الليالي، حين أرخى الظلام ستاره على البيوت القديمة، وجلس القرويون حول نارٍ صغيرة تتلظى بخفة، وتلعب بها الريح العابثة، تقدم شيخٌ يجسد عراقة الزمن في ملامحه، متأملاً السماء كمن يقرأ من النجوم ما لا يقال بالكلمات.

رفع عينيه إلى المجموعة، وصوته يحمل ثقل السنين، فقال:
— عندما يصبح الإنسان ظلاً لظلٍّ قديم، فاعلم أنّ الحكمة اختارته، أو الجرح.

سكت الجميع، وأخذت الريح تلهو بخطوط الضوء من النار، فتتراقص الظلال على وجوههم، وكأنّ الليل نفسه أراد أن يؤكد صدق ما قيل.
لم يكن الحديث عن رجلٍ فحسب، بل عن أثرٍ يتردد بين الجدران والذكريات، بين الحكايات التي لم تُروَ وبين الغياب الذي صار حضوراً.

الأطفال، الذين اعتادوا رؤية الظل يتسلل بين البيوت المهجورة، نظروا إلى بعضهم البعض بفضول...، يحاولون فهم معنى «الظل القديم» و«الحكمة أو الجرح»، وكأن الكلام كان بوابةً إلى عالمٍ لا يرى بالعين، لكنه يحس بالقلب.

أما العجائز، فقد أغمضوا أعينهم للحظة، واستمعوا إلى الصمت الذي أعقب كلمات الشيخ، صمتٌ أعمق من الظلام نفسه، صمتٌ يملؤه فهمٌ قديم، وتذكرٌ لما كان وما أصبح.

في تلك الليلة، لم يكن أحدٌ يعرف متى سيعود «الندبة» من كوخه، ولا متى سيختفي مجدداً، لكنهم عرفوا شيئاً واحداً: أنّه لم يذهب فقط ليجلس وحيداً، بل ليصبح جسراً بين الماضي والحاضر، بين الظل والروح، بين الجرح والحكمة، بين ما ينسى وما يبقى.

وهكذا بقيت كلمات الشيخ معلقة في الهواء، تتسلل بين البيوت، بين ضحكات الأطفال، بين صمت العجائز... وكأنّ الليل نفسه أراد أن يحفظها للأبد.

**

وذات مساء، حدث شيء لم يحدث منذ ثلاثين عاماً.

رنّ جرس صغير معلق بباب الكوخ، ذلك الجرس الذي لم يكن يرنّ إلا إذا دخل غريبٌ من قلب الجبل، أو إذا اقترب من المكان شخصٌ يعرف الصمت أكثر من الكلام. كان صوته خافتاً، رناً قصيراً، لكنه امتدّ في الهواء كما لو كان يفتح بوابة بين الحاضر والماضي.

فتح «الندبة» الباب ببطء، وكأن كل حركة تحسب بالدقائق، كل اهتزاز للخشب يهمس بما حدث هنا منذ سنوات. أمامه، وقف شابٌ، صغير في جسده، عميق في نظره... أو لعله انعكاس له، كما كان يوم صعد الجبل أول مرة، حين لم يكن يعرف شيئاً عن العالم سوى الصعود والظلّ والخوف والفضول.

قال الغريب بصوتٍ خافت، متردد، لكنه مثقل بالمسافة والانتظار:
— أبحث عن الشيخ.

ابتسم «الندبة» بهدوء، ابتسامة لا تهدف للتسلية، بل للاعتراف.
— لقد مات، لكنك وجدت ما تركه.

— وماذا ترك؟ — سأل الغريب، وكأن السؤال نفسه قديم، يجره عبر الزمن.

ردّ «الندبة» بنبرة هادئة، ثابتة:
— كوخاً، مرآة، ودفتراً لا ينتهي.

دخل الغريب ببطء، وكل خطوة منه على الأرض الخشبية أثارت صريراً خافتاً، كأن الكوخ يرحّب به أو يحذره في الوقت نفسه. جلس أمام الطاولة القديمة، وطواه الصمت حوله، صمت يثقل الهواء ويجعل كل شيء يبدو أعمق، أبطأ، أكثر حضوراً.

مدّ يده إلى الدفتر، وبدأ يقرأ. الصفحات كانت تبدو كأنها تكتب نفسها، الحروف تتحرك برقة، تتكشف أمامه كما لو أن الزمن نفسه يعيد ترتيب نفسه. شعر بأن كل كلمة تحمل وزنها الخاص، وأن كل سطر يشبه سراً قديماً يكشف لأول مرة.

وفي كل صفحة، وجد اسمه مكتوباً، بطريقةٍ ما، كأن الكوخ لم يكن مكاناً فقط، بل زمناً يعاد، قصةً تتكرر مع كل من يجرؤ على الوقوف أمام المرآة، على الجلوس على الكرسي الخشبي، على مواجهة الصمت والظلّ والخوف.

رفع الغريب رأسه، نظر إلى «الندبة» وقال بصوتٍ يختلط فيه الدهشة بالرهبة:
— هل كل من يقرأ هذا الدفتر يجد نفسه؟

أومأ «الندبة» بهدوء، وكأن الإجابة لا تحتاج إلى كلمات.
— نعم... وكل من يقرأه يرى ما لم يُر من قبل، ويجد نفسه في ما لم يتوقعه.

جلس الاثنان هناك، والغرفة تمتلئ بهواءٍ قديم، برائحة الورق، بظلّ النار الذي يلتهم الحيطان، وبصمتٍ أعمق من أي حديث. كان الكوخ حيّاً بطريقةٍ لا ترى بالعين،

لكنه يُحسّ بالقلب، ويمتدّ إلى كل من يجرؤ على الدخول، إلى كل من يختار أن يقف أمام المرآة، إلى كل من يريد أن يعرف نفسه في الزمن.

وفي الخارج، بدأت الريح تعزف لحنها المعتاد على الأشجار اليابسة، وكأنها تقول: «الزمن هنا لا يموت... بل يعيد نفسه دائماً».

**

لم يعد الكوخ مجرد كوخ.
أصبح مقاماً، مكاناً يلتقي فيه من عاد ومن لم يعد، نقطة يلتقي عندها الماضي بالحاضر، حيث تدفن الأسئلة وتسقى الشكوك، وتصبح الذكريات أقوى من الجدران، وأثقل من الأرض نفسها.

الجدران القديمة، التي صمدت أمام الريح والبرد والنسيان، لم تعد مجرد خشب وصخور. أصبحت شهوداً صامتة على أقدام من صعد الجبل، على العيون التي بحثت عن الإجابة في المرآة، وعلى الأصابع التي حاولت الإمساك بالدفتر الذي يكتب نفسه كل ليلة. كل زاوية، كل رفٍّ خشبي، كل شرخ في السقف، يحكي قصةً عن من مرّ من هنا، عن من جلس على الكرسي الصاخب، عن من شعر بأن الزمن يوقف نفسه ليستمع.

أما «الندبة»؟
صار جزءاً من المكان نفسه، ظلّاً آخر في جدار الحكاية. لا يتحرك كثيراً، لا يتحدث إلا حين تُستفزّ الروح بالأسئلة الضرورية. يجلس عند النار، يحدّق في اللهب الذي يلتمع كعينٍ تعرف كل الأسرار، وتلك الرائحة الخافتة للدخان تمتزج برائحة الخشب القديم والغبار، فتخلق شيئاً أقرب إلى التذكر منه إلى الحاضر.

حين يسأله أحد، لا يلتفت مباشرة إلى السؤال. يتأمل النار لدقيقة، كأنّه يستمع إليها أكثر من الكلمات. ثم يقول، بصوتٍ هادئ، ثابت، يمشي في المكان بين الماضي والحاضر:
— من لا يعبر الجبل... لن يعرف ماذا خسر.

تتسلل الكلمات إلى الهواء، تلتصق بالحائط، وتدور حول كل من يجلس في الكوخ، كما لو أن المكان نفسه يهمس: «هنا لا يعطى الجواب لمن لم يجرؤ على الرحيل، ومن لم يختبر السقوط والصعود معاً».

ومع كل ليلة، تتضاعف صدى الخطوات في الداخل. خطوات «الندبة» التي تمشي بين الجدران، بين المرآة والدفتر، بين الكرسي والنار، خطوات تمسح الغبار القديم وتعيد ترتيب الذكريات في شكل جديد، لا يرى بالعين، لكنه يحسّ في القلب، ويترك أثره في كل من يأتي بعده.

الكوخ صار أكثر من مكان. صار زمناً حيّاً، نبضاً لا ينقطع، صمتاً يوجع قبل أن يطمئن، ومساحةً لكل من يريد أن يجد نفسه في ما تركه الآخرون وراءهم.

أما «الندبة»؟
فهو يكتفي بالنار، بالظل، بالسكوت.
يعيش مع المكان كما لو كان روحاً منه، لا زائراً، ولا مالكاً، ولا وريثاً، بل شاهداً على كل شيء، وعلى كل من يجرؤ أن يعرف نفسه على الطريق الذي لم يعرفه إلا الجبل.

وفي إحدى الليالي، بينما كان القمر يتسلل بخجل من بين الغيوم، جلس «الندبة» عند النار، يداه ممدودتان نحو اللهب كما لو كان يبحث عن حرارة لم يعد يعرف مصدرها. الهواء داخل الكوخ ثقيل، محمّل برائحة الورق القديم، والدخان، وأصداء خطوات من رحلوا منذ زمن. كانت المرآة بجانبه، صامتة، لكنها لم تنم. انعكس الضوء عليها، وكأنها تحاول أن تُريه ما لم يستطع أن يراه بنفسه: وجوهاً لم يولدوا بعد، أياماً لم تأتِ، أسراراً لم تحكى.

همس «الندبة» لنفسه، صوته عميق، منخفض:
— كل من يأتي هنا... يحمل معه جبله الخاص. والجبل لا يقاس بالمسافة، بل بالذكريات التي يجرها.

كان يسمع في الصمت ما يشبه صدى خطوات قديمة، خطواته هو نفسه، خطوات الشيخ، خطوات كل من صعد هذا الجبل قبل عقود. كل خطوة تحكي قصة عن شجاعة، عن خوف، عن فقدان، وعن لحظةٍ اقترب فيها الإنسان من الحقيقة أكثر مما اقترب من نفسه.

ثم، فجأة، سمع خريراً خفيفاً عند الباب. رنّ الجرس، كما لو أن الريح نفسها حملت رسالة من الماضي. ارتفع ظلّ الندبة على الجدار، طويل، هادئ، يقف بين النار والمرآة، مستعداً لاستقبال من سيأتي، ليضيف اسمه إلى دفاتر الزمن، إلى الحكاية التي لا تنتهي، إلى الكوخ الذي صار مقاماً لكل من أراد أن يعرف ما خسره، أو ما لم يجرؤ على فقدانه.

الفصل الرابع: المرأة التي نسيت الانتظار

لم تكن هزار تعرف أن الزمن يمكن أن يكون حبلاً، حبلاً مشدوداً بين قلبين، كلما أمسكت به شدها نحو الغرق. لم يكن الحب مجرد لحظةٍ عابرة، ولا وعدٌ مجرد كلمات تقال على عجل. كان شيئاً أثقل، أعمق، كأنّه يسكن في العروق قبل أن يسكن في القلب، كأنّه يثبت وجوده في الصمت قبل أن يظهر في الصرخات.

حين ودعها جوان، لم تكن عيناها تسقطان دموعاً فحسب، بل كانت تحملان سؤالاتٍ لم تجد لها جواباً بعد، كانت تحملان وزن الرحيل، وحرارة الوعد الذي لم يكتمل. كان في عينيه وعدٌ لا يكسر، وفي صوته نداءٌ لا ينسى. لكنها علمت، بطريقة لم تفهمها تماماً، أن الجبال حين تبتلع أحداً... لا تعيده كما كان، ولا تعيد الانتظار كما بدأ.

مرت الأيام، ثقيلة كصخورٍ سقطت من السماء، وكل صباح كان يقف عند نافذتها يختبر قلبها، يختبر صبرها، كأنّه يختبر الزمن نفسه. كانت ترى في المرآة وجهها، وجه امرأة بدأت تفهم أن الوعد يمكن دفنه، لا لأنه ينسى، بل لأنه يزن أكثر مما تحتمل اليد الواحدة. دفنته في زاويةٍ بعيدة من روحها، حيث لا يصل أحد، ولا يسمع صدى الكلمات القديمة، حيث تبقى الذكريات صامتة، لكنها حية.

كانت تمشي في الشوارع، ورأسها مرفوع، وكأنّها تحمل العالم كله على كتفها، لكنها وحدها تعرف أنّ ثقل الوعد دفن مع لحظة وداعه. كانت تسمع صدى خطواتها، صدى قلبها، وتعلم أنّ كل ابتسامةٍ تصنعها من الآن فصاعداً، هي وعدٌ جديد، وعدٌ لن يختنق في جبلٍ بعيد، وعدٌ يخصها وحدها.

وذات مساء، جلست على حافة النهر، حيث المياه تهمس كما لو كانت تعرف سرّها، وترتطم الصخور تحتها بأصواتٍ تشبه الماضي. أخذت نفساً عميقاً، وأغمضت عينيها، تشعر بأنّ دفن الوعد ليس موتاً، بل ولادةً جديدة، ليس نهايةً للحب، بل بدايةً لشيءٍ أكبر: فهمٌ لا يرى، صمتٌ لا يقاس، وقوةٌ تنبع من قلبٍ عرف أنّ الفقد ليس دائماً خسارة، وأنّ بعض الوعود، لتعيش، يجب أن تترك تحت التراب.

كانت هزار حينها تدرك أخيراً أنها لم تدفن وعدها في قلبٍ ميت، بل في قلبٍ سيظل ينبض، ويذكرها أنّ الحياة لا تتوقف، وأنّ الحب الحقيقي، أحياناً، يعيش بصمت، بلا انتظار، بلا صراخ... فقط بوجوده، خافتاً، صامداً، وحراً.

**

مرّ الشتاء، ثم جاء آخر، كما لو أنّ الأيام تصطفّ في صفوفها الطويلة لتختبر صبرها، لتعلمها أنّ الانتظار لا يخفف من الوزن، ولا الزمن يلين أمام القلب. كانت هزار تخرج كل صباح، بخطواتٍ هادئة، تتقدم نحو النافذة، تنظر إلى جهة الجبل، حيث اختفى. عيناها تحدّقان في الأفق كما لو أنّها تنتظر شيئاً لا يعرفه أحد، شيئاً يخصّها وحدها.

تعلق منديلاً أبيض على غصن الشجرة التي ودعته تحتها في ذلك اليوم. المنديل يتأرجح برفق مع نسيم الصباح، خفيفاً، شفافاً، كأنه رسالة أرسلتها الريح إليه، أو ربما لشجرتها نفسها، لتخبرها أنّ الفقد ليس النهاية. كل غصن في تلك الشجرة كان يحمل جزءاً من قلبها، وكل خفقة في صدرها كانت تسجّل في حفيف الأوراق.

ثم تعود إلى الداخل، حيث الطاولة القديمة، والكرسي الذي صار يعرفها، والدفاتر التي كتبت فيها أسرارها ووعودها. هناك، تبدأ تخيط فستاناً أبيض، فستان لم يُرتدَ قط، لكنه يحمل كل حلم لم يتحقق، كل وعد دفنته في أعماق روحها. الإبرة تمرّ بخيطها ببطء، وكأنها تحاكي الزمن نفسه، كل غرزة تروي قصة، كل عقدة تحفظ سرّاً، وكل ثنية في القماش تذكرها بأنّ ما رحل، لا يعود كما كان، وأنّ ما يدفن في القلب، رغم أنّه يختفي عن الأنظار، يبقى حيّاً في كل حركة، في كل نفس، في كل صمت.

كانت هزار بذلك الفستان الأبيض، والابتسامة الخافتة، والنظر الثابت نحو الجبل، وكأنّها تصنع عالمها الخاص، عالماً لا يجرؤ فيه الفقد أن يعود، ولا ينتظرها الأمل كما كان، عالماً فيه الصمت أقوى من الصراخ، والذكريات أخفّ وأثقل في الوقت نفسه.

ومع مرور الأيام، صار المنديل على الغصن، والفستان على الطاولة، والفكر في قلبها، كطقوسٍ يومية تثبت لها أنّ الحياة لم تتوقف، وأنّ الحب، وإن غاب، يمكن أن يعيش بصمت، في تفاصيل صغيرة، في أشياء لم تُرتدَ، ولم تقال، لكنها موجودة، حية، كما كانت هي... قوية، صامدة، وحرة.

**

الناس في القرية، كما يحدث مع كل من يرفض أن ينصاع للزمن، بدأوا يهمسون عنها. أصواتهم كانت تتسلل بين البيوت، بين الحواري، تتجمع عند الزوايا كما لو أنّها تأخذ حياةً مستقلة:

— "أصابها الجنون..."
— "تحبّ ميتاً..."
— "كأنها تنتظر وعداً كتبته الغيوم..."

كانت الكلمات تزن في الهواء مثل أوراق ذابلة على مياه راكدة، لكنها لم تصل إليها، لم تلمسها. لم تعد هزار تسمع إلا ما ينبعث من قلبها، من عمق روحها، من صمتٍ صار لغتها الوحيدة.

هزار لم تكن تنتظر أحداً يعيش. لم تكن تنتظر حبّاً عادياً، أو كلمةً تقال على عجل. كانت تنتظر ما لا ينتظر، شيئاً لا يرى، لا يقاس، لا يحدّه زمن ولا مكان. شيئاً كان موجوداً في الحنين نفسه، في الفراغ بين الأشياء، في الوميض الخافت بين الذاكرة والغياب.

كل صباح كانت تخرج، تخطو خطواتها بحذر، تحدّق في الجبل، وكأنّها تقرأ علاماتٍ لم يتركها أحد غيرها. المنديل الأبيض على الغصن لم يكن مجرد قطعة قماش؛ كان رسالة صامتة إلى الريح، إلى السحاب، إلى كل شيء لم يعد يهمّ أحداً غيرها. الفستان الأبيض الذي تخيطه لم يكن لباساً للعيد، بل حجاباً بين الحنين والعقل، بين الماضي والحاضر، بين ما كان وما لن يعود.

أما عيون الناس... فقد اعتادت أن ترى امرأةً تتحداهم بصمتها. حاولوا أن يسخروا، أن يفسروا، أن يلمسوا ما لا يلمس، لكن هزار كانت تبتسم بخفة، كما يبتسم البحر عند غروب الشمس، متمسكة بالوعد الذي دفنته وحدها في قلبها.

كانت تعلم، بشكل لا يعرفه أحد، أنّ الانتظار ليس ضعفا، وأنّ الجنون أحياناً يكون مجرد طريقة أخرى للحب، للحفاظ على ما لا يمكن لأحد أن يسرقه: وعدٌ لم يُقضَ بعد، حلمٌ لم يموت، وعشقٌ عميق لا يختزل في كلمات البشر.

هكذا، في صمتها، وفي عزلتها، وفي نظراتها نحو الجبل، صارت هزار أيقونة الانتظار الذي لا يرى، الانتظار الذي يصنع حياةً جديدة، ليس للآخرين، بل لنفسها وحدها.

**

وحين جاءت أمها ذات مساء، تحمل في عينيها سنواتٍ من القلق، قالت بصوتٍ يختلط فيه الحزن بالحزم:

— "كفى، يا بنيتي. مات من مات... والقرية بحاجة لمن يبنيها، لا لمن يبكيها."

كانت الكلمات كحجارة صلبة تسقط على قلب هزار، لكنها لم تحركها، لم تزلزلها. أدارت هزار وجهها ببطء نحو المرآة، نحو الزاوية التي لم ترى فيها إلا روحها، نحو انعكاس نفسها التي طالها الزمن أكثر مما طال الجمر تحت الرماد. نظرت إلى شعرها الطويل، المبعثر كأمواج بحرٍ صامت، إلى ثوبها الأبيض المعلق على الحائط، كشهقة لم تقال بعد، كذكرى لم تذبل بعد.

همست، وكأنّ الصوت ينبثق من عمق صدرٍ لا يعرف إلا صدى الحب نفسه:

— "ما يؤلم يا أمي... ليس أنه مات... بل أنني ما زلت أحبّه."

صمتت، لكنها شعرت بأن كل حرفٍ خرج من فمها قد خلق موجة صغيرة في الجو، اهتزت معها المرآة، وكأنها تهمس لها: "نعم... هذا هو الحب الحقيقي... ذلك الذي يعيشه القلب وحده، بلا شهود، بلا قيود."

جلست على الأرض أمام المرآة، وثوبها الأبيض ينساب حولها، والشعر يغطي كتفيها، والضوء الخافت يتسلل من شقّ النافذة، يلامس وجهها كما يلامس الندى أوراق الشجر في الصباح الباكر. كل شيء حولها صامت، كل شيء منتظر، وكل شيء... يعرف أنها ما زالت تحيا داخل انتظارٍ لا يعرف الزمن، انتظارٍ يكاد يكون مقدّساً.

كانت تدري أنّ الحب الذي لا يموت لا يقاس بالوجود أو الغياب، ولا بالزمان أو المكان. إنه وجودٌ داخليّ، شعورٌ صامت، وشوقٌ يتحول إلى حياة كاملة، حتى في غياب من أحبّت. وفي تلك اللحظة، أدركت هزار أنها، رغم كل شيء، لم تخسره أبداً. لأنه ما زال حيّاً في قلبها، في تفكيرها، في كل خطوة تخطوها، في كل نفسٍ تأخذه...

الليل استمرّ في الهبوط على القرية، والهواء يحمل رائحة الأرض المبتلة، ورائحة الحنين التي لم تختفِ، ولم تنكسر، ولم تضعف. هزار بقيت هناك، أمام المرآة، أمام الحب الذي لا يموت، أمام نفسها، تعلم أنّ ما بين الموت والحياة... هناك لحظة خالدة، لحظة تُدعى الحب الحقيقي، وتستحق كل الانتظار والصبر والصمت.

**

مرت السنوات، كأنّها تمرّ على القرية ببطءٍ لا يرى، لكنها تترك آثارها في كل حجرٍ وكل نافذةٍ وكل نفس. تغيرت البيوت، وتهدّمت أخرى، وأصبح الطريق المؤدي إلى الجبل أكثر وضوحاً لمن يعرف أن يبحث عنه، لكن لمن لم يعرف... بقي مجرد خيال. ماتت الجدة، وذابت في الأرض كما يذوب الحنين في صمت الليل، وتركت هزار لتواجه وحدها تلك الأعوام الطويلة، لتكبر، لتصبح امرأةً أكثر هدوءاً، وأكثر صبراً، وأكثر قرباً من انتظارٍ لا يقاس.

كانت تمرّ بجانب الشجرة التي علقت عليها منديلها الأبيض منذ سنوات، لكنها لم تعد تراه بعينيها. لم يعد هناك شيء سوى جذعها الجاف، الأغصان التي تلتف كما لو أنها لا تزال تنتظر شيئاً... لكنها، في داخلها، لم تفقده أبداً. المنديل لم يعد موجوداً على الشجرة، لكنه ظلّ حيّاً في قلبها، في حلمها، في كل مرة تغلق فيها عينيها، كأنّه لم يختفِ أبداً.

وكلما أغمضت عينيها، ترى جوان. يرى قلبها قبل أن تراه هي، صعوده البطيء نحو الجبل، خطواته الثقيلة التي تحمل وعداً لم يُنسَ، نظراته التي تتوقف عند منتصف الطريق، ثم ابتسامته... ابتسامةٌ تعرفها هزار، ابتسامة تذيب صمت السنين كلها. يرى في تلك اللحظة خلفه، يراها، وكأنّه يقول لها بدون كلمات: "أنا هنا... حتى وإن ابتلعت الجبال الطريق."

كانت هزار تشعر بذلك في كل خلية من جسدها، في كل نسمة هواء تمرّ عبر نافذتها، في كل شعاع شمس ينسكب على وجهها في الصباح الباكر. الحب لم يغب، لم يتركها، ولم يتلاشى... إنه حيّ، يتغذى على الصبر، على الانتظار، على الذكرى، وعلى كل نبضة قلبٍ ما زالت تؤمن بأنّ بعض الأشياء في الحياة تبقى خالدة.

وبين الواقع والحلم، بين الشجرة والجبل، بين المنديل الأبيض الذي اختفى وبين ابتسامة جوان التي لا تنسى، وجدت هزار نفسها عالقة في زمنٍ خاص بها، زمن يتبع قلبها لا عقله، زمن يربط الماضي بالحاضر، والأمل بالحنين.

كان كل يوم يمرّ، وكل خطوة تخطوها، وكل نظرة نحو الجبل، تذكرها بأن الحب الحقيقي لا يموت، وأنّ الانتظار ليس ضعفاً، بل قوة، وأن بعض الوعود تحيا في القلب حتى لو مات من كان عليها أن يعيشها.

هكذا كبرت هزار... امرأةً تعرف أن الجبل لم يبتلعه أحد، وأن ما يحب يبقى حيّاً، مهما طال الغياب، ومهما تغيّرت القرية، ومهما مضت السنوات.

**

وذات صباح، استيقظت هزار، والضوء يتسلل من شقّ النافذة إلى وجهها، خفيفاً كلمسة نسيم، لكنها لم تعد تعرف من هو جوان. لم يعد في ذهنها إلا ضبابٍ يتلاشى كلما حاولت الإمساك به. نسيت التفاصيل الصغيرة: شكل وجهه، رائحة يديه، حتى نبرة صوته حين همس لها بالوعود التي لم تنفذ. لم تعد تتذكر كيف بدا صعوده الجبل، أو ابتسامته عند منتصف الطريق، أو الطريقة التي كان ينظر بها خلفه، وكأنّه يودعها بلا وداع.

لكنها شعرت بأن شيئاً لم ينسَه، شيء لم يخضع للزمن، شيء لم تستطع أي قوة أن تمحو أثره. كان هناك ندبة عميقة، لم ترى بالعين، لكنها موجودة بين ضلعها وقلبها، كصوتٍ صامت، كظلٍّ يتبعها في كل خطوة، كنبضٍ يتذكر ما لا يتذكره العقل.

لم يكن الأمر حزناً، ولم يكن فراغاً... كان شعوراً غريباً، مركباً من الحب القديم الذي غاب، ومن وجعٍ لا يعرف اسمَه، ومن قسوة حلوة تشبه الصبر الذي يتسلل بين العظام. كأن الحبّ حين ينسى، لا يموت... بلّ يتحول، يتخذ شكلاً آخر: ظلّاً يرافقها في النهار، وهمساً يطاردها في الليل، أو إحساساً غامضاً يجعل كل شيء حولها يبدو أكثر وضوحاً وأعمق ألماً.

جلست هزار على حافة السرير، ونظرت إلى الخارج حيث الشمس ترتفع ببطء فوق الحقول، فوق البيوت، فوق القرية التي صارت أكثر صمتاً وأهدأ. كان العالم نفسه يمضي بلا توقف، لكنه لم يكن يعرف أنها الآن تحمل داخله شيئاً أكبر من أي ذكرى يمكن أن يزول: روح تجربةٍ لم تمت بعد، حبٌ تحول إلى ندبة، ودرسٌ صار جزءاً من نفسها.

تنفست ببطء، وأغمضت عينيها، وابتسمت قليلاً، وكأنها قبلت حقيقة أنّ بعض الأشياء، حتى حين تنسى، تبقى حيّة بطريقة أخرى... طريقة لا يفهمها إلا القلب، ولا يراها إلا من جرب أن يحب بلا عودة.

**

تزوجت ابن عمها. لم يكن الحب حاضراً، ولا حتى رغبة في الاقتراب منه، لكنه لم يسألها، ولم ينتظر أن تخبره، كما لو أنّ السؤال نفسه كان عبئاً لا يحتمل. كل شيء تم بسرعة، كما تنهى طقوس القرية القديمة، وبلا ضجيج.

وفي ليلة زفافها، أخرجت هزار فستانها الأبيض، الفستان الذي كان معلقاً منذ سنوات على غصن الشجرة التي ودعت عندها جوان، الفستان الذي لم تجرؤ أن ترتديه، إلا في الخيال. كان الثوب يشبهها: بارد قليلاً، متربع على الحلم القديم، محتفظاً برائحة الانتظار وصمت الغياب.

قدمته له، فابتسم ابتسامة لا تعرف الحزن ولا الفرح، ثم قصّه لستائر المطبخ. صار الثوب الأبيض جزءاً من ضوء الشمس الذي يمرّ عبر النافذة، جزءاً من الهواء الذي لا يحمل أي معنى سوى رائحة الطهي ورفاته المعتادة.

ضحكت هزار حينها، ضحكة خافتة، مثل شقّ صغير في جدار حزنها. كانت الضحكة غريبة، غريبة على نفسها، وكأنّها خيانة لظلٍّ ما، لذكرى غابرة، لنبضٍ ما زال يعيش في داخله مكان لم يزره أحد سواها. شعرت لأول مرة أن الضحك يمكن أن يكون خيانة... خيانة صامتة، لكنها حقيقية، تفتح فجوةً صغيرة بين ما هي عليه وما كانت تحلم به، بين الواقع والظلّ الذي ترافقها منذ صغرها.

وفي الليل، عندما أطفأت الأضواء، جلست على شرفة البيت، تنظر إلى الجبل البعيد، وإلى الطريق الذي لم يَعُد أحد يسلكه. هناك، في قلبها، ظلّ شيء لم يمت. لم يعد اسمه واضحاً، لم تعد تعرف ملامحه، لكن الندبة بقيت... الندبة التي تقول لها: "الحب لا يموت أبداً... بل يتحول، ويظل يراقبك، حتى وأنت تضحكين."

كانت هزار تعرف، بطريقة خافتة وهادئة، أن حياتها الجديدة لن تعيدها إلى الماضي، ولن تجلب معها ما فقدته. لكنها تعلم أيضاً أن كل ضحكة، وكل فستان أبيض قصّ، وكل لحظة صمت، هي جزء من لعبة الزمن، جزء من الطريقة التي تعلمها قلبها على التعايش مع الحب الذي أصبح مجرد ندبة... ولكن ندبة حية، تنبض بصمت، ولا يمكن أن تُمحى.

**

وفي أحد الأيام، وبينما كانت الشمس تتسلل بخفة بين بيوت القرية القديمة، رأت هزار رجلاً غريباً واقفاً في الساحة. لم يكن يشبه أحداً من أهل القرية، لا في ملامحه ولا في طريقة وقوفه. كان عجزه المائل، ويده التي تمسك بمرآة صدئة، يعطيان انطباعاً بأن الزمن نفسه قد جلس معه، كما لو أنّه جاء من عصر آخر، يحمل شيئاً من الماضي إلى الحاضر.

اقتربت هزار منه، لكن شيئاً في عينيه منعها من الكلام. لم تعرف إذا كان الخوف أم الذكرى القديمة يضيق صدرها، لكن الصمت كان ثقيلاً بما يكفي ليملأ الساحة كلها.

رفع الرجل عينيه إليها، ثم أطرق قليلاً، كما لو أنه يقرأ شيئاً بين طيات روحها، وقال بصوت هادئ لكنه ممتلئ بالحزن:

"كنتُ أعرف فتاة... كانت تحبُّ الثلج أكثر من الصيف."

تجمدت هزار. شعرت وكأن الزمن توقف فجأة، وكأن كلمات الرجل لم تقل، بل سمعت في كل خلية من جسدها. قلبها خفق بطريقة غريبة، كما لو أنّه يتعرف على شيء مضى، شيء دفنته منذ زمن، لكنه لم يختفِ.

نظرت إليه طويلاً، وأدركت أنّ هناك في صوته، في المرآة الصدئة، في المسافة بينهما، شيء يعرفه عن قلبها أكثر مما تعرفه هي عن نفسها. لم تقل شيئاً، لم تهتز شفاهها، لكن أصابعها ارتعشت لحظة واحدة، كما لو أنّها لمست الماضي كله بلمسة واحدة.

لمست يدها، كانت باردة بعض الشيء، لكنها لمستها. لم يكن هناك وعد، ولا تفسير، بل شعور غريب بالاعتراف المتبادل، كأنّ الندبة التي حملتها طوال حياتها همست أخيراً: "ها هو الماضي يطرق بابك، ليس لتعيده، بل لتعرف أنّه لم يتركك أبداً."

ثم سارت هزار نحو بيتها، بخطوات هادئة، لكنها كانت ثقيلة أكثر من أي وقت مضى. تركت خلفها دمعة وحيدة، تسقط على الأرض مثل رسالة صغيرة، وسؤالاً بلا جواب، وشيئاً يشبه العتاب القديم... عتاب للزمن، للغياب، وللحب الذي تحول إلى ظل، إلى ندبة، إلى صمت لا يموت.

**

لم تذهب بعد ذلك إلى الساحة. لم تعد تلتفت إلى كل ما يذكرها بالماضي، ولم تتحدث عن الرجل الغريب أبداً، كما لو أنّه لم يكن موجوداً إلا في زاوية صغيرة من حلم قديم. كانت حياتها تمضي هادئة، بلا صخب، بلا انتظار، بلا أسئلة. كل صباح كانت تنهض، تخيط، تطبخ، تعيش اليوم كما يمرّ، بعينين متعلمات على الصمت، وقلبٍ يعرف أنّ بعض الأشياء لا تستعاد، حتى لو بقيت حية في الداخل.

لكن حين ماتت، جاء الصمت إلى النهاية. وجدوا عند فتح صندوقها ما لم يتوقعوه. مرآة صغيرة، مغطاة بغبار الزمن، كما لو أنّها كانت تحفظ شيئاً من روحها. منديلاً أبيض، ممزق بعض الشيء، لكنه نظيف، كأنّه يحرس براءة ما لم تمت. وثوباً أبيض آخر، خُيط من جديد بعناية، وكأنّ خيوطه كانت تربط الماضي بالحاضر، والحب بالذكريات، والغياب بالوجود.

وعلى الورق الصغير الذي رافق الأشياء، كانت مكتوبة جملة واحدة، بخطها الرقيق، وكأنّها رسالة لكل من سيجدها:

"بعض الوعود لا تكسر... بل تدفن، كي تنبت في قلبٍ آخر."

تلك الكلمات لم تكن مجرد حروف. كانت صدى حياتها، كلها: الحب، الانتظار، الصبر، الخسارة، والهدوء الأخير بعد كل الانتظارات. وكأن هزار أرادت أن تقول للعالم، بل لكل من يأتي بعد ذلك، أنّ الحب الحقيقي لا يموت، ولا ينسى، بل يتحول إلى شيء آخر، شيء حيّ، يزرع الأمل في مكانٍ آخر، في قلبٍ قد لا يعرفها، لكنه سيحملها كما حملت هي صمتها وحزنها، وبهجة انتظارها... وندبتها التي لم تمحى أبداً.

الفصل الخامس: الندبة في المرآة

لم تكن المرآة التي وضعها «الندبة» في ساحة القرية مرآةً عادية. لم تعكس الوجه كما هو، بل كما سيكون، إن لم يعترف صاحبه بالندبة التي يحملها في داخله، بالظلّ الذي يرافقه منذ الولادة أو منذ أول فقدٍ لم يكتمل.

في البداية، ظنّها الأطفال لعبةً سحرية. اقتربوا منها بحذر، تلمّسوا إطارها الخشبي المائل، ثم ركضوا حولها، يضحكون بصوتٍ متقطع، إذ يرون انعكاساتهم بملامح عجوزة، أو وجوه تشبه أهلهم، لكنها مشوهة بشيء لا يفهمونه، شيء يشبه الفقد المبكر أو انتظاراً لم يكتب له موعد. كانوا يعودون إلى أمهاتهم في اللحظة نفسها، ضحكاتهم تتقاطع مع صدى الصمت، وكأنهم لمسوا جانباً من شيء أكبر من عمرهم، شيء غامض، وتركهم في خوفٍ لطيف، أو فرحة مختلطة بالرهبة.

أما الكبار... فلم يقتربوا كثيراً. كان في عيونهم خوفٌ لم ينطق، كأنهم يعرفون أنّ الحقيقة قاسية، وأن للمرآة أسناناً لا ترى، لكنها تعضّ الروح، تعري الأضلاع الخفية، وتفضح الندوب التي حاولوا دفنها. بعضهم مرّ بجانبها ببطء، كمن يمرّ بمقامٍ قديم، يهمس بصوتٍ داخلي: «لا، ليس اليوم... ليس بعد». البعض الآخر توقف، حدّق طويلاً، ثم أعاد رأسه إلى الأرض، يغطّي خجل نفسه، أو ألم معرفته، أو ندمه الذي لم يسمعه أحد.

الندبة، من جهته، كان واقفاً في الظل، يراقب الصمت والضحك والخوف، يقرأ كل نبضة، كل حشرجة في النفس، كمن يقرأ دفتر حياةٍ لم يكتب بعد. لم يكن يمنح أحداً فرصة للهرب، بل يمنحهم مواجهة، لقاءً مع الذات، مع الخسارة، مع الاختيار الذي لم يتخذ، مع الطريق الذي لم يصعد.

ومع مرور الوقت، بدأ الزائرون يدركون أنّ المرآة لا تعكس شيئاً خارجياً فقط، بل تكشف عن ما يختبئ في الداخل، عن الندبة التي لا يقال عنها، عن الألم الذي يمرّ بلا أثر، عن الحب الذي مات قبل أن يعترف به. وكل من نظر إليها، عاد إلى حياته، لكنه لم يعد كما كان. عاد يحمل جزءاً من الصمت، جزءاً من المواجهة، جزءاً من الحقيقة التي لم يجرؤ على مواجهتها إلا أمام الزجاج البارد والصامت.

وفي كل ليلة، حين تغلق أبواب القرية، يبقى «الندبة» وحيداً، أمام المرآة، يحدق فيها بصمت، يراقب من سيأتي غداً، ومن سيجرؤ على أن يرى نفسه، لا كما هو، بل كما سيكون، إن لم يختَر مواجهة الظلّ الذي يحمله في داخله.

**

وذات مساء، جاء شاب غريب من قرية مجاورة. كان يحمل كيساً من الأحجار الصغيرة، لامعة ببريق خافت، يريد بيعها في السوق. خطواته كانت مترددة، لكن الفضول دفعه نحو الساحة حيث جلس «الندبة» في صمت، والمرآة أمامه، كما لو كانت بوابة لمكان لا يجرؤ الكثيرون على دخوله.

اقترب الشاب، وعيناه تتنقلان بين الرجل العجوز والزجاج العاكس، ثم قال بحذر:

— هل تشتري الأحجار؟

لم يرفع «الندبة» رأسه. ظل ينظر إلى المرآة كما لو كان يرى فيها شيئاً أهم من كل كلام البشر. ثم أشار بإيماءة بسيطة، صوته هادئ وثقيل:

— ضعها أمامها... وانظر.

وضع الشاب كيس الأحجار على الأرض، أمام المرآة. تردد، ثم رفع رأسه لينظر إلى ما سيظهر له.

لم يكن ما رآه نفسه، كما توقع، بل والده، في اللحظة التي مات فيها، عينيه مغمضتين، وصوت الريح يصفع الخشب المبتل. وفي الثانية نفسها، حين التفت الشاب ليهرب، سمع صوتاً يخرج من داخل المرآة، خافتاً لكنه صارم:

— الحجارة التي لا ترمى، تصبح قبراً لمن يحملها.

انحنى الشاب فجأة على ركبتيه، دموعه تندفع دون توقف، جسده يرتجف كما لو أن الأرض نفسها تنتزع منه كل خوف دفين، وكل كذب أخفاه في قلبه منذ الصغر.

سقط على التراب، يضع كفيه على وجهه، يتنفس بصعوبة، ثم رفع رأسه ببطء. نظر إلى الكيس... الأحجار لم تتحرك، لكنها بدت فجأة أثقل من أي جبلٍ شاهق. فهم حينها ما قالته المرآة. بعض الأشياء، إن لم تترك، تتحول إلى أحمال لا يحتمل حملها، إلى قبور صامتة داخل الروح.

ترك الشاب كيس الأحجار على الأرض، وقف ببطء، وأخذ خطواته الأولى نحو الطريق الذي جاء منه، ولكن هذه المرة كان مشيته مختلفة. لم يكن يركض كما اعتاد، ولا كان يتردد. كان يمشي كمن حمل عبئاً وغادره خلفه، كمن اكتشف جزءاً من نفسه لم يعرفه من قبل.

أما «الندبة»، فظل جالساً، يراقب، لا يتحدث، لا يبتسم، فقط يحدّق في المرآة. وكان يعرف أنّ كل من يقترب منها، سيخرج حاملاً شيئاً جديداً... شيء أثقل من الأحجار، لكنه أخفّ من الصمت الطويل.

**

جاءت امرأة في الخمسين من عمرها، خطاها هادئة، ورأسها مرفوع بعزة، رغم أن عينيها تحويان سنواتٍ من الألم. كانت القرية قد اعتادت على غيابها الطويل، وعلى صمتها الذي يشبه حجارة البيوت القديمة، لكن شيئاً ما في تلك الليلة دفعها إلى الساحة حيث جلس «الندبة» والمرآة أمامه.

اقتربت ببطء، قلبها ينبض بانتظار لا تعرفه، كأنها تتوقع رؤية شيء قديم يستعاد فجأة، أو فقدان شيء لم تفقده بعد. جلست أمام المرآة، أغمضت عينيها قليلاً، ثم فتحتها.

ما رأت لم يكن وجهها في اللحظة الراهنة، بل طفلتها الصغيرة التي ماتت قبل عشرين عاماً، ترتدي فستاناً باهت اللون، ترقص أمامها بخفة، ضحكتها تملأ الفراغ، ثم اختفت في الضباب، تاركة وراءها رائحة خفيفة من الحنين والحزن.

ارتجفت يداها، وفجأة شعرت أن الأرض تحتها أصبحت أخف، ثم أثقل، وكأن المرآة لم تعكس جسدها فقط، بل عبء أعوامها كلها.

سألت بصوتٍ مكسور، حادّ كالزجاج المهشم:

— هل هذه أنا؟

ابتسم «الندبة» برفق، لكنه لم يبتسم كإنسان عادي، بل كمن يروي حكايةً قديمة لم يكتب نصّها بعد:

— هذه أنتِ... حين كنتِ قادرة على أن تحبّي دون خوف.
— أما الآن... فأنتِ فقط تنجين من الذكرى، لا تعيشينها.

ارتعشت المرأة، ودموعها بدأت بالانسياب دون صراخ، دون صمت كامل. كانت نظرتها تتنقل بين المرآة والهواء، كأنها تحاول الإمساك بظل الطفلة، بفرحها الذي لم يعد لها. شعرت فجأة بأن الوقت نفسه قد توقف، وأن المرآة ليست مجرد زجاج، بل صفحة مفتوحة على لحظة لم تمحَ بعد، على حياة لم تكتمل، على حبّ لم يطلق بعد.

الندبة لم يحرك ساكناً، جلس فقط، محدّقاً بالنار الخافتة إلى جوار المرآة، يعرف أنّ كل من يقترب منها يرى شيئاً مختلفاً، شيئاً لا يمكن للأقوال أن تفسّره.

المرأة جلست طويلاً، تغوص في أعماق نفسها، وتسمع صدى طفلتها، وتدرك أخيراً أن ما بقي من الألم، ما بقي من الفقد، ليس لحظة للموت، بل درسٌ للحياة: أن الحب، مهما اختفى، لا يموت، بل يتحول... إلى ظلال تراقبنا بصمت، لتعلمنا أن نعيش حتى بعد الرحيل.

**

وهكذا، تحولت المرآة إلى مزارٍ للحقيقة.

لم تعد قطعة زجاج بسيطة، ولا مجرد انعكاس للوجوه، بل صارت بوابةً إلى ما لم يقال، إلى ما لم يعترف به في صمت القلوب. من يقترب منها لا يبكي بالضرورة، ولا يصرخ، لكنه لا يخرج كما دخل. كل من يحدق فيها يرى نفسه كما هو، بلا أقنعة، بلا حيل، بلا كلمات مزخرفة.

كانت المرآة تكشف ما خفي، لا ما جُمل. كانت تعري الندوب، لا الجراح، وتعيد للمرء صدى لحظاتٍ ظنّ أنّه نسيها، لكنها لم تُنسَ أبداً. من خلالها، تعرف الإنسان أن الألم ليس في الفقد وحده، بل في تجاهل ما بقي من الحياة بعده.

الزائرون الذين جاؤوا تارةً من فضول، وتارةً من شعورٍ غريب بالنداء، وجدوا فيها شيئاً مختلفاً لكل واحد. شابٌ رأى خيباته تتجمع في زاوية قلبه، امرأة رأت أحلامها الضائعة ترفرف أمامها كأوراق خريف، ورجلٌ طاعنٌ في السن شعر بظل صباه يلاحقه، يذكره بأن الوقت يمضي، وأنه لم يحقق ما وعد نفسه به يوماً.

أما «الندبة»، فكان يجلس جانبها، صامتاً، محدّقاً بالنار الصغيرة، كأنه يحرس السر. لم يكن يوجه الزائرين، ولم يرشدهم. المرآة لم ترشد أحداً، بل تركتهم ليواجهوا أنفسهم، ليقفوا أمام الحقيقة دون واسطة.

ومع كل نظرة، كان الزائر يدرك شيئاً واحداً: أن ما تعكسه المرآة ليس مجرد ما فات، بل ما لم يعش بعد، وما لم يقال، وما لم يعترف به. وأنه، مهما حاول التظاهر بالقوة أو النسيان، لا يمكن أن يهرب من الظل الذي يحمله داخله.

كانت المرآة صامتة، لكن صمتها أبلغ من كل الكلام. كل من يقترب منها، يغادرها وهو يحمل شيئاً جديداً بداخله: فهمٌ هادئ، وصدقٌ مع الذات، وإقرارٌ بأن الحياة تستمر، وأن الجراح والندوب ليست لعنة، بل تذكار للحقيقة، التي وحدها تبقى، حين يغادر الجميع.

**

وفي أحد الأيام، جاء صبي صغير، نحيل الجسم، عينيه تلمعان بالفضول، ولم يعرف شيئاً عن جوان، ولا عن الجبل، ولا عن أسرار الكوخ القديم. اقترب بخطوات مترددة، كمن يلمس أول مرة شيئاً أكبر منه، ونظر إلى المرآة بترقب.

في لحظة، انفتحت أمامه صورة لم يكن يتوقعها: كوخ على سفح جبل، يحاط بضباب خفيف يلتف حول الجذوع والأغصان كأهداب السر، شيخٌ يقص الحطب بعناية، وطفل يولد من قلب الثلج، بارد لكنه مشعّ بحياة غريبة. المشهد كان حيّاً، كما لو أن المرآة لم تعكس الزمان، بل جمعته كله في لحظة واحدة.

ضحك الصبي، ضحكاً صافياً، خالياً من خوف، وقال وهو يشير إلى المشهد كما لو كان باباً مفتوحاً:
"أريد أن أذهب إلى هناك."

ابتسم الندبة بهدوء، دون أن يحرك شفتيه كثيراً، كأن صمته جزء من حكمة أقدم من الكلام، وقال بصوت منخفض، لكنه يحمل وزن العالم كله:
"حين تكبر، وإن لم تخف من ندبتك... ستعرف الطريق."

وبقي الصبي واقفاً، ينظر إلى المرآة طويلاً، يشعر بأن شيئاً ما في داخله بدأ ينمو: إدراك مبكر بأن الظلال التي نحملها، والندوب التي نخافها، ليست نهايات، بل بوابات. بوابات إلى أماكن لا يرسم الطريق إليها إلا لمن يجرؤ على النظر.

وغادر الصبي ذلك اليوم، لكن الصورة بقيت محفورة في ذاكرته. لم يكن يعلم متى سيكبر، ولا متى سيعرف الطريق، لكنه شعر أول مرة بأن هناك عالماً كامناً وراء المرآة، عالم لا يراه إلا من يجرؤ على مواجهة نفسه.

**

وفي المساء، حين خلت الساحة من الأصوات، جلس «الندبة» وحده، والمرآة أمامه على الأرض، تلمع بوهج خافت كعيون غريبة تراقبه من عمق الضباب. نظر إليها ببطء، وكأن كلّ حركة في انعكاسه تحكي قصةً لم تُروَ بعد.

رأى نفسه عجوزاً، عيناه متعبتان، لكن فيهما بقايا ندبة لا تذبل، كذكرى قاسية تتشبث بالروح. وخلفه، في طيفٍ شاحب يتخلله ضوء القمر، بدت هزار. لم تتحرك، لم تبتسم، فقط مدت يدها على كتفه برفق، ولم يكن هناك شيءٌ في هذا اللمس سوى الماضي الذي يرفض الرحيل. ثم اختفت، كما يختفي الصوت في أعمق الغابات، تاركة وراءها صمتاً ثقيلاً يشبه الانتظار الطويل.

أغلق «الندبة» المرآة ببطء، وكأنما يغلق فصلاً من حياته لم يكن قد قرر النسيان بعد. جلس هادئاً، يسمع الريح تتسلل بين البيوت المهجورة، ويحسّ أن كل شيء حوله أصبح رمزاً: الكوخ، المرآة، الضباب، كل شيء يحمل معنىً لا يقال بالكلمات.

همس أخيراً بصوتٍ خافت، لكنه قاطع الصمت:
«المرآة لا تكذب... لكننا نحن مَن نتكلم كثيراً، كي لا نسمعها.»

ظل بعدها صامتاً، صمته كان أعمق من أي صراخ، أثقل من أي دمعة. كان يعرف أن كل من نظر إلى المرآة سابقاً قد عاد مختلفاً، وأن كل من سيأتي لاحقاً، سيواجه نفسه أولاً قبل أن يرى أي شيء آخر. ثم ألقى نظرة أخيرة، كما لو كان يقرأ شيئاً مخفياً بين انعكاسات ضبابية، وأدرك فجأة أن الحقيقة لا تحتاج إلى شهادة، بل إلى قلب مستعد لرؤية ما لا يريد أحد أن يراه.

في تلك الليلة، لم يكن «الندبة» وحيداً في الصمت. كان جزء منه قد أصبح المرآة نفسها، وكل خطوة نحوها كانت رحلة داخل ذاته، رحلة نحو زمنٍ لا ينتهي، نحو ذاكرة لم يمت أحدها بعد.

الفصل السادس: الغريب الذي عاد

حين يعود الرجل، ولا أحد يعرف هل هو نفسه... أم مجرد أثر منه.

حين عاد الرجل، لم يكن أحد في القرية متأكداً إن كان هو نفسه... أم مجرد صدى لوجوده الذي لم يغادر الظل منذ زمن بعيد. البيوت كانت مائلة قليلاً، وكأنها تآكلت ببطء تحت ضغط السنين، والنوافذ المغلقة تتنفس رطوبة الشتاء البارد، وتخرج أصواتاً خافتة كهمسات الماضي. الطرق الضيقة، التي يعرفها كلّ أهل القرية كما يعرفون أطراف أصابعهم، بدت مختلفة؛ الحصى تحت أقدامهم تبدو أجشّ، والجدران الحجرية لا تعكس سوى ظلالهم الطويلة والممتدة في الهواء الرطب، وكأن الزمن نفسه كتب عليها خطوطاً جديدة لم يقرأها أحد من قبل.

لقد نسيت القرية جوان. نسي الأطفال أصواته، ضحكاته التي كانت تملأ الأزقة صيفاً، وحتى حفيف الأشجار لم يكن يحمل ذكراه، فقد مرّ النسيم كأنه يحمل شيئاً آخر، شيئاً بلا اسم. نسي الرعاة صوت خطواته فوق التلّة، والمرأة التي كانت تصنع الخبز عند فجر كل يوم، نسيت أن تضع له قطعة من العجين جانب النار، كما كانت تفعل أيام الطفولة. كل شيء بدا وكأنه محو من ذاكرة الأرض. الزمن، كعادته، لم يترك شيئاً إلا وكساه بطبقة رقيقة من الغبار: الوعود القديمة، الوجوه المألوفة، وحتى الخيبات الصامتة التي لم يسمع لها أحد صدى. وكلما تكرر الشتاء، صار اسمه مجرد خرافة تروى على المدافئ، بين رشفة شاي دافئة وهمسٍ من الظلال الطويلة، أو بين أصابع الرجال العجائز التي تحكّ وجوههم كما لو كانوا يحاولون استعادة ما فقدوه.

لكن في ذلك اليوم الرمادي، بين أول مطر يتساقط على السطوح وآخر نخلة سقطت من ذاكرة الرعاة، ظهر رجل. ظهر في طرف الطريق الرئيسي للقرية، خطواته هادئة وثقيلة في الوقت نفسه، كمن يمشي فوق حبال معلقة بين الذكريات والحقيقة، حبال تهتز مع كل نسمة، لكنها لا تنكسر. كان معطفه مبللاً، وشعره مضطرباً من المطر، ورائحته تحمل عبق الغابة والجبال البعيدة. وعيناه... عيناه كانت تحملان شيئاً لم يجرؤ أحد على تسميته: انتظار طويل، أو ندم دفين، أو ربما صمتٌ حمله من زمنٍ بعيد لم يعد لأحد فيه مكان.

توقف قليلاً عند مدخل الساحة، حيث اعتاد الناس التجمع. المقاهي الخالية، والطاولات المتراكمة، والأرصفة المهملة، كلها كانت تنتظر روحاً لا تأتي. وقف الرجل ينظر حوله، وكأنه يبحث عن شيء ضاع منذ عقود، شيء لا يعرف أحد مكانه، شيء يلمس الروح قبل العين. لم يتكلم، ولم يرفع يده للسلام، ولم يبدر منه أي اهتمام بما يراقبه من بعيد. كان هناك شيء في وقوفه، في صمته، في تلك الطريقة التي تميل بها الجذور الصفراء للمطر على وجهه، يجعل الهواء نفسه يتوقف، وكأن كل شيء حوله يترقب لحظة محددة لم يحن موعدها بعد.

وبينما بدأت قطرات المطر تتسلل على أرضية الحجارة، شعرت القلوب التي شاهدته من بعيد بشيء لم تعرفه من قبل: حنين غريب، خوف باطن، وإحساس بأن الماضي، مهما دُفن تحت الغبار، يمكن أن يعود فجأة ليوقظ كل ما تم نسيانه. لم يكن مجرد رجل عاد... كان كياناً حيّاً من الماضي، يذكرهم بكل ما ظنّوا أنهم نسوه، بكل الحكايات التي لم تحكى، بكل الحب الذي لم ينته، وكل الصمت الذي لم يكسر.

الرجل لم يدخل، لم يصرخ، ولم يبتسم. وقف هناك، بين المطر والضباب، كرمز حيّ لكل ما فقدوه... وكل ما كانوا يجهلون أنهم فقدوه. ظل واقفاً، صامتاً، وكأن الزمن نفسه توقف عنده، يراقب القرية كما يراقب طفل يقف على حافة النهر لأول مرة. وكلما مدت الشمس خيوطها في المطر، كانت الظلال تتداخل مع المطر، لتخلق له تاجاً من الغموض، تاجاً لا يعرفه سوى من يحمل ندبة قديمة في قلبه.

وعلى أطراف الساحة، جمع الأطفال شجاعتهم، وأخذوا يراقبونه من خلف الحيطان والنوافذ. لم يعرفوا من هو، ولم يفهموا لماذا تجمدت أصواتهم فجأة. لكنهم شعروا... بشيء كبير، شيئاً لا يرى بالعين، شيئاً يربط الماضي بالحاضر، ويهمس بأن كل ما حدث لم يذهب، بل بقي مختبئاً، ينتظر لحظة العودة.

كان الرجل يقف هناك، مطرق الرأس قليلاً، وكأنه يحمل على كتفيه قسوة القرية كلها، وحنينها، وغياب من أحبّوه. لم يكن وحده... بل كان يحمل كل أولئك الذين رحلوا قبل أن يفهموا معنى العودة.

**

لم يكن عادياً.
كان يمشي كمن لا يثق بالأرض تحت قدميه، كأنّ الجبل ما زال خلفه، يتنفس فيه، يراقب خطواته، يختبر صلابته. كل خطوة تصدر صدى خافتاً بين الحجارة المبللة، وكأنها تقول له: "ماذا جئت تبحث عنه بعد كل هذا الغياب؟"
شعره رمادي كرماد الليل، ووجهه مشكل من خطوطٍ لا تحصى، حفرت بفصول الحياة، بالضحك الذي فقدوه، وبالحزن الذي لم يقال. لكن عينيه... كان فيهما شيءٌ يشبه جوان. شيءٌ حيّ، لم يمت، شيءٌ يلمع رغم كل ما مضى من الزمن.

اقترب من ساحة القرية، حيث اعتاد الناس التجمع، حيث الطاولات الخالية تنتظر أصواتاً لم تعد تأتي، وحيث الممرات الضيقة التي يعرفها الجميع صارت متاهة بين الأمس واليوم. لم يعرفه أحد. لم ينهض أحد ليتحقق، ولم يصدر أي همس. حتى الجدة التي كانت تنتظر حفيدها، تلك العجوز التي قرأت كل التعبيرات على وجوه الناس منذ زمن، نظرت إليه طويلاً، عينيها تلتقطان كل تفاصيله: وقوفه، صمته، وخفة أقدامه التي تخفي ثقل السنوات. ثم قالت بصوتٍ مكسور لكنه حازم:

"أنت لست هو... لكنك تحمل ظله."

وقف قليلاً، كأنها خلقت فجوة في الزمن، ثم رفع عينيه نحوها، وصوت الغموض يتسلل من بين شفتيه:

"أنا هو، بعد أن سقطت الشمس في البئر."

الهواء حوله تجمد للحظة، وأوراق الأشجار، والمطر الذي بدأ يتساقط، وكل شيء بدا وكأنه يثبت أن الحقيقة ليست كما تبدو. لقد عاد ليس ليكون مجرد ذكرى، بل ليكون جسداً للظل، صدىً للحبّ الذي لم ينطق به، وللقرار الذي لم يتخذ، وللجبل الذي ظل شاهداً على كل شيء.

في تلك اللحظة، أدركت القرية، بلا كلمات، أن زمنهم القديم لم ينته بعد. وأن من عاد، ليس مجرد رجل... بل الزمن نفسه، وهو يحمل كل ما نسوه... وكل ما لا يجرؤون على تذكره.

**

سكن في حجرةٍ قديمةٍ على أطراف القرية، جدرانها مائلة، وسقفها مغطّى بخشب يئنّ كلما هبت الريح. لم يكن المكان يدفئه، لكنه كان مأوىً له، كما لو أنّ الحيطان نفسها تعرف أنه لم يعد يبحث عن العالم... بل عن شيءٍ أعمق، شيءٍ دفن في قلبه منذ زمن بعيد.

لا يتكلم كثيراً. صوته قليل، كلمات قليلة، لكنها، حين تقال، تحمل وزناً أكبر من كل ما قيل في القرية على مدار سنوات. استيقظ مع الفجر، ومع أول خيوط الضوء كان يجلس أمام المرآة التي أحضرها معه، مرآة صدئة الإطار، سطحها يلمع قليلاً تحت شعاع الشمس المبكر. كان ينظر فيها طويلاً، لا ليتأمل وجهه... بل ليتأمل ما بقي منه، وما لم يمحى بعد. كأنها النافذة الوحيدة التي يرى من خلالها العالم، كأنها الجبل الذي لم يزل صامداً خلفه، صامتاً، شديداً، لا يرحم.

الناس، شيئاً فشيئاً، بدأوا يخافونه... أو يعظمونه. لم يكن خوفهم من الرجل وحده، بل من الصمت الذي يأتيه، ومن عينيه التي تحبس أسراراً لا تقال، ومن شعور غريب بأن الزمن نفسه قد توقف في حضوره. لم يجرؤ أحد على سؤاله مباشرة، ولا على الاقتراب منه.

لكن في الليل، حين تنخفض الأصوات ويخفت ضوء المصابيح، كانوا يتهامسون، خائفين من أن يسمعهم أو أن تجذبهم الحقيقة إلى شيء أكبر من أنفسهم:

"أليس هو جوان؟"

"لكن جوان مات، أليس كذلك؟"

"أم أن الجبل أعاده... كعقوبة؟"

وهم يهمسون، كانت الريح تمرّ بين البيوت، تحمل الأصوات، وكأنها تسجل كل سؤال، كل شك، وكل حيرة. والجبل هناك، خلف الضباب، صامت... لكنه يعرف

كل شيء. وكل من ينظر إلى الرجل يكتشف فجأة أنّ ما عاد ليس مجرد إنسان، بل ظلّ ما بقي من ذاكرةٍ طويلة، وصوتٍ لم ينقطع، وندبة لم تشفَ.

**

أما هزار... فكانت قد صارت امرأة من صخر. السنوات حفرت على وجهها خطوط الصبر، وعينها لم تفقد وهجها، لكنها صارت أكثر حذراً، أكثر صمتاً. تزوجت، أنجبت، وبالرغم من كل واجبات الحياة اليومية، لم تمر ليلة دون أن تتساءل، بخفوتٍ وبحرقةٍ دفينة، عن ذلك الغياب الطويل:

"لماذا لم يعد؟"

كانت تتذكر كل لحظة، كل وعدٍ لم يكمل، كل ضحكةٍ ذابت في ضباب الذكريات. لم يعد هناك طفلٌ صغير يركض بين أقدامها، ولا قلب يفيض بالانتظار... لكن الصوت، صوته، ظلّ يتسلل من بين ثنايا عقلها، كظلٍ لم يُمحَ بعد.

وحين وصلت الأخبار عن عودة الغريب، لم تسمعها أولاً، لكنها شعرت بها في جسدها قبل أن تصل إلى أذنيها، كما لو أنّ الريح نفسها حملت خبراً يعرفه قلبها وحده. لم تتردّد. لم تستشر أحداً. خرجت في الصباح الباكر، عندما كانت القرية لا تزال غارقة في نومها، والأرض مبللة بندى الليل الأخير، والهواء يختلط برائحة التراب والمطر القديم.

ذهبت إليه وحدها. كل خطوة كانت ثقيلة، لكنها حاسمة، كمن يسير نحو مواجهةٍ طال انتظارها. لم تكن تعرف إن كان سيعرفها، أو سيتذكرها، أو أنّ كل ما كان بينهم قد أصبح شبحاً من الماضي... لكن شيئاً داخلها، أعمق من الخوف والحزن والحنين، قال لها أن تذهب، وأن تواجه ما بقي من هذا الغياب الطويل.

وصلت المكان حيث يقيم الغريب، وحيث المرآة تتأمل الواقع بصمتها العميق. وقفت على بعد خطوات، تتنفس ببطء، تحاول أن تروض قلبها الذي يتسارع بلا إذن، ثم تقدمت، ورفعت يدها، كأنها تبحث عن لمسةٍ تنقلها بين ما مضى وما يمكن أن يكون... وبينما كانت تخطو نحو الغريب، كان الزمن كله يتوقف للحظة، كما لو أنّ القرية بأكملها، بكل من فيها، تنصت لما سيحدث.

**

دخلت عليه كمن يدخل على ميتٍ قديم، لا صوت لخطواتها سوى صدى قلبها. كان جالساً أمام المرآة، ظهره إليها، كما لو أنّه يحرس سراً لم يكتب بعد. الهواء في الغرفة أثقل، يحمل رائحة الغبار والرطوبة وذاكرة السنوات.

قالت، بصوتٍ حادٍّ لكنه خافت من الداخل:
"لو كنت أنت، لما عدت هكذا..."

لم يلتفت. ظلت كلماتها معلقة في الهواء كعقدٍ من دخان، تنتظر أن يمسك بها أحد، لكنه لم يفعل. بعد لحظة، أضاف، هادئاً كنسيمٍ في ليلة صامتة:

"ولو كنتِ أنت، لما تزوجتِ ابن عمي."

تجمّد قلبها لبرهة. لم تكن الكلمات صادمة فحسب، بل كانت كبئرٍ تفتح أبوابها لتبتلع كل شيء. صمتت، ثم تقدمت ببطء، كأنها تمشي على حافة ذكرىٍ طويلة لم تغلق بعد، واقتربت من المرآة.

نظرت إليها، وتوقع قلبها رؤية وجهها، رؤيته، أي لحظةٍ ضائعة بينهما... لكنها لم ترَ شيئاً. لا وجهها، لا وجهه، لا الزمن نفسه. كل شيء اختفى في شفافية الماء الصامت.

فقط... الندبة.

ارتعشت أصابعها، ولمست سطح المرآة. همست بصوتٍ كأنه صدى بعيد:
"ما هذه؟"

ردّ بصوتٍ ناعم، حادّ كحافة سكين، لكنه لا يجرح سوى العيون التي ترى أكثر من اللزوم:
"هذا ما يحدث حين نكسر المرايا ولا نواجهها."

قفلت الغرفة على صمتٍ طويل، صمتٌ لم يكن فقط غياب الكلام، بل حضور كل ما لم يقال، كل ما كسر، وكل ما بقي معلقاً بينهما، بين قلبٍ لا ينسى وذكرى لا تموت.

**

في اليوم التالي، تركت هزار بيتها. لم يكن أحد يعرف وجهتها، ولا الطريق الذي اختارته. بعضهم قال إنها صعدت الجبل لتفهم ما لم تفهمه من قبل، لتصل إلى منتصف الهاوية حيث تلتقي الذكريات بالحقيقة، وهناك، ربما، ستجد نفسها بين الظلال. أما آخرون، فكانوا يهمسون بخوف، مؤمنين بأنها اختفت داخل المرآة، كما لو أنها كانت موجودة فقط لتقرأها، وتغادر بعدها إلى عالمٍ آخر، حيث الزمن لا يلتفت إلى ندمٍ ولا إلى حبٍّ دفين.

والغريب... لم يعد يخرج من كوخه. كان يجلس ساعاتٍ طويلة أمام المرآة، أحياناً يكتب في دفترٍ صغير، وأحياناً يحدق فيها بلا حراك، كأنه يحرس شيئاً لم يعرف للقرية بعد. الطقس، مهما تغير، لم يجرؤ على الاقتراب من صمته، والرياح كانت تخفض أصواتها حين يمرّ أحدهم بالقرب منه، كأنها تعرف أنه ليس عادياً، وأنه يحمل معه شيئاً أقوى من كل ما يمكن للجبال والسهول أن تخفيه.

**

وذات ليلةٍ، اجتمعت السماء في غضبها، والعواصف امتدت من طرف الجبل إلى طرف القرية، مطرٌ كثيف يقرع النوافذ، ورعودٌ تصرخ بين الصخور. وفي تلك الليلة، حين تلاشى الضباب وارتفعت الغيوم قليلاً، لاحظ أهل القرية أنّ الغريب

لم يعد موجوداً في كوخه. لم تفتح الأبواب، لم تسمع خطواته، وكأنه لم يكن موجوداً هناك منذ البداية.

لكن على الطاولة، حيث كانت المرآة عادةً تنتظر عينيه، كانت المرآة هذه المرة مكسورةً نصفين. الزجاج المتناثر على الأرض كان يلمع في وهج البرق كنجومٍ متناثرة على صحراء لا تنام. وفي وسط المرآة، بين الكسرين، وضعت ورقة صغيرة، مكتوب فيها بخطٍّ هادئ لكنه حادّ:

"حين تتعلم القرية كيف ترى، سأعود."

الورقة لم تكن مجرد كلمات، بل وعدٌ، تحذيرٌ، وغموضٌ في الوقت نفسه. وأصبح أهل القرية يتحدثون عنها في صمت، كلٌّ حسب معرفته وخوفه: من كان يريد أن يرى الحقيقة، ومن كان يخشى أن يكتشف ما خبأه الزمن والجبال في نفسه.

ومنذ تلك الليلة، صار الجميع يتساءل، وكل قلبٍ يحمل سراً أو ندبةً بدأ يرى انعكاساتٍ غريبة في أي شيءٍ يعكس الضوء... وفي كل مرة، كانت تلك الورقة تتردد في أذهانهم، وكأنها همسٌ من الغريب نفسه، يقول: "تعلموا الرؤية... وستعرفون متى أعود."

الفصل السابع: البئر لا تنسى

في النهاية، لا يبقى شيء... سوى البئر، والندبة التي تعرفنا.

لم يبقَ أحد في القرية يتحدث عن جوان، ولا عن الغريب، ولا حتى عن هزار. صارت الأسماء تتلاشى مع الريح، والوجوه تتكسر في الذاكرة كما تتكسر المرايا، والبيوت التي كانت شاهدة على الحب والغياب، صارت صامتة، وكأنها تهمس بما نسي قبل أن يقال.

أما المرآة، التي كسرت نصفين، فقد فقدت كل مكانتها بين الناس. صارت مجرد أثرٍ صغير، يتداول بين الأطفال كما يتداولون الحصى في الجيوب: بلا معنى، بلا خوف، بلا إدراك. يلمسون الزجاج المكسور بأصابعهم الصغيرة، يضحكون حين ترى أعينهم انعكاسهم مشوهاً، ثم يرمونها جانباً، وينسوا كل شيء، كما تنسى الريح آثار خطواتها على الطريق الحجري القديم.

لكن في قلب الجبل، بعيداً عن القرية وعن أعين الناس، كانت البئر ما تزال هناك. صامتة، عميقة، لا تتحرك، لا تصرخ، لكنها تسمع كل شيء: دموعاً لم تسكب، ضحكاتٍ ضائعة، كلماتٍ لم تنطق، ووعوداً لم تكتمل. كانت تنتظر، بصبرٍ لا ينتهي، أن يأتي من يجرؤ على رفع الغطاء عنها، أن ينظر إلى القاع ويعرف أن الخسارة ليست النهاية، بل بداية لمعرفة لم يكتب لها عنوان بعد.

البئر لم تكن مجرد حفرة في الأرض، بل فجوة في الروح، مرآة أعمق من أي مرآة. تعكس ما خفي عن العيون، ما اختبأ بين الضلوع والذاكرة. كل من اقترب منها، حتى لو لم يعرف، كان يرى جزءاً من ذاته التي خاف أن يواجهها، جزءاً من ندبة لم تلتئم، من حبٍ لم يمت، من انتظارٍ لم ينقطع.

وفي الليل، حين يغطّ العالم في نومه، يهمس الجبل بالبئر. الريح تتسلل بين البيوت، وتعيد همسها في الساحة الخالية، كما لو كانت تقول للقرية بأسرها: «ما ضاع يوماً لم يذهب تماماً. كل قلبٍ عرف الحب، كل روحٍ شعرت بالخسارة، يحمل جزءاً من الحقيقة الصامتة... ولن تنطفئ أبداً.»

وفي مكان ما بين الغياب والحضور، بين الظل والضوء، كانت حقيقة واحدة تبقى: أن المرآة قد تكسر، وأن الإنسان قد يغيب، لكن البئر لا تموت، ولا تغيب. صامتة، لكنها دائماً هناك، تنتظر من يجرؤ على النظر، ومن يفهم أن الحقيقة ليست في الانعكاس، بل في ما نحتفظ به في الداخل، في الندوب، وفي صمت القلب.

**

يقول الرعاة إنهم يسمعونها أحياناً، تأتيهم نداءً خافتاً من قلب الجبل، صوتاً يشبه أولئك الذين رحلوا ولم يودعوا، من يتركون خلفهم فجوات في الذاكرة لا تملأ أبداً. يهمس الصوت بين الأشجار وبين الصخور، كأنه يهمس باسم كل من عرف الحب وخسره، أو باسم كل من لم يجد الشجاعة ليواجه ذاته.

ويحلف أحد الحطّابين أنه رأى وجهه فيها مرة، على سطح المرآة المكسورة حين انعكست عليه أشعة الشمس المتفرقة بعد المطر. كان الوجه بائساً، أكبر من عمره بكثير، مليئاً بالندم والخسارة، يختلط فيه الماضي بالحاضر، والطفل بالشيخ. لم يتجرأ أن يحدق طويلاً، فكل ثانية من النظر شعرت وكأنها تسرق منه شيئاً من روحه، وكأن المرآة لا تعكس ما يراه العين فقط، بل ما لم يجرؤ قلبه على الاعتراف به.

والأغرب أن كل من حاول الاقتراب أكثر، شعر بأن الأرض ترتجف تحت قدميه، وأن الريح تتوقف للحظة، كأنها تنتظر أن يسمع صوته. يبتعدون بعد ذلك بسرعة، يلهثون من الخوف والدهشة، يهمسون فيما بينهم أن المرآة لم تعد مجرد زجاج، بل أصبحت جسراً بين ما خفي وما كان يجب أن يرى، بين الظلال التي تمشي معنا، وبين الحقيقة التي لا تموت أبداً.

**

ثم حدث شيء غريب.

في أحد الربيعات، بعد سنوات طويلة من الجفاف الداخلي الذي تعرضت له أرواح القرية، تسلل فتى صغير بخطوات حذرة بين الأزقة والأشجار، متجهاً إلى الجبل وحده. لم يكن يحمل أكثر من حقيبة صغيرة، لكن في قلبه ثقل ما لم يفهمه بعد، شيء يشبه الفضول والرهبة معاً.

وفي حقيبته كانت مرآة قديمة وجدها في مخزن جدته، مرآة خشبية الإطار، سطحها مشقق قليلاً، وقد نقش على ظهرها بخط متعرج: "لكل من ضاعت منه نفسه." لم يفهم الفتى معنى العبارة تماماً، لكنه شعر بأنها تخصّه وحده.

وصل إلى حافة البئر. الريح كانت تتوقف لحظة، كأنها تمنحه احترامها، والأرض تحت قدميه ارتجفت بصوتٍ خافت، كأنها تذكره بأن هنا لا مكان للأطفال ولا للعبث.

نظر داخل البئر. لم يكن هناك روح، ولا شيخ، ولا صوت. لكن شيئاً ما في عمق الظلام اهتز، وكأن البئر نفسها تتنفس. حين رفع المرآة لينظر فيها، لم يرَ وجهه الصغير كما هو... بل رأى الكوخ على سفح الجبل، وداخل الكوخ رجلاً يشبهه، جالساً على كرسي خشبي قديم، يحدق إليه بصمت، كما لو كان ينتظر منذ أزل بعيد.

تردد الفتى لحظة، شعر بأن الزمن انحنى من حوله، وأنه أصبح جزءاً من شيء أكبر من عمره. لكنه لم يشعر بالخوف، بل بشيء أعمق، شعورٌ غريب بالطمأنينة، وكأن المرآة لم تأتِ لتكشف ما هو مفقود فقط، بل لتذكره بأن بعض الأشياء تنتظرنا دائماً، مهما ابتعدنا.

فترك الفتى المرآة بجانب البئر، على التراب المبلل، وابتسم ابتسامة صغيرة لم يفهم أحد معناها بعد. ثم عاد إلى القرية، ينساب بين البيوت كظلٍّ لا يلاحظه أحد، ولم يخبر أحداً عن شيءٍ من ما رأى.

لكن في قلبه... شعر بأن شيئاً قد تغير إلى الأبد، وأنه، بطريقة ما، أصبح جزءاً من حكاية لا تنتهي، جزءاً من البئر، الكوخ، والندبة التي لا تذبل.

**

ومنذ ذلك الحين، بدأت البئر تتغير.
صار كل من يزورها، يرى فيها شيئاً مختلفاً:
امرأة ترى حبها الأول، رجل يرى أبيه الذي مات قبل أن يصلح خطأه، طفلة ترى نفسها وهي تكبر وحيدة، وشاعر يرى الكلمات التي نسي كيف يكتبها.

**

لم تكن البئر بئراً.

لم تكن مجرد حفرة في الأرض، ولا فجوة ترى فقط بعين الجسد. كانت ذاكرة، كانت مرآة... لكن مرآة لا تعكس الوجه كما هو، بل ما تحته، ما بقي مدفوناً بين اللحظات والهمسات والنسيان. وكانت الندبة هناك، كما لو أنها توقيع من غاب كي يبقى، نقشٌ قديم على حواف الحجارة الملساء، تذكيرٌ صامت بأن كل من يقترب من البئر يلامس شيئاً أبديّاً، شيئاً لا يمحى.

الهواء حولها كان ثقيلاً، يحمل رائحة الرطوبة والعصور الماضية، وكأن البئر نفسها تتنفس كل ذكرى مرت فوقها، وكل صمت سقط فيها. كل خطوة نحوها كانت تتسلل بصمت في جسد الزائر، كأن الجبل كله يراقب من يجرؤ على الاقتراب، وكأن كل حجر فيها يهمس باسمه قبل أن يصل إلى قاعه.

بعد سنوات، وبين أنقاض الكوخ القديم، وجد كتاباً صغيراً بجانب الطاولة المائلة. غلافه ممزق، صفحاته صفراء، ورائحته تذكر الغرفة التي لم تدخلها الشمس منذ عقود. كان مكتوباً بخط رديء، كأن الكاتب كتب بسرعة، لكنه ترك شيئاً من قلبه في كل حرف:

"كل حكاية لا تنتهي بندبة... لم تكن حقيقية."

توقف القارئ للحظة، ثم تابع قراءة السطور التالية، وكأن الكلمات نفسها تصدر صوتاً داخلياً:

"كل من لا يصعد الجبل... لا يعرف من يكون."

ثم السطر الأخير، الذي لم يكن تحذيراً فقط، بل تهديداً صامتاً، يهمس إلى كل قلب يقترب من الظل:

"لكن احذروا... لأن البئر لا تنسى من ينظر فيها ولا يرى شيئاً."

كانت الكلمات تطفو في المكان، بين الرطوبة والظل، تصنع صدى لا ينتهي. كل من قرأها شعر بأن الزمن كله توقف للحظة، وأن الندبة ليست مجرد أثر في الجسد، بل حقيقة مختبئة في كل لحظة، تنتظر من يكتشفها، من يجرؤ على النظر تحت السطح، من يجرؤ على الصعود إلى الجبل والمواجهة.

البئر لم تغلق، والندبة لم تندمل، والكتاب لم يقرأ بعد بالكامل. وكل من يقترب يشعر بأن شيئاً آخر، أعمق، ينتظر أن يكتشفه... شيء يجعل كل حكاية، مهما طالت، مجرد بداية.

وهكذا... حين يسألك طفل صغير عن "جوان"، لا تقل له شيئاً عن وجه أو عمر، ولا عن ضحكٍ ضاع بين الجبال. ابتسم بهدوء، ثم همس بصوتٍ يكاد يكون خافتاً كما لو كان الريح نفسه ينقله:

"لم يكن اسماً... بل طريقاً."

وطريقٌ لا يسلكه الجسد وحده، بل القلب، والذكريات، والظلال التي تتخلل كل خطوة.

وحين تأتيك فتاة، بعينين يلمع فيهما انتظارٌ لا يفهمه أحد، وتسألك عن "هزار"، أغمض عينيك للحظة، تذكر المنديل الأبيض، وثوبها الذي لم يلبس، ودمعة لم تسكب بعد، ثم قل لها:

"كانت الانتظار الذي اختار أن يكمل الحياة."

انتظارٌ لا يذبل، حتى وإن حاولت الرياح قطفه من بين أصابع الزمن، حتى وإن حاولت الأيام طمسه بين روتينها الصامت. إنه الانتظار الذي يحول الفقد إلى صدى، ويجعل الحب خالداً رغم الغياب.

أما حين يسألك قلبك... روحك... عن الندبة التي تحفر صمتها بين الأضلاع، عن الندبة التي لا ترى إلا حين تغمض عينيك عن كل ما حولك، اجلس بهدوء. انظر إلى داخلك، حيث لا يرى إلا الظل والسكينة.

هناك، بين ثنايا الصمت، بين وعر الذكريات وانكسارات الفقد، ربما تجد البئر. ربما تسمعها تناديك بصوتٍ لا يفهم بالكلام، ولا يرى بالعين... لكنها تعرفك. وتعرف كل ما لم يقل، كل ما لم يجرؤ أن ينسى.

البئر هناك... تنتظر كل من يجرؤ على النظر تحت السطح. وكل من فعل، يعرف أن ما نراه ليس النهاية، بل بداية كل شيء.

الخاتمة ليست جرحاً، ولا ألماً يسجل على الجلد. هي ما يبقى بعد أن يلتئم الجرح، هي الذكرى التي رفضت النسيان، هي الصوت الخافت في داخلك الذي يذكرك بما كنت، وما صرت، وما لم تصرح به قط. ليست علامة سقوط، بل بصمة النهوض، أثر الخطوة التي أخذتها رغم كل شيء، رغم الظلام، رغم الريح الباردة التي حاولت أن تدفعك إلى الوراء.

كل إنسانٍ يمر بالجبل، حتى لو لم يصعده، يترك له أثراً في قلبه. جبلٌ داخلي، لا يرى، اسمه: "الحقيقة". في البداية، يهرب منه. يضحك على صعوبته، يسخر من شكاواه. يظن أنه لن يلمسه أبداً، وأنه سيبقى بعيداً عن كل ما يؤلمه. ثم، مع الوقت، يبدأ بالبحث عنه، يسأل عنه بصمت، يجري خلفه كما يجري الظل خلف الضوء. ثم، حين يصل... لا يجد ذهباً، ولا مكافأة، ولا اعترافاً، بل يجد نفسه، كما لم يره من قبل، بلا أقنعة، بلا دفاعات، بلا أي شيء سوى قلبٍ يختبر عتمته وحده. وحين يرى نفسه، يخاف... ليس من الموت، بل من الحقيقة التي لطالما أخافته: من أنه كان يعيش نصف حياة، وأن النصف الآخر ما زال ينتظره.

جوان لم يكن بطلاً، ولم يكن قصة تروى على المدافئ. كان مرآة. انعكاساً لكل من ضل طريقه، ولكل من حاول أن ينسى. والشيخ لم يكن حكيماً، بل ندبة تمشي على قدمين، تعلمك أن الحكمة لا تأتي من الكلمات، بل من الألم والسكوت والانتظار. أما البئر... فلم تكن مصدر ماء، بل هوّةٌ في القلب، مكانٌ حيث تصطدم الذكريات بالواقع، حيث يرى الماضي في كل شيء، ولا شيء ينسى حقاً.

و"روها"، تلك القرية المهجورة، لم تكن مجرد مكان. كانت وطناً للنفي من الذاكرة، لكل حب خذل، لكل حلمٍ دُفن تحت حجج الحياة. كل بيتٍ فيها، كل شجرة، كل حجر على الطريق، كان يذكر بأن الأرض تحفظ كل ما مرّ بها، وأن الزمن لا يمحو، بل يخبئ ويخفي، ليعيده في لحظة غير متوقعة، حين تجرؤ على النظر.

نحن لا نعيش إلا حين نرى ندبتنا، حين نتوقف عن الهروب من أنفسنا، حين نقبل أنها جزءٌ منا، جزءٌ صادق، مهما كان مؤلماً، مهما كان مشوهاً. حين نقول: "هذه أنا". لا كاملة، لا نظيفة، ولا مثالية... لكن صادقة.

الندبة لا تشفى. ولا ينبغي لها أن تشفى. فهي ليست لعلاج الألم، بل لتذكيرنا بأننا بشر. أنها ما يبقينا على الأرض بعد السقوط، ما يجعلنا نقف مرة أخرى، ما يجعلنا نعرف أننا قد عشنا، وأننا ما زلنا نعيش، وأن كل ندبة، مهما كانت عميقة، تحمل معنا شيئاً لم يمت. شيئاً يجعلنا نرى، نشعر، ونعرف أننا موجودون.

وفي النهاية، حين يغلق الليل أبوابه، وحين ينام العالم مطمئناً إلى ضجيجه، تبقى الندبة... صامتة، لكنها حاضرة. وكأنها تقول: "أنا هنا، لأذكرك، لأرشدك، لأجعلك تعرف أن كل سقوطٍ، وكل فقد، وكل جرح... هو جزء من حياتك، هو جزء منك. فلا تخف من النظر، ولا تخف من البئر، ولا تخف من الحقيقة. فكل شيء يبدأ هناك، في أعماقك."

دعنا نؤجّل الرحيل

الفصل الأول: محطة الانتظار

في محطة القطار القديمة، تلك التي صارت تشبه أرشيفاً للوداع، كانت الساعة تقترب من الخامسة مساءً. والمكان – كعادته – يعجّ بأرواح عابرة، وحقائب بلا أسماء، وأصوات عالية تسابق صافرات القطارات التي تمر دون أن تنتبه للقلوب التي تكسر خلفها.

وقف عادل عند أحد الأعمدة، يتكئ كمن أرهقه التعب أو خذله الأمل. نظر في ساعته للمرة العاشرة. لم يكن في انتظاره قطار، بل هي في انتظاره... ليلى.

لم يكن لقاؤهما صدفة. بل هو قرار، جاء بعد خمس سنوات من الفرقة. رسالة قصيرة منها قالت: "محطة القطار، الخامسة مساءً... لحديث لم نكمله."

كانت ليلى تقترب، ترتدي معطفاً رمادياً، يشبه لون السماء في ذلك اليوم الشتوي. عيناها لم تتغيرا، فيهما نفس الدهشة، نفس الحزن العتيق الذي لا تمحوه الأيام. لكنها كانت تمشي ببطء، وكأنها تخشى أن تصل.

وحين وقف كلاهما وجهاً لوجه، مرّت لحظة صمت لم يقطعها إلا صوت القطار المغادر. تلاقى نظرهما، وارتجف الهواء بينهما.

قالت ليلى، وهمست كما لو أنها تحكي سراً للريح:
"أتعرف؟ كنت أفكر أن لا آتي... لكنني تعبت من الجري بعيداً عنك."
أجابها بنبرة تشبه الغياب:
"وأنا... لم أتوقف عن انتظارك يوماً. حتى وأنا أرفض أن أعترف بذلك."

جلسا على أحد المقاعد الحديدية، التي لطالما جمعتهما قبل الفراق. مرّت دقات الساعة بطيئة. لم يكن المكان كما كان. لم تكن هي كما كانت. لكن الوجع بينهما لم يتغير.

قالت وهي تعبث بأطراف وشاحها:
"حين رحلتَ، لم تأخذ شيئاً منك. تركتَ كل شيء خلفك... صوتك، دفء يدك، وحتى عطرك في كتبي."
قال دون أن ينظر إليها:
"ورحيلكِ، كان يشبه الموت... لكنه لم يكن يقتلني مرةً واحدة، بل كل يوم."

رفعت نظرها نحوه وسألته:
"لماذا لم تحاول أن تعود؟"
قال: "كنتُ أظن أنكِ نسيتِ، أو لعلكِ سامحتِ الفراق."
أجابت بصوت مكسور: "ما نسيت، ولا سامحت. فقط... حاولت أن أعيش."

في تلك اللحظة، مرّ طفل صغير يحمل بالونه الأحمر، وكأن المشهد يحتاج إلى رمزٍ للبراءة التي لم تمس. نظرت إليه ليلى وابتسمت، ثم التفتت نحو عادل وقالت:
"كنتَ كل طفولتي، وكل نضجي، وكل وجعي."

سألها فجأة:
"هل أحببتِ بعدي؟"
ارتبكت قليلاً، ثم قالت:
"لم أجرؤ. كنتَ حاضراً في كل رجلٍ أراه، حتى كرهتك فيهم."
قال:
"وأنا لم أحبّ بعدها، بل لم أعد أعرف كيف."

سكتا طويلاً. كان بينهما صراع خفي. ليس في الحب، بل في التوقيت. في ذاك الشيء الذي يجعل القلوب تحب، لكن الحياة لا تسمح لها أن تكتمل.

سألته: "هل نعيدها من البداية؟" أجابها كمن يخاف الجواب:
"وهل نملك بداية جديدة؟"
قالت، وهي تحاول أن تبتسم:
"ربما لا نملك، لكننا نستطيع أن نؤجّل النهاية."

حين نادت مكبرات الصوت عن قطار المغادرة إلى المدينة التي تسكنها ليلى، التفتت نحوه وسألته:
"هل ترافقني؟"
لم يجب. كانت عيناه مليئتين بكل "نعم" لم يقلها من قبل.

وقبل أن تخطو نحو القطار، التفتت إليه وقالت:
"دعنا نؤجّل الرحيل... للحظة أخرى، لحياة أخرى، لقطارٍ لا يأتي، لكننا ننتظره سوياً."

وغابت وسط الزحام، ولم يعرف إن كانت ستعود. جلس في مكانه طويلاً، وتساءل:
"هل كانت حقاً هنا؟ أم أنني اختلقت اللقاء... كي أؤجّل وحدتي؟"

الفصلُ الثاني: المدينة التي لا تنام

مرّت ثلاثة أشهر منذ آخر لقاء. منذ أن قالت: "دعنا نؤجّل الرحيل..."، ثم رحلت.

عادل لم يعد كما كان. كل مساء، كان يعود إلى المحطة نفسها، يجلس على المقعد الحديدي نفسه، كأنّه ينتظر صدى صوتها أكثر من انتظارها هي. لم يكن يراها، لكنّه كان يسمع خطواتها، يشم عطرها على كتفه، ويتذكّر ارتجافة أصابعها حين قالت له: "كنت كل طفولتي."

وذات مساء، كان المطر ينقر على الأرصفة، وكانت الساعة تشير إلى السادسة والربع، حين لمح وجهاً مألوفاً على الجانب الآخر من الرصيف... لكنّه لم يكن لها. كانت نورا، صديقة قديمة، تحمل بين عينيها نظرة دهشة. اقتربت منه، وجلست بجانبه دون مقدّمات، وسألته:
"ألم تغادر بعد؟"
قال وهو يحدّق في قطارٍ لم يصل: "أنا لم أصل أصلاً... ما زلتُ عالقاً في المحطة."
ضحكت وقالت: "القطارات لا تنتظرنا، يا عادل. نحن مَن ننتظرها عبثاً."

صمت طويل، تلاه سؤال جاء كريحٍ تعبُر بين نافذتين: "هل ما زلتَ تفكر فيها؟"
قال وهو يلتفت ببطء نحوها: "هل هناك طريقة لنجعل القلب ينسى توقيت حبّه؟"

ابتسمت نورا، لكنها كانت ابتسامة مرّة. ثم قالت: "هناك مدينة تسكنها... كانت هناك بالأمس."

التفت إليها فجأة، وقد ارتجف صوته:
"من؟"
قالت:
"ليلى. كانت تجلس في المقهى المطل على ساحة الساعة، تشرب قهوتها وتكتب."

"تكتب؟!"
"نعم... تحمل دفتراً أسود، وقلماً أحمر... كأنها تكتب اعترافات متأخرة."

في تلك الليلة، سافر عادل إلى المدينة التي لا تنام. سافر بلا حقيبة، بلا خطة، بلا تذكرة عودة. كل ما كان يملكه هو السؤال الوحيد الذي لم يقل لها يوماً:
"هل كنتِ تحبّينني... حتى في الفراق؟"

حين وصل، كانت المدينة مبللة بالحكايات. أضواء المقاهي تلمع على الأرصفة، والناس يمشون بلا ملامح.

بحث عنها لأيام. لم يجدها.

حتى جاء الغروب الخامس، وكانت السماء تقطر ذهَباً. دخل صدفة إلى مقهى صغير عند الزاوية، حيث يذوب الزمن في فناجين القهوة الباردة. وهناك... كانت تجلس.

هي. ليلى.

لم تتغيّر. عيناها لا تزالا تكتبان قبل أن تتكلم. لكنه تغيّر. كان كمن خرج من الحرب لتوّه، وعاد ليحمل قلبه من جديد.

تلاقت النظرات، ولم يحتج أي منهما إلى مقدّمة.

قالت وهي تضع القلم على الطاولة: "أظنّني كتبتك في كل صفحة..."
قال: "وأنا بحثت عنك بين كل سطر."

سألها بعد صمت عميق:
"هل ما زال الرحيل مؤجّلاً؟"
قالت بابتسامة باكية: "بل ألغيناه... ما رأيك؟"

جلس مقابلها طويلاً، يتأملها كما لو أنه يقرأ صفحة نادرة من كتابٍ لم يكتب بعد. رفع كفيه فوق الطاولة، ببطء، كأنه يقدم قلبه مرة أخرى، دون كلمات، دون حواجز، فقط الصمت الذي يصرخ بما لم يقال منذ سنوات. كل نبضة، كل ارتجافة في أصابعه، كانت رسالة صامتة تقول: "ها أنا، لم أذهب، لم أنس، لم أستسلم."

نظر إليها، ورأى في عينيها الماضي كله، الحزن، الفقد، والانتظار الطويل الذي امتدّ عبر الأيام والسنين. لكنه رأى أيضاً في تلك العيون نفسها لمحة من الحاضر، من المواجهة، من لحظة الوعي بأنهما أمام بعضهما مرة أخرى، وأن كل شيء قد توقف لحظة واحدة كي يكتب اللقاء هذه المرة كما لم يكتب من قبل.

لم يتحدث أحدهما. لم تكن هناك حاجة للكلمات. كانت المسافات التي قطعها الزمن، وحنين القلوب، كافية لتملأ المكان كله. خارج نافذة المحطة، كانت المدينة تواصل ضجيجها المعتاد، لكن هنا، في تلك الزاوية الصامتة، توقف الزمن، كما لو أن الدقائق نفسها ترددت قبل أن تمنحهما الحق في هذا اللقاء المؤجل.

تحرك القطار بعيداً، لكنه لم يغادر بعد. كان واقفاً عند الرصيف، ساكتاً، يراقبهما، كما لو أنه يعرف أن هذا اللقاء لا يعتمد على المواعيد. كانت الأضواء الخافتة للمدينة تتسلل عبر الزجاج، تعكس وجوههم في لحظة مزدوجة من الحنين والحياة، من الحبّ الذي لم يكمل سابقاً ومن الأمل الذي لم يمت.

همست ليلى أخيراً، كأنها تخرج روحها من الصمت الطويل:
"ألم تعبنا من الفرقة؟"

ابتسم، بعينين مليئتين بالدهشة والسكينة معاً، وقال:
"ربما... لكننا هنا الآن. وهذا كل ما يحتاجه القلب ليعرف أنه لم يضيع."

ضحكت، ضحكة قصيرة لكنها صادقة، وضعت يدها على كفه، شعرت بالدفء الذي لم يتركها طوال سنوات الانتظار. وكانت اللحظة تلك، بلا قطار، بلا زمن محدد، مجرد لقاء بين روحين طالما عانتا من الفقد، بلا وعود، بلا تعويضات، فقط حقيقة اللقاء نفسه، حقيقية، صافية، ومؤجلة حتى جاءت.

وهكذا، في المدينة التي لم تنم، جلسا أمام بعضهما البعض، والقلبان يتحدثان بلغتهما الخاصة، واليدان تقولان ما لم تستطيع الكلمات أن تصفه، والمدينة كلها صامتة، كأنها تعرف أن بعض اللقاءات لا تقاس بالساعات أو الأيام، بل بالوجوه التي لم تنسى، وبالقلوب التي لم تتوقف عن الانتظار.

لم يكن القطار قد وصل، ولم يكن قد غادر.
لكنها كانت اللحظة... اللحظة التي ينتظرها كل قلب حقيقي.
وكانا فيه، أخيراً، في مدينة لا تنام، في لحظة لا تموت، وفي زمنٍ لم يعد يؤمن بالمواعيد.

الفصل الثالث: دفترٌ أسود... وقلمٌ أحمر

كانت الطاولة الخشبية القديمة تئنّ تحت ثقل السكون، وكأنها سمعت من أسرارهما أكثر مما سمعت من روادها منذ سنين. ليلى وضعت دفترها الأسود أمامه، دفعت به نحوه ببطء، كأنها تسلمه قلبها بغطائه الجلدي الغامق.

قالت بصوت يكاد يُسمع:
"في هذا الدفتر كتبت كل مرة لم أقل فيها شيئاً. كل مرة أردت أن أصرخ، ولم أفعل. كل مرة عبرتَ في الذاكرة ولم أُخبرك."

فتح عادل الصفحة الأولى، كانت خالية... بيضاء تماماً، كأنها تقول: "لم أكن أعرف كيف أبدأ."

ثم قلب الصفحة الثانية. كانت هناك جملة مكتوبة بخطٍ مائل:
"في المساء، يمر وجهك على زجاج نافذتي، وأتساءل: لماذا لا تطرق الباب؟"

ابتسم. ثم ارتبك. ثم ابتسم من جديد.
قال: "أنا... لم أعرف أنك كنتِ تنتظرين."
قالت: "ولا أنا كنتُ أعرف أنني كنتُ أكتبك."

الدفتر كان ممتلئاً بذكرياتٍ لا يعرفها. كان يعرف القصة من جهته فقط، وهي تعرفها من الجهة الأخرى. والآن، في هذا اللقاء الذي لا يشبه اللقاءات، كانت الحكاية تكتمل.

قرأ بصوتٍ خافت:
"حين قلتُ له: دعنا نؤجّل الرحيل، كنت أرجوه أن يقول لي: بل لنرحل معاً..."

رفع رأسه نحوها، وكانت عيناها لا تنظران إليه بل إلى الماضي.
قال هامساً: "كنتُ جبانًا."
ردّت دون أن تلتفت: "كنتَ خائفاً... وهذا ليس ذنباً. لكنني أيضاً كنتُ خائفة."

لحظة صمت طويلة، ثم قالت: "أتدري لماذا اخترتُ القلم الأحمر؟"
قال: "لأنه لون القلب؟"
قالت: "ولأنه لا يمحى. كنت أريد أن أترك أثراً لا يمحى في كل ما أكتبه عنك."
ثم، بهدوء، أخرجت ورقة مطوية من جيب معطفها، وناولته إياها.
فتحها فوجدها رسالة، كتبتها له منذ عام، لكنها لم ترسل:
"إلى الذي لم يرحل من ذاكرتي: كنتَ تحضر في كل لحظة خفوت. في كل مقطع موسيقي، في كل صورة عابرة، في كل مرة أخاف فيها من الغياب، وأتظاهر بالقوة."

أعاد الورقة إلى مكانها في جيبه هذه المرة.
قال:
"هل لي أن أكتب أنا الصفحة الأخيرة من هذا الدفتر؟"

قالت:
"بل الصفحة الأولى من دفترٍ جديد..."

في تلك اللحظة، نهضت ليلى، مدّت يدها نحوه، كأنها تقول: "هيا، لنسير في الحكاية التي أجلناها طويلاً."

أخذ يدها، وكانت المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك دون خوف.
خرج الاثنان من المقهى، وكان الغروب يرسم ظلالهما طويلة على الأرصفة، كأن المدينة بأكملها تكتب لهما قصيدة جديدة بلونٍ أحمر، على دفترٍ من غيم.

ساراً معاً ببطء، كأنهما يكتشفان خطوات العالم من جديد. لم يكن هناك حديث كبير، فقط أصوات خطواتهما تتناغم مع دقات قلبهما، ومع همسات الريح بين المباني القديمة. كل زاوية، كل نافذة، وكل ضوء شاحب كان يهمس لهما أن اللحظة التي انتظراها منذ سنين قد وصلت أخيراً، وأن المدينة التي اعتادا رؤيتها بعينٍ واحدة، صار لها وجه آخر الآن، وجه يعكس لقاء لم يسمع له صوت من قبل.
كانت ليلى تتوقف أحياناً لتنظر إلى السماء، حيث الغروب يحرق الأفق بلونٍ برتقالي غامض، يخلط بين النهاية والبداية في نفس اللحظة. ابتسمت له، وابتسامة كانت تحمل كل المرات التي لم يلتقيا فيها، كل الوعود التي لم تحفظ، وكل الألم الذي أصبح الآن مجرد خيط رفيع يربط بينهما.
وهو، من جانبه، شعر لأول مرة منذ سنوات بأن الانتظار لم يكن عبثاً. كل دقيقة فرقة، كل لحظة صمت، كانت تهيئ لهما الطريق إلى هذه اللحظة بالذات، حيث يمكن للقلب أن يتكلم بدون كلمات، حيث يمكن للروح أن تعرف الأخرى بلا شرح، بلا اعتذار، بلا تبرير.
وفي شارعٍ ضيق، تحولت المدينة كلها إلى مسرح لهما وحدهما: مصابيح الشارع كشموعٍ تُهتف للقاء، أبواب المنازل مغلقة ولكنها لا تخفي ما يجرى في الهواء من نبض، والرصيف الطويل يعكس ظلالهما كأنهما شخص واحد، كأنهما الحكاية التي طالما رُويت بصمت.
ثم توقفا عند جسرٍ صغير يطل على النهر، والماء يلمع تحت أشعة الغروب، كمرآةٍ ثانية للحظة لم تكن تتكرر. مدّ يده نحو جيب معطفه وأخرج شيئاً صغيراً... كان دفتراً قديماً، مغطى بالغبار، لكنه الآن بين يديهما يكتب حكاية جديدة، فصلاً لم يكتب بعد، بل كان مستعداً منذ زمن، يكتبه قلبان فقط.
قالت ليلى بصوتٍ يكاد يكون همس الريح:
"ربما لم نعد نملك كل الوقت... لكن ربما، هذه اللحظة تكفي."
ابتسم، وضع يده على قلبه، ثم على كفها، وقال:
"الآن، كل شيء يمكن أن يبدأ... حتى الزمن نفسه."

والمساء ينزل ببطء، يغلق على المدينة بوابة النهار، لكن قلباهما لم يشعرَا بالغروب، بل بشروق جديد... بداية حكاية لا تنتهي، مرسومة على الأرصفة، وعلى دفتر الغيم الأحمر، وعلى ظلالهما التي تتشابك إلى الأبد.

الفصل الرابع: غرفةٌ مطلّة على الغياب

كانت الغرفة ضيقة، لكنها دافئة. نافذتها الوحيدة تطل على الشارع الذي لا ينام. صوت السيارات، خطوات العابرين، بائع البالونات الذي يعود كل مساء دون أن يبيع شيئاً... كلها كانت تصنع خلفيةً لحكاية بدأت منذ سنوات ولم تنتهِ بعد.

ليلى وقفت عند النافذة، عيناها تبحثان في العتمة عن شيءٍ لم يكتب، عن ظلٍ ربما عبر صدفةً أو رسالةٍ تائهة في دخان الشتاء.
أما عادل، فكان يجلس على الكرسي الخشبي، يحدق في فنجان قهوته، كأنه يقرأ فيه ما لم يقل.

قالت:
"أتعرف؟ كل الأماكن التي جلسنا فيها معاً، كانت تطلّ على الغياب. كأننا كُنا دائماً ننتظر نهاية لم نكتبها."
ردّ دون أن ينظر إليها:
"أو ربما كنّا نهرب من البداية."

صمتٌ طويل... كأن الحروف خائفة من الظهور.

ثم أضافت ليلى، بنبرة خافتة:
"في كل مرة كنتَ تترك فيها الباب مفتوحاً، كنتُ أظن أنك ستعود. وكنت أغلقه فقط لأتأكد من أن الريح لا تحمل اسمك."
قال:
"أما أنا، فكنت أغادر دائماً قبل أن تهمسي لي: ابقَ... لأنني كنت أخاف من أن لا أعود."

اقتربت منه، جلست أمامه، نظرت في عينيه مباشرة، وقالت:

"دعنا لا نؤجّل الكلام هذه المرة...
دعنا نتحدث، لا كعاشقين التقيا متأخرين، بل كغرباء تذكّروا أن بينهما شيئاً لم ينتهِ."

نظر إليها، وكأن صوته يخرج من بئرٍ قديم:
"هل يمكننا أن نبدأ الآن؟ أن نبدأ حيث يجب أن نبدأ؟ دون ذاكرة، دون خريطة؟"

قالت: "لنحاول. ولنجعل من هذه الغرفة — الصغيرة والمطلة على الغياب — بداية لشيءٍ لا يُنسى."

أخذ يدها هذه المرة دون تردد، وداخل تلك الغرفة البسيطة، التي لم تشهد على شيء من ماضيهما، بدأت الحكاية... من جديد، أو ربما للمرة الأولى.

كانت الموسيقى خافتة، وكانت المدينة تنام على رائحة المطر.
في الخارج، لا أحد يعرف أنهما اختارا أخيراً ألّا يؤجّلا الرحيل، بل أن يؤجّلا الفقد.

الفصل الخامس: الرسالة التي لم تكتب أبداً

في تلك الليلة، كان الظلام يلفّ المدينة وكأن السماء قد قررت أن تبقى صامتة تماماً. فقط صوت الرياح الذي يتسلل بين أزقة المدينة كان يخترق هذا السكون. لم يكن ثمة شيء آخر، لا صوت خطوات العابرين، ولا أصوات المقاهي التي تغلق أبوابها بهدوء، ولا حتى همسات الأحبة الذين قرروا أن يتقاسموا اللحظة الأخيرة قبل أن ينتهي اليوم.

ليلى كانت جالسة عند الطاولة الصغيرة التي اعتادت أن تكتب عليها، قلمها الذي لا يفارق أصابعها، ودفترها الذي يخبئ بين صفحاته أسراراً لا أحد يعلم بها سوى الريح. كانت عيناها معلقتين على الورقة البيضاء أمامها، تتأمل الكلمات التي لم تكتب بعد.

أما عادل، فكان يراقبها من بعيد، ولا يستطيع أن يصدق كيف أن كل شيء بينهما بدأ يتجمع هنا، في هذا المكان الضيق، في هذه اللحظة التي تسبق الفجر. سكت، ثم قرر أخيراً أن يتحدث:

"لم تكتبي لي أبداً، أليس كذلك؟"

نظرت إليه، وكانت عيناها تلمعان كما لو أن الضوء يخرج منهما مباشرةً، ثم قالت بصوت هادئ، كما لو أن الكلمات تخرج منها على مضض:
"كنتُ أكتب لك دائماً... لكنني لم أستطع إرسال الرسائل. كنت أكتب كلمات لم تُقَل، وأحاسيس لم تُفهم."
حرك عادل فنجان القهوة أمامه بيدٍ مرتجفة، وأجاب:
"إذا كانت الرسائل التي كتبتِها لي لا ترسل، فماذا عن الرسائل التي لم تكتبيها أصلاً؟ ماذا عن كل الكلمات التي تركتها في الهواء، والتي كانت تحتاج أن تُقال؟"

صمتت للحظة، وكأنها كانت تبحث عن كلمة لا تجدها، ثم قالت:
"كنت أخاف. كنت أخاف أنني إذا كتبتُ لك، سأتأكد من أنني أخسر كل شيء. وإذا لم أكتب، كنت أخاف أنني سأبقى في هذا الفراغ الأبدي، بين ما قيل وما لم يُقَل."

ثم همست بصوت خافت:
"أنا... كنت أكتب لك رسالة واحدة، لكنني دائماً أوقفها في منتصف الطريق."
"ماذا كانت تلك الرسالة؟" سألها، وكأن كل كلمة منه كانت تسحبها إلى مكانٍ بعيد.

"كانت رسالة للوداع... لكنني كنت أخاف أن أكتبها. كنت أخاف أن تصبح الحقيقة. كنت أخاف أن أكتشف أننا لا نملك أكثر من هذا... من الكلمات التي لم تقل."

وضع عادل القلم الذي كان في يده على الطاولة، وأخذ نفساً عميقاً. كان يراقبها كما لو أن عينيه تسلبان منها ما تبقى من قوة.

"وإذا كتبتِ هذه الرسالة؟ إذا كتبتِ لنا، ماذا سيحدث؟ هل سنغلق الفصول الأخيرة؟"

قالت، وعيناها تتأملان الظلال التي رسمتها الأضواء الخافتة في الغرفة:
"إذا كتبتها، سنكتشف أننا في النهاية لا نكتب إلا لوداعٍ أبدي. وإذا لم نكتب، سنظل نعيش في الأمل بأننا في لحظةٍ ما سنلتقي مجدداً. في الرسالة التي لم نكتبها أبداً."

نظر إليها بصمت، ثم شعر بشيء غريب ينتابه، كما لو أن الكلمات التي لم تقال طوال تلك السنوات كانت تتجمع الآن في عينيه، لتكتب أخيراً. لكن لا شيء يمكن أن يكتب، ولا شيء يمكن أن يقال، لأن كل شيء أصبح جزءاً من الغياب.

"دعينا نترك الرسالة مفتوحة، كما تركنا كل شيء." قال، وهو يقف، "دعينا نعيش في الحروف التي لم تكتب أبداً."

في تلك اللحظة، أدرك كلاهما أنه لا يوجد وداع في الحب، بل هناك فقط كلمات تُقال، وأخرى تُترك للزمن، لتكتبها بأيدينا في وقتٍ لا نعرفه.

أسير الأرض

في فجرٍ هادئ، حينما لا يزال العالم يغط في سباتٍ عميق، انسلَّ من بيته كخيطٍ رفيعٍ من الظلال، هارباً من همسات الليل إلى صباحٍ آخر. كانت خطواته تنساب على الأرض كأنها إيقاع قديم، مسارٌ متسلسل عبر الزمن والمكان، متوجهاً نحو الحقل الذي طالما كان ملاذه. في يده معوله، وعلى كتفه حقيبة من أملٍ، تحتوي على حزمة من غراس الزيتون التي اختارها بعناية، كما يختار قلبه تلك الذكريات القديمة التي لا يفارقها.

حملت قدماه عبء الأيام التي مضت، بينما كانت الرياح تلعب في شعره، تعبيراً عن الحنين الذي كان يرافقه. كان كالعائد من رحلة طويلة، رحلة لم يكن يعرف لها نهاية، يحمل على كاهليه سنواتٍ من تعبٍ، وعيناه تراقب السماء كما لو أنه كان ينتظر إشارةً لمّاحة تعيد له شيئاً من ماضيه البعيد.

بيني وبين الأشواك المدببة التي كانت تحيط به في الحقل، كانت هذه الأشواك وكأنها حراس للذكريات التي دفنها الزمن، ذكرياتٍ لم يستطع التراب أن يطويها رغم كثافة السنين. جلس على الأرض، وجثا على ركبتيه وكأنه ينازع قلبه، أزاح صخرةً ثقيلة وكأنها قسوة من الماضي، ثم بدأ يحفر الأرض، يداه التي شوهها العمل أتمّت فعلتها، وغرس الغرسة الأولى في تربة كانت أكثر قرباً إلى روحه من أي مكان آخر.

بعد أن انتهى من عمله، تمدد جسده النحيل بجانب شجرة التوت العتيقة، مسندًا ظهره إلى جذعها المتهالك، كمن يستند إلى قلبٍ قديم. نظر إلى السماء بعيونٍ نصف مغمضة، همس بكلماتٍ لم تكن إلا صدى نفسه، وكأن الفجر كان يستمع إليه في صمت:

"تبّاً للحنين... فهو يعيدنا إلى الأشياء ولا يُعيدها إلينا."

كانت كلماتٌ تحمل في طياتها ألماً لا يُرى، ولكن يُحسّ. كان وجهه المشوّق معبأً بحكاياتٍ لا تنتهي، وتجاعيد الزمن على جبينه كانت تروي قصصاً لم تُكتب بعد. في هذه اللحظة، كان العالم من حوله يهدأ، ليغرق في فوضى أفكاره، بينما كان قلبه يصرخ في صمتٍ مطبق، عائداً إلى زمنٍ مضى.

تخيّل نفسه في شبابه، عندما كان فارساً على ظهر حصانه الوفي، يتبختر بين أزقة قريته الجبلية. كانت الزغاريد تصدح في السماء، وتتمايل الخيول بين الأقدام كأنها أشعة شمسٍ تشتعل. كان يلوح بيده، يضجُّ من الضحك، والفرسان يراهنون على قوة عزيمتهم. كان السيوف تتراقص في الهواء كأجنحة السنونو، ويحتفل الجميع بفرحٍ لا يطال. لكن هذه الصورة بدأت تتشقق، وتكسر الزمان برأسه، ووجد نفسه يشاهد حصانه يسقط أمامه، محطّماً، بينما كانت الضحكات تتلاشى وتغيب في الظلال، كأنها لم تكن أبداً.

استفاق من الحلم، زفر زفرةً عميقة، ثم ضحك بنبرةٍ مُرة، كأنه يسائل عقله: "كيف أصبحتُ أسيراً للماضي؟"

رفع بصره إلى السماء، وإذا به يرى زوجته العجوز، تحمل جرة الماء وكأنها تحمل العمر ذاته. خطواتها متثاقلة، لكنّها تأتي إليه بأملٍ جديد، كما لو أن الأرض نفسها تُعيد له شيئاً من ماضيه الضائع. كان السرب البعيد من طيور السنونو يمر في السماء، ينحرف بخطوطٍ تائهة، كأنها أحلامه التي تختفي قبل أن يُمسك بها.

اقتربت الزوجة منه ببطء، كل خطوة كانت تجلب معها قطعة من الحنين، وكل لحظة كانت تذوب في الهواء كندى الصباح. جلس بالقرب منها، يتأمل في حقوله القديمة، وفي الزيتون الذي كان يشهد على سنواتٍ مرّت، وما تبقى منها في ذاكرته. كان الحقل، كما كانت حياته، مليئاً بالأشواك والعثرات، لكنه كان أيضاً مكاناً لزرع الأمل.

وفي تلك اللحظة، بينما كان يراقب بعينيه الحقل الذي عرفه منذ الطفولة، شعر بأن الأرض تتحدث إليه بصوتٍ خافت. كانت الزهور البرية التي تزين أطراف الحقل تتمايل برقة، وكأنها تشاركه في الحزن والفرح معاً. غرسة الزيتون التي زرعها بيديه منذ قليل، كانت تتأمل السماء، ممتدة بجذورها إلى الأعماق، تبحث عن سرّ الحياة، مثلما كان هو يبحث عن سرّ الزمن الذي مرّ سريعاً دون أن يشعر.

جلس صامتاً، وقد مرَّت برأسه عشرات الصور التي جمعها عبر سنين عمره. بين يديه كانت الأيام تتراكم، وكل حجر وضعه على هذا الأرض، وكل غرسة زرعها، وكل قطرة عرق سقطت على وجهه، كانت تروي حكاية حياته. حكاية ذلك الشاب الذي كان يركض مع الرياح في أوقات فراغه، والذي كانت الخيول في قريته تتناغم مع أغنياته في المساء. ثم جاء الزمن، ومرّت اللحظات بسرعة، وبات الحنين يلاحقه كظله في كل مكان.

تذكّر فجأة كيف كان يتسابق مع أقرانه في ذروة الشباب، يركضون في الحقول الواسعة، ولا يبالون بالعثرات. كانت قريته تتوهج بالصخب، والزغاريد تملأ الأجواء، أما الآن، فكل شيء هادئ، بل يكاد يكون ساكناً، حتى الرياح التي كانت في الماضي تهب بنشاطٍ، صارت تمر بهدوءٍ كما لو أنها تأخذ قسطاً من الراحة.

كانت الزوجة تقترب منه أكثر، يعلو وجهها اللامع بالتعب، لكنها كانت تحمل في عينيها تلك الابتسامة التي لا تفقدها مهما مرّ الزمن. وضعت الجرة على الأرض، وجلست بجانبه، وبينما كانا صامتين، كان الصوت الوحيد الذي يملأ المكان هو نقيق الضفادع من بعيد، وهمسات الرياح التي تتلاعب بأوراق الشجر.
همست الزوجة بصوتٍ خافت، وكأنها تعبير عن أفكارها البسيطة: "أنت لم تغيّر، لا في قلبك ولا في عينيك، لكن الزمن قد غيّر منّا، يا حبيبي."
نظر إليها بعينين غارقتين في الحنين، وكأنها قالت ما كان في قلبه طوال السنوات الماضية. ثم قال بصوتٍ هادئ، مرتفع قليلاً، كما لو أنه يكسر حاجز الصمت

بينهما: "نعم، الزمن تغيّر، والوقت لا يعود، لكن الأرض، الأرض لا تتغير. إنها تظل كما هي، تحمل ذات الغرسات، وتعانق ذات الذكريات."

كانت السماء قد بدأت تأخذ لوناً خفيفاً من الأصفر، وكأنها تستعد لاحتضان يوم جديد، لكن في أعماق قلبه، كان يرى اليوم كأنه حلقة من الماضي، يعيد نفسه كل يوم. ضحك قليلاً، لكنه كان ضحكاً بلا روح، ضحكاً يحمل في طياته الحزن، تلك الهزيمة الصغيرة التي لا يستطيع الإنسان الهروب منها.

كانت زوجته تراقب هذا الصمت بينهما، ثم مدت يدها برفق إلى يده، وأمسكت بها كما لو أنها تمسك بالعمر ذاته، وكأنها تُخبره بأنها لا تزال هنا، رغم مرور السنين. ابتسم لها ابتسامة عميقة، كانت مليئة بالحنين، وكان كأنما يقول لها: "كل شيء هنا، في هذه الأرض، وفي قلبك، سيظل حياً إلى الأبد."

ثم وقف ببطء، مسنداً على معوله، وأخذ ينظر إلى الأفق البعيد، حيث كانت الشمس تشرق بألوانها الدافئة، تلامس الأرض برفقٍ، كما لو أنها تُعيد الحياة بعد غيابٍ طويل. وأخذت الرياح تعصف بالأشجار، تجلب معها رائحة الأرض التي يعرفها جيدًا، وتغسل قلبه من غبار الزمن.

لكن في قلبه، كانت تلك الذكريات لا تزال حية، تتراقص في كل خطوة يخطوها على هذه الأرض. هي ذكريات قديمة، لكنها ليست بعيدة، فهي حاضرة في كل غرسة زيتون، وفي كل زهرة برية، وفي كل لمسة يدٍ تعرف هذا المكان كما يعرف قلبه. وكان يردد في سره: "كل شيء يعود إلى أصله، إلى الأرض التي انبثقت منها الحياة، وإلى الذكريات التي لم تغادرنا، مهما حاولنا الهروب منها."

في هذه اللحظة، أدرك أنه أسيرٌ، ليس فقط للماضي، بل للأسطورة التي سطّرها الزمن بين يديه. أسيرٌ للأرض، لتلك الحقول التي لطالما كانت ملاذاً له، ولعينيه التي لا تزال ترى فيها ملامح شبابه.

بينما كانت الرياح تراقص الأشجار من حوله، شعر أن الوقت قد توقف، أو ربما كان هو من توقف عن العيش فيه. كل شيء حوله كان يشهد على ماضٍ بعيد، على أيامٍ كانت تُشعل في قلبه حماساً، ثم جاء الزمن ليطفئ تلك النيران بأصابعه الثقيلة. ومع ذلك، كان هناك شيء غريب في قلبه، شعورٌ غامضٌ أن كل شيء في هذا المكان ما يزال حياً، على الرغم من مرور السنين.

نظر إلى يديه المتجعدتين، وتمعن في آثار العمل التي تركها الزمن عليهما. كانت يده اليمنى، التي طالما قبضت على عنق الفأس والمعول، تحمل آثار القسوة والتعب، بينما يده اليسرى كانت تحمل عبئاً أخف، لكنهما معاً كانتا تحملان ماضياً طويلاً، حافلاً بالأمل، والحزن، والعزيمة. ابتسم في نفسه وهو يفكر: "لقد مررتُ بكل هذا، ولا زلتُ هنا، في هذه الأرض، أحاول أن أزرع شيئاً جديداً، ولو كانت غرسة زيتون صغيرة، لأرى الأمل يتجدد."

جلس على حجرٍ كبير كان يرقد بالقرب من شجرة التوت، ثم أغمض عينيه ببطء. كان يعزف لحناً قديماً في قلبه، لحناً من الماضي البعيد الذي لا يزال يرن في أذنه. حنينه كان يغزوه مثلما يغزو الزهر الربيعي في هذا المكان الذي يحيط به، لكنه كان يتساءل في نفسه، هل يمكن للإنسان أن يظل أسيراً لذكرياته دون أن يُفقده ذلك طريقه إلى المستقبل؟

رفع رأسه فجأة وكأن فكرة جديدة قد لمعت في ذهنه. كان هناك شيء في هذا المكان، في هذا الحقل، في تلك الغرسات الصغيرة التي وضعها بيديه، كان يشهد على وجوده هنا، على بذره الأمل التي لم تنضب بعد. كان يشعر بأن الزمن قد منح له فرصة أخيرة ليبدأ من جديد، وأن الحياة في هذا المكان، مهما كانت قاسية في بعض الأحيان، ما زالت تمنحه شيئاً من الأمل.

عندما نظرت إليه زوجته، كانت ترى نفس الشيء في عينيه، ذاك الوميض الذي يعلن أن الحياة، مهما طال انتظارها، ستظل قادرة على إشراقها مجدداً. كانت تعلم في أعماقها أنه لا يمكنه الهروب من ماضيه، ولا يمكنه تجاهل الذكريات التي شكلت هويته. لكنه أيضاً، كما كانت ترى، كان لا يزال قادراً على إيجاد السلام في هذه الأرض، في هذا الحقل الذي شهد على أعظم سنوات عمره.

ثم، مع إشراقة الشمس التي بدأت تتسلل عبر أوراق الأشجار، قرر أن يكمل ما بدأه. رفع المعول بيدٍ قوية، لكنه هادئة، كما كان يفعل في أيام شبابه. بدأ بحفر الأرض مرة أخرى، مغروساً في تربة وطنه، في عروقها التي احتفظت برائحته. وكلما غرز معوله في الأرض، كان يزرع جزءاً من نفسه، جزءاً من ذكرياته التي لا يمكن أن تموت، وجزءاً من الأمل الذي لم يفارقه أبداً.

ومع كل خطوة، كانت عينيه تتجهان إلى الأفق البعيد، حيث كانت السماء تكتسي بألوان الفجر الجديد. في تلك اللحظات، أدرك أنه لم يعد أسيراً للماضي فقط، بل أصبح أسيراً للحياة نفسها. كانت الأرض التي تحته تتنفس معه، كما لو أنها تذكّره بأن الحياة تستمر دائماً، مهما كانت الظروف.

ظل العائد: حكاية الزيتون والخلود

في بقعةٍ نائيةٍ من الأرض، حيث تنكمش المسافات، وتنفرط الأزمنة من عنق الدهر، وحيث لا تسعف الخرائط قلبَ التائهين، يبدأ شيءٌ لا يشبه أيّ بداية. هناك، عند حافة النسيان، حيث تلتقي الشمس بالتراب دون شهود، وحيث يعبر النسيم كأنّه روحٌ قديمة تهدهد ذاكرة الجبال، تنام الحكايات في جذوع الشجر، لا تطلب أن تُكتب، ولا أن تروى، بل تنتظر من ينصت إليها كما تنصت الجذورُ لوشوشة الماء في أعماق الأرض.

في ذلك الركن الساكن، حيث لا يعلو سوى خفق أجنحة الطيور البعيدة، وهمس الأعشاب اليابسة تحت أقدام العابرين القلائل، لا تُروى القصص بالكلمات، بل تُفهم من آثار الخطى على التراب، ومن هدير الريح حين تمرّ على الأغصان فتئنّ، كأنّها تتذكّر، كأنّها تتألّم... أو كأنّها تشتاق.

هنا، في بستانٍ منسيّ، تركه العائدون بعدما نضج فيهم الحنينُ حتى وجعِ العظم، بستانٍ حملوه في صدورهم حين رحلوا، ثم عادوا إليه ليجدوه كما كان... أو كما تمنّوا أن يكون. هناك تبدأ الحكاية.

ليست حكايةَ وطنٍ فحسب، بل حكايةُ حلمٍ زرعه رجلٌ في زمنٍ غابر، وسقاه بدمعه، ورعاه بأظافره، ثم أوصى به الأرض. تركه بين يدي زيتونةٍ عجوز، كانت إذا صمتت نطقت بالحكمة، وإذا نطقت أفاضت بالأسرار.

لم تبدأ حكاية ذلك الرجل في يومٍ معلوم، ولم تنتهِ في صفحةٍ تطوى. كانت تمتدّ في العروق، كما يمتدّ الجذر في صخر القلب، تنحني دون أن تنكسر، وتتفرّع في صمتٍ نبيل.

كان وجهه مغموراً بغبار الحقول، وعيناه تحملان لون التراب حين تعشقه الشمس، لكنه لم يكن فلاحاً عادياً؛ كان أشبه بعرّافٍ زرع نبوءته في خاصرة الأرض، وتركها تنمو بين السنابل.

وذات مساء، سأله طفلٌ:
. لماذا لا تقطع هذه الزيتونة العجوز، وتزرع مكانها شجرةً فتية؟
ضحك الرجل، ومسح على رأس الصغير بحنوّ العارف، ثم همس قائلاً:
«لأنها لا تزال تحلم، يا بُنيّ... والزيتونة التي تحلم، لا تموت.»

وهكذا كانت الزيتونة...
واقفةً كشيخةٍ باسقة، تروي بظلّها حكاياتِ من عبروا، ومن لم يعودوا، ومن نامت أسماؤهم تحت تراب البستان. كلُّ ورقةٍ فيها دفترٌ منسي، وكلُّ جذعٍ حارسٌ لوعدٍ لم يُكسر.
وتبدأ الحكاية هناك...

حين عاد الرجل بعد غيابٍ طويل، يحمل على كتفيه عبءَ السنين، وفي قلبه شتلةُ حنينٍ لا تذبل.

عاد لا ليزرع، بل ليُصغي... ليجثو عند جذع الزيتونة، ويسألها عمّا تبقّى من الحلم.
عاد وفي صوته نبرةُ الذين أنهكهم الترحال، وفي عينيه رجاءُ الذين يؤمنون أنّ بعض الأوطان لا تبنى بالحجارة... بل بالحكايات.

في بستانٍ لا يعرف الوقت، بين جدرانٍ متآكلة من صمت، وحجارةٍ حفرت عليها الأيادي أسماء الراحلين، تبدأ الحكاية...
حكايةُ رجلٍ كان يحلم... وزيتونةٍ كانت تنتظر.

فمن قال إنّ الشجر لا يحنّ؟
ومن قال إنّ الأرض لا تحفظ الوعود؟

الجزء الأول: الخطوة الأولى نحو الحلم
(هروب الفجر، الغرس الأول، لقاء الرجل بالأرض)

كان الفجر ينسلّ من بين جفون الليل كهمسة خجلى، حين دفع باب البيت الخشبي بصمت، وانزلق إلى الخارج، متخففاً من صخب العالم وأثقاله. خطواته لم توقظ العصافير النائمة بعد، ولا أيقظت الأبواب القديمة التي اعتادت أن تصرخ مفاصلها. حمل معوله العتيق تحت ذراعه، وسحب بيدٍ أخرى حزمةً خضراء، كانت تنبض بالحياة: غراس زيتون فتية، تشبه الحلم حين يولد بين يدي عاشق.

كان شكله أشبه برجل يعود من حربٍ طويلة لا أحد يعرف خفاياها، يحمل فوق كتفيه غبار السنين وكدمات القلب وخيبات العمر. ظهره محنيٌّ قليلاً، كأنه يحني قامته احتراماً لهذه الأرض التي لم تخنه يوماً. وجهه الذي لفحته الشمس، كان صامتاً، لكن عيناه كانتا تهمسان بكل شيء: بحبٍ دفين، بحنينٍ موجع، برجاءٍ أخضر لا يموت.

سار إلى الحقل البعيد، كأنما يقصد معبداً مقدساً، كل خطوة له كانت صلاة، وكل نسمةٍ تمرّ على وجنتيه كانت تذكاراً لعمرٍ مضى. كان الحقل ينتظره كما تنتظر الأم طفلها الغائب، بأشواكه الطويلة المدببة التي نمت وكأنها أسنانُ زمنٍ متوحشٍ يحرس ذكرياتٍ غطاها التراب. لم يخفْ؛ كانت الأشواك مجرد حراسٍ منهكين، يئسوا من طرد من يحبون هذه الأرض بصدق.

حين وصل، وضع المعول جانباً، وجثا على ركبتيه، كمن يعقد صلحاً مع التراب. تناول الغرسة الأولى، قلبها بين يديه بحنان، وكأنها طفل وديع، ثم بدأ يحفر. كل حفرةٍ كانت رسالةً غامضة يبعثها إلى الأجيال القادمة: "هنا مررنا... هنا أحببنا الأرض كما تحب الأم طفلها اليتيم."

الريح داعبته، حركت أطراف ثوبه، وعبثت بشعره المموج، كانت كأنها تراقصه، مثلما تراقص الريح دوار الشمس، يترنح ولا يسقط، يقاوم بساقٍ هشٍّ ولكنه ممتلئ بالعزم. هو أيضاً كان يتمايل مع رياح الزمن، لكنه لم ينكسر، لم يسقط، جذوره ضاربة في تربة الذاكرة.

غرس زيتونة تلو الأخرى، وكلما أنزل حفنة تراب حول جذعها الندي، كان كأنه يسدّ شقوق الحزن في قلبه. لم يكن يغرس أشجاراً فقط، كان يغرس أحلاماً، قصائد، أغنياتٍ لم تولد بعد، وكان التراب يتلقفها بشغفٍ مثلما تتلقف الروح دعاء المحبين.

بدا الحقل له كبحرٍ ممتدٍ بلا ضفاف، تحرسه أشواك الذكريات لا جدران السجون. بين كل شجيرةٍ وشجيرة، كان يلمح وجوه الغائبين: أبيه الذي رحل دون وداع، أمه التي انتظرت الربيع الأخير، وإخوته الذين تفرقوا بين المنافي مثل أوراق الخريف.

الشمس مالت نحو كتفه، تغمره بدفءٍ حنونٍ يشبه اعتذار السماء عن قسوة الأيام. توقّف قليلاً، مسح جبينه، ونظر إلى الغراس المصطفة في التربة الطرية. ابتسم. شعر أن شيئاً داخله انتعش، كمن استعاد اسمه بعد أن ظلّ سنوات ينادى بالخطأ.

في آخر النهار، عندما بدأت العصافير تنفض عنها النعاس، عاد أدراجه، يجر خطاه فوق دروبٍ معبّدة بالرضا. لم يكن مجرد فلاحٍ عاد من حقله، بل كان رسول الأرض، سفير الأشجار، حامل الحكايات المخبأة في جذور الزيتون.

وخلفه، كانت الريح تحمل أنينه الخفي إلى الأفق البعيد، وكانت الأرض تنام وهي تحتضن غراسه كأنها تحتضن قلباً نابضاً... قلباً ظلّ، رغم العواصف، يغرس أغنيته في الحقول.

وحين عاد أدراجه، كانت السماء قد بدأت تصبغ أطرافها بزرقةٍ داكنة، بين مشارف الغسق والليل. خطواته كانت ثقيلة ولكنها مطمئنة، كأنما كل غرسةٍ تركها وراءه ربطته بخيطٍ سري بالأرض، خيطٍ لا يراه إلا من عرف معنى أن تكون جزءاً من التراب، لا زائراً له.

مرّ بين البيوت الساكنة، حيث الضوء الخافت يتسلل من الشقوق، وحيث رائحة الخبز تسافر من النوافذ لتصافح الليل. ابتسم بمرارة خفية، كان يعرف أن غراس الزيتون التي تركها هناك ستحتاج سنواتٍ طوال حتى تكبر، وربما لن يشهد ثمارها، لكنه لم يكن يزرع لنفسه... كان يزرع لأولئك الذين لم يولدوا بعد، لأولئك الذين سيجعلون من أغنيته صدىً في زمنٍ لم يأتِ بعد.

في بيته الصغير، استقبلته الجدران الباردة، استراح على المقعد الخشبي العتيق قرب الموقد، وراح يتأمل النار الهادئة. كم تشبه النارُ الزيتون! كلاهما يحمل بذرة الدفء وسط قسوة البرد، وكلاهما يحتاج إلى صبرٍ طويل حتى يمنح الحياة نورها.

كانت زوجته قد أعدت له عشاءً بسيطاً: رغيف خبزٍ ساخن، وقطعة جبنٍ مملحة، وبعض الزيتون الأسود. جلس إلى المائدة بصمت، يقطف الزيتونة بإبهامه وسبابته كما لو كان يقطف ذكرى من شجرة بعيدة.

قالت له زوجته بصوتٍ منخفض:

"تغرسُ الزيتون وأنت تعرف أن يديك قد لا تجني ثماره."

نظر إليها بعينين يغشاهما ضوء الحطب، وقال ببساطةٍ تشبه عمق البحار:

"أغرس لأني أؤمن... والأرض تحفظ الوعود، حتى حين نغادر."

ساد صمتٌ دافئ بينهما، صمتٌ لم يكن عزلةً بل كان لغةً أخرى لا يتقنها إلا من عرف عشق الأرض. من بعيد، كان نباح الكلاب الريفية يختلط بأصوات الريح التي تجتاح السفوح، كأن الكون كله يتهيأ لليلةٍ طويلة.

تسلل النوم إلى جسده المتعب، لكنه قبل أن تغمض عيناه، لمح في خياله صورة الحقل في الغد: غابات صغيرة من الزيتون، وأطفال يركضون بين الجذوع، يضحكون، يغنون، وربما... يغرسون أحلامهم في الأرض كما غرسها هو اليوم.

في الحلم، رأى الحقل وقد صار وطناً صغيراً، لا تحرسه الأشواك، بل تحرسه أغنيات العابرين، ورأى وجهه على جذع زيتونة عجوز، محفوراً مع كلماتٍ بالية لا يمحوها الزمن:

"مرّ من هنا... رجلٌ أحبّ الأرض حتى صارت تنبض باسمه."

وفي الصباح، حين عانقت الشمس التلال الذهبية، استيقظ وحده، وسمع صوت الريح يعزف على نافذته لحناً مألوفاً. قام متثاقلاً، تناول معوله من جديد، وحزمةً أخرى من الغراس، ومضى إلى الحقل...

فالذين اختاروا أن يكونوا ظل الأشجار... لا يملّون السفر إلى الأرض

الجزء الثاني: جذورٌ تنمو في الغياب
(سكون الحقل، انتظار الأرض، نمو الأشجار مع الزمن)

مضت السنوات، وتعاقبت الفصول على الحقل كما تتعاقب الأحلام في قلبِ شاعرٍ غريب. الشتاءاتُ الطويلة بللت جذور الزيتون، والصيفُ اللاذع قسا على الأوراق، لكن الغراس صمدت، كما يصمد الحبُّ في قلوب العاشقين الذين لا يملكون إلا الإيمان زاداً.

كبرت أشجار الزيتون، وأخذت تتشابك أغصانها كأذرعِ إخوةٍ لا يعرفون الفراق. صارت الحقولُ التي كانت يوماً مساحةً من الأشواك، بساتين خضراء تهمس أغصانها بأغاني الرياح القديمة. وفي المساء، حين كانت الشمسُ تودّع التلال، كانت أوراق الزيتون تتلألأ كحباتِ فضةٍ تناثرت على جلد الأرض.

أما الرجل الذي غرسَ أول الغراس، فقد رحل ذات صباحٍ بلا وداع. رحل كما عاش: بصمتٍ، بخطى خفيفة، تاركاً خلفه ظلًّاً طويلاً يمتد بين الأشجار.

مرت أعوام، وجاء جيلٌ آخر، لم يعرف وجهه إلا من الصور الباهتة المعلقة في صدر البيت القديم، ولم يعرف صوته إلا من الحكايات التي كانت العجائز يسردنها عند المواقد.

كان الأطفال يركضون بين أشجار الزيتون كما لو أنهم يركضون في حضن جدٍّ عتيق، يقطفون الزيتون بأيدٍ صغيرة، ويضحكون. وكانت النساء يملأن السلال، وينشدن أغاني غامضة لا يفهمها الصغار، لكنهم كانوا يحفظون لحنها كما يحفظ القلب دقاته.

في يوم قطافٍ مشمس، بينما كانت القرية كلها مجتمعة في الحقل، صعد أحد الصبية فوق جذع شجرة زيتونٍ ضخمة، وصاح ببراءةٍ عالية:

"من غرس كل هذه الأشجار يا جدتي؟"

ضحكت الجدة التي كانت تلمع عينيها مثل برك الماء بعد المطر، وقالت:

"رجلٌ لم يكن يملك إلا يديه وقلبه... لكنه كان يعرف كيف يغرس الحلم."

سأل الصبي بفضولٍ عارم:

"وأين هو الآن؟ هل سيرى أننا نلعب هنا؟"

نظرت الجدة نحو السماء التي كانت تزدحم بالغيوم البيضاء كقطيع أغنام، وقالت:

"إنه هنا... في كل ورقة تهتزُّ مع الريح، وفي كل جذرٍ يعانق التراب. نحن لا نراه، لكنه يرى بنا ما لم يره بعينيه."

ساد صمتٌ جميل، كانت فيه الأرضُ تتنفس، والحقول تبتسم، والأحلام تزهر في قلوب الصغار.

وفي مساء ذلك اليوم، اجتمع أهل القرية تحت الزيتونات العتيقة، أوقدوا ناراً صغيرة، وجلسوا يغنون أغنية قديمة، كانت كلماتها مبعثرة بين جيلٍ وجيل، لكنها كانت دائماً تبدأ بعبارة واحدة محفوظة:

"في أرضنا... حيث يغرسُ العابرونُ وجوههم في جذوع الحلم، يولدُ الغدُ من رمادِ الرحيل."

وتراقصت ظلال الأشجار على الأرض، كأن الأرواح القديمة تشاركهم الرقصة، تضحك معهم، تبكي معهم، وتهمس للأرض:
"لا تخشي الغياب، فكل من أحبّكِ... قد عاد إليكِ يوماً."

الجزء الثالث: حين تصير الذاكرة وطناً
(الأسطورة، الحفل، غرس الجيل الجديد، ولادة الحلم المتجدد)

مرت عشرات السنين.
تبدلت الوجوه، وذبلت الأيدي التي كانت تقطف الزيتون، وجاء زمنٌ جديد، يحمل وجوهاً شابةً لا تعرف القصة إلا كحكاية تروى قرب المدافئ في ليالي الشتاء الطويلة. لكن بين الأشجار، كان ثمة شيءٌ باقٍ، شيءٌ لا يُرى، لكنه يُحَسّ كما يُحَسُّ الدفء في عظم العاصفة.

صاروا يسمون الحقل "بستان العائد"، ولم يكن أحد يمر من هناك دون أن يتمهل لحظة، كأنما يستأذن روحاً قديمة ما تزال تتجول بين الجذوع.

في كل موسم قطاف، كان الأطفال يُروْنَ قصة الرجل الذي غرس الحلم، ويتخيلونه شيخاً طاعناً يمشي بعصاه بين الصفوف، يربّت على الأشجار كأنها أولاده. البعض منهم، حين تغفو القرية تحت الثلج، كان يقسم بأنه رأى بين الضباب ظلاً يتنقل بين الأشجار... ظلًّا لا تلمسه الريح، ولا تحجبه العتمة.

كبرت الأسطورة.

وصاروا يقولون إن الزيتون هنا لا يُصاب باليباس، وإن كل من يغرس غرسةً في هذا البستان، تهب له الأرض سراً لا يفهمه إلا العاشقون: صبراً يشبه الجبال، وحباً يشبه البحر.

وفي أحد الأيام، اجتمع شيوخ القرية وشبابها عند مدخل الحقل. قرروا أن يقيموا حفلاً صغيراً؛ لا لقطاف الزيتون فقط، بل للاحتفال بالذاكرة، بالوفاء، ولغرس جيلٍ جديد.

نصبوا عند بوابة البستان حجراً كبيراً نقشوا عليه عبارةً مقتبسة من أغاني القرية القديمة:

"هنا... زرع رجلٌ شجرته، وسقاها بيده، ومضى. لم ينتظر الثمار، لكنه تركها لنا... وطناً، وظلاً، وحلماً لا يموت."

وقف أحد الشيوخ عند الحجر، مرتدياً عباءته العتيقة، وقد بدت عيونه كأنها مرآة للأزمنة التي مرت. قال بصوتٍ أجشّ، تحمله الرياح إلى كل شجرة:

"الناس تمضي، والزمن يمضي، لكن الأرض تحفظُ من عشقها. هنا لا نموت... هنا نصير زيتونة."

بكى بعضهم بهدوء، وضحك آخرون فرحاً، بينما كانت أغصان الزيتون تتمايل فوق رؤوسهم كأنها تصفق لهذه اللحظة.

وفي غمرة الاحتفال، رفع أحد الصبية غصن زيتونٍ صغيراً نحو السماء، وقال ببراءة وكبرياء:

"سأغرس شجرتي أنا أيضاً... سأزرع مثل ذاك الرجل."

ضحك الشيوخ، وتبادلوا نظراتٍ تقول أكثر مما تقول الكلمات.
ففي كل زمن، ثمة من يحمل المشعل، وثمة من يواصل الغرس، لأن الحلم الذي يسقيه العابرون بالحب، لا يعرف الموت.

وهكذا... في ظلال الزيتون، حيث التقت الأرواحُ بالحكايات، صار الرجل الذي تسلل إلى الحقل ذات فجرٍ بعيد، أسطورةً لا تموت، وشجرةً لا تسقط.

لأن الحب حين يتجذر في التراب...
يصبح وطناً.

الجزء الرابع: الذين يزرعون قلوبهم لا يغيبون
(همسات الريح، عودة الظل، استمرار الأمل)

في آخر المساء، حين تخبو الأصوات، وتذوب الشمس خلف التلال كشمعةٍ ودّعها العاشقون، يبقى الحقل هناك...
ساكناً كقلبٍ يتعبد في صمت، تهمس أغصانه بأغنيةٍ لا يسمعها إلا من غسل قلبه بالحنين.

لم يكن البستان مجرد أشجارٍ تنمو، ولم تكن الحكاية عن رجلٍ رحل ذات فجرٍ بعيد...
كانت الأرض نفسها قد احتفظت بصوته، بدفء يديه، بوهج الخطوة الأولى حين اخترق السكون وسار صوب الحلم.

وفي الليالي الهادئة، حين يعبر النسيم، وتتمايل أغصان الزيتون ببطء، يحلف العابرون أنهم يسمعون وقع أقدامٍ خفيفة بين الغراس، كأن الأرض تعيد سرد القصة لكل من جاء بعده.

لأن الأرض تعرف...
أن الذين يزرعون قلوبهم فيها، لا يغيبون.

يتركون ظلالهم في جذوع الزيتون، وملامحهم في حفيف الأوراق، وأسماءهم في ذاكرة الريح.

وهكذا... ظل "العائد" يمشي، بين شجرةٍ وشجرة، يربّت على الأغصان برفق، ويهمس للتربة بسرٍّ قديم:

"كل حبٍّ يُزرع هنا... لا يموت."

ثم ينصتُ، مبتسماً، وهو يرى الأمل يُزهِرُ مجدداً في عيون الصغار.

حين بكى الحنين في دفاتر الغريب

في مساءٍ شتويٍّ هشّ، كانت السماء تشبه جفناً متعباً أثقلته الذكرى، يغلق على الحنين ويغري العتمة بالبكاء. الريح تمشط شَعْر الليل المبعثر، والسكون يشبه صدفةً بحرية علقت في مهبّ الريح، تصدر حفيفاً خافتاً كأنها تستغيث. وفي زقاقٍ منسيّ على هامش المدينة، جلس رجلٌ على حافة الليل، يحتسي صمتاً دافئاً من فنجان الانتظار. لم يكن يشرب القهوة، بل يجرّع ذكرياته مع كل رشفة. وعلى الطاولة، تئنّ الأوراق القديمة تحت وطأة اليد، كما تئنّ الأرواح حين لا تجد من يسمعها.

أمامه تمتد الطرقات كوشمٍ باهتٍ على جلد الذكرى، كل بلاطة تُشبه خطاً قديماً من رسالة لم تكتمل. السماء النيلية المثقوبة بالنجوم بدت كجراحٍ مضيئة، تنزف نوراً ولا تبوح، وكأنها تعرف كل شيء، لكنها آثرت الصمت.

كان القمر متدلياً في السماء كعنق أمنيةٍ لم تكتمل، يراقب من عليائه الأزليّ هذا الكائن المتعب الذي ضلّ الوطن، وضاع منه الأمان كما تضيع قطرة ندى على جبين صخرة. ذلك الغريب، لم يكن عابراً... بل كان عائداً من خرافة النسيان، محمّلاً بجراح لا تُرى، وصوتٍ داخليّ يُشبه أنين من لا يملك حقّ البكاء.

في ذلك الزقاق الضيّق، لم يكن ثمة من يسكن الليل سواه... إلا ريحٌ تمشي بتؤدة عجوزٍ عمياء، تتلمّس الوجوه، وتقلب الأوراق اليابسة، كما يقلب الغريب وجوه الأيام في غربته الطويلة. كانت الريح تشبهه: لا أحد يراها، لكنها تمرّ على كل شيء.

لا شيء يُنبت هنا سوى الحنين، ولا يُثمر سوى الانتظار. كل الأشياء كانت جامدة، لكنّها تحمل في طيّاتها أرواحاً قديمة: الجدران البكماء، الباب نصف المغلق، الكرسي المائل في زاوية الشرفة، ظلّ الغريب الممدود على الأرض كراية لا ترفرف، وصوت قلبه ينادي ولا يُجاب.

كانت ليلة بلا دفء، بلا طمأنينة، بلا وجهٍ يعرفه، ولا رائحةٍ تُعيده إلى صدر أمه. ومع ذلك، كان فيها شيءٌ من الجمال الغريب... جمال الانكسار، جمال العتمة حين تُنيرها الذكرى، وجمال أن يبقى الإنسان واقفاً رغم أن غربته تعوي داخله كذئبٍ جائع.

في صباح اليوم التالي، استيقظ الغريب على طرقاتٍ خفيفة على الباب، كأن الحياة تتردد في الدخول إلى غرفته. فتحه، فلم يجد أحداً. فقط ورقة صغيرة عُلّقت بمسمارٍ صدئ على الخشب القديم، مكتوب عليها بخطٍ مائل:

"مرحباً بك، أيها العائد بصمتك... نحن لم ننسَ."

لم يكن هناك اسم، ولا توقيع. ومع ذلك، شعر بشيءٍ يتحرك في صدره... نبضٌ صغير، أو بقايا صوتٍ قديم يُوقظ فيه تلك الذاكرة البعيدة.

خرج إلى الشارع. الأشياء ذاتها التي كانت بالأمس صامتة، بدت له اليوم وكأنها تُحييه بطريقتها: العتبات، النوافذ، حجارة الطريق، حتى الهواء نفسه بدا وكأنه يتعرّف على أنفاسه من جديد. مرّت بجانبه عجوز تجلس أمام دارٍ تقابل مسكنه، رمقته بنظرةٍ طويلة، وقالت بصوتٍ مُتهدّج:

– "كبرتَ كثيراً يا ابن عائشة... كبرت، لكن ملامحك كما هي."

اقترب منها، وانحنى على يدها المرتعشة:

– "أعرفكِ... كنتِ تحكين لي القصص حين أهرب من المدرسة."

ابتسمت ابتسامة من يذرف دمعةً دون بكاء:

– "كنتَ تقول إنك ستكتب عنّا ذات يوم... فهل فعلت؟"

خفض عينيه وقال بصوتٍ مكسور:

– "كتبت... لكنّي لم أرسل. ولم يقرأ أحد."

ومنذ ذلك الصباح، صار الغريب يمشي في أزقة الطفولة كما يمشي في حديقةٍ من الأحلام المكسورة. لم يكن يمشي فقط... بل كان يفتّش عن نفسه في ملامح الجدران، في زجاج النوافذ المتربة، في بقايا عباراتٍ محفورة على مقاعد المدرسة.

الناس بدأوا يتعرفون عليه، تارةً عبر النظرات، وتارةً عبر الذكرى. لم يكن هو ذاته، لكن الحنين كان جسده الثاني. ومع كل خطوة، كان شيئاً من الغربة يتساقط عنه. لا ليزول، بل ليصبح أقل وجعاً، أقل صمتاً، وأكثر احتمالاً.

وفي كل ليلة، كان يعود إلى غرفته، لا لينام، بل ليكتب. لا ليقرأه أحد، بل ليعيد ترميم نفسه. يكتب رسائل طويلة، يطويها ويضعها تحت الوسادة، كأنها رسائل إلى الغائب الذي يسكن داخله.

وفي ليلةٍ باردة، جلس قرب مدفأته الصغيرة التي أشعلها من ذكرياته، وتمتم:

– "ربما لا يُشفى الغريب أبداً... لكنه يتعلم كيف يتنفس دون أن يختنق."

أخرج صورةً قديمة من جيبه: طفلٌ يضحك بين أحضان أمه. قبّلها، وقال:

– "هذا كنتُ أنا... قبل أن أعرف معنى الرحيل."

وذات مساء، طرق بابه طفلٌ صغير لا يتجاوز العاشرة. قال بخجل:

– "أمي قالت إنك تحكي عن الذين رحلوا... هل تحكي لي قصة؟"

ابتسم الغريب وأجاب:

– "بل أكتب عن الذين عادوا... ولم يجدوا أنفسهم، فقرروا أن يخترعوها من جديد."

جلس الطفل بقربه، وقال ببراءة:
– "احكِ لي عن الغربة."

نظر الغريب إلى الدفتر، ثم إلى الطفل، وبدأ:

– "كان يا ما كان، في قديم الزمان، رجلٌ غريب ظنّ أن الغربة هي البُعد عن الوطن، حتى عرف أن الغربة الحقيقية... هي أن يعود، فلا يجد أحداً يذكر اسمه... سوى دفتره."

ومنذ تلك الليلة، لم يعد الغريب غريباً. صار الناس يأتون إليه، لا ليسمعوا الحكايات فقط، بل ليقولوا له:

"نحن لم ننسَ... كنا ننتظرك."

وصار اسمه يُتداول همساً بين الأرواح:

"ذاك الذي عاد من الغربة... لا ليبحث عن نفسه، بل ليُعيد للبلدة ذاكرتها."

وفي ليلةٍ من ليالي الشتاء، حين التصق الصقيع بزجاج النافذة كما يلتصق الحنين بالقلب، كتب آخر سطر في دفتره:

"أحياناً، لا نعود لنبقى... نعود لنُصلح كسور القلب، ثم نرحل من جديد... لكن هذه المرّة نعرف إلى أين."

أغلق دفتره، وتركه مفتوحاً على الطاولة. وفي الصباح، لم يجده أحد.

لكنهم وجدوا على الوسادة ورقةً بيضاء، كُتب عليها بالحبر الأزرق:

"عدتُ بما يكفي... لأغفر، وأمضي."

ومنذ ذلك اليوم، ظلّت غرفته تعبق بدفءٍ خفيف، وظلّ الناس حين يمرّون من تحت نافذته، يهمسون للريح:

"الغربة ليست نهاية... بل بابٌ آخر، لمن يجرؤ أن يدخل."

"وراء الحمير"

في قرية نائية، تحت سماءٍ لا تعرف إلا الصمت، وبين أحضان جبلٍ شاهق وأوديةٍ عميقة، كانت حياة الناس تسير على وتيرة واحدة، كأن الزمن تجمّد عند مشهدٍ لا يتغير. كان الماء، ذاك المورد الحيوي، بعيداً عن القرية، على مسيرة ساعاتٍ من السير، في طريقٍ تلتف عبر منعرجٍ حاد يطل على هاويةٍ مظلمة لا يُرى قاعها، لكن يسمع فيها صدى السقوط، صدى أولئك الذين لم يعودوا.

في كل صباح، مع طلوع الشمس، كان الأطفال والكبار، ومعهم حميرهم المثقلة بالجرار، يبدؤون رحلتهم اليومية نحو العين البعيدة. خطوةً إثر خطوة، كأن الزمن لا يعرف إلا التكرار. لكن ذلك المنعطف لم يكن مجرد انحناءة في الطريق، بل كان حارساً صامتاً لأرواحٍ اختفت في صمت، طُفت صورهم على جدران القرية كأحلامٍ لم تكتمل. سقطواً هناك... مع الحمير... ولم يعودوا إلا كحكاياتٍ تُروى بنبرةٍ مملوءة بالحزن.

مرّت سنوات طويلة، وتحوّلت الحوادث إلى مجرد ذكرياتٍ باهتة، كأنها قصص تسمع ولا تُحس. الكل يمشي في الطريق ذاته، خلف الحمير، كأنهم أسرى عاداتٍ لا تفكر، ووجوهٌ محمّلة بالهموم، لكنها لا تسأل.

وفي يومٍ من أيام الخريف، اجتمع شيوخ القرية في بيت الشيخ العجوز، ذلك البيت الذي شهد مئات الأحاديث القديمة. جلسوا علّهم يجدون في صوت الحكمة مخرجاً من التيه.

تقدّم من بينهم شابٌ صغير، يحمل قلماً وقلباً يتّقد فضولاً، وسأل بجرأة:
— لماذا لا نسلك طريقاً آخر؟
هل هناك دروب أخرى؟ لماذا لا نحاول؟

ضحك بعضهم ساخرين، وكأنّه قال شيئاً غريباً لا يُقال. ثم أجاب رجلٌ مسنٌّ، بصوتٍ مُنهك:
— نحن نمشي خلف الحمير... هي تعرف الطريق... ونحن فقط نتبعها.

لم تكن تلك الجملة إجابة فحسب، بل كانت اعترافاً مريراً. كيف لأمة أن تعيش في أسر طريقٍ لا تعرفه؟ كيف ترضى أن تسير خلف من لا يُبصر؟ لم تكن الحمير مجرد حيوانات، بل كانت رمزاً للتقليد الأعمى، لعاداتٍ تكبّل العقل، وتمنع الناس من رؤية الحياة من زوايا جديدة.

كان ذلك الجواب كالصاعقة في روح الشاب، ولم يكن إلا حقيقةً قاتلة:
إننا نختار الخطر لأننا نخافه،
ونتمسك بالجمود لأننا نخشاه،
ونرضى بالألم اليومي لأننا فقدنا القدرة على التفكير، وعلى التمرّد.

ساد صمتٌ ثقيل. الجميع يلتقط أنفاسه بين الحيرة والأسى. والشيخ العجوز أدار نظره إلى الأفق، حيث كانت الشمس تذوب في حضن الجبل، وقال بهدوء:
— ليس كل من يسير أمامنا يعرف الطريق،
— وليس كل ما اعتدناه صواب.
— التفكير... هو طريق النجاة.

مرت الأيام، وتغيّرت رياح القرية شيئاً فشيئاً، كأنها تستجيب لصوت تلك الكلمات التي تناثرت في أزقة الحكايات القديمة. أما الشاب، فصار شعلةً تتقد في نفوس الشباب، يحمل دفاتر صغيرة، يدون فيها أفكاراً واقتراحاتٍ جديدة: طرقاً بديلة، حلولاً مبتكرة، وقصصَ نجاح من القرى المجاورة.

وفي أحد صباحات الربيع، قرروا أن يخوضوا التجربة للمرة الأولى، أن يتركوا أثراً على منعرج الموت، ويبحثوا عن دربٍ جديد. تجمعوا أمام الحقول، بينهم من تردد، ومن تشجّع، ومن ارتاب، لكن صوت الشاب كان كجرسٍ يقرع في أعماقهم:
— لننقذ أطفالنا... ولنَحْيَ نحن قبلهم.

ساروا... لم يكن الطريق سهلاً. الأرض قاسية، والتلال شاهقة، لكن مع كل خطوة، كان الأمل ينمو، وفي كل نظرة إلى السماء، كانت الشمس تبتسم لهم كأنها تمنحهم بركتها. ووجدوا دروباً صغيرة تمر بها الغزلان، كأن الطبيعة نفسها قد أرشدتهم، فقط لأنهم أصغوا إلى صمتها.

عادوا في المساء لا يحملون الماء فحسب، بل يحملون في قلوبهم مزيجاً من الفرح والرهبة والاعتزاز، لأنهم كسروا حاجز الخوف، وتحرروا من عبودية "أن نمشي خلف الحمير". كانوا يدركون أن الطريق الجديد لا يُولد دفعةً واحدة، لكنه يُرسم خطوةً بخطوة، وأن مصير القرية قد بدأ يتغيّر.

وفي تلك الليلة، جلس الشيخ العجوز يبتسم للمرة الأولى منذ سنين، وقال بصوتٍ مفعم بالفخر:
— يا أبناء القرية... لم تعودوا أتباعاً، بل صرتم أبطال قصّتكم.
لم تعد العادة سلطاناً، بل صار العقل هو القائد.

تسلّل شعاع القمر فوق الجبال، وأضاء الدرب الجديد الذي خطّه أهل القرية بأيديهم. لم يكن درباً للماء فقط، بل للحياة، للحلم، للحرية.

وفي عمق ذلك الطريق، تعلّموا درساً لا يُنسى:
أن الخطر الحقيقي... هو أن تستمر في السير خلف من لا يُبصر،
وأن الشجاعة ليست في أن تمشي فقط،
بل في أن تسأل، أن تُفكر، وأن تُغيّر.

وهكذا، تغيّرت القرية، وتغيّرت معها أرواح أهلها. صاروا رمزاً لمن يرفضون الجمود، ويكسرون قيود العادة، ويسيرون نحو نور الوعي، رغم كل العواصف.

كانت حكاية "الحمير" تلك، ليست قصة حيواناتٍ تمشي، بل مرآة لنا جميعاً، نراها في تقاليدنا، في عاداتنا، في أفكارنا التي نسير خلفها، دون أن نسأل:
هل هذا الطريق هو حقاً طريقنا؟
وهل نسير خلف الحمير... أم خلف أملٍ جديد نرسمه بأيدينا؟

ديبو وليلة العاشق المتكبر

كان الليلُ غافياً فوق كتف الجبل، والقرية ترقد كحُلمٍ نسيه الزمان على طرف السهل. من علٍ، بدت كأنها بقعةٌ من ترابٍ مقدّس تبرعم فيها الصمت. لا أعمدةَ كهرباء، ولا أسلاكَ تشقّ السماء، لا شيء سوى خيامٍ من وبر، وقبابٍ من طينٍ مخلوطٍ بعرق النساء وأغاني الجدّات.

في ذلك الفصل، بداية الربيع، كانت الأرض لا تزال ترتجف من بردٍ ما بعد المطر، والريح تهمس بأسماء الراحلين. كان الناس يُشعلون سراجاً صغيراً، يُغذّونه بدهون الغنم ، فيبثّ ضوءاً ضئيلاً كدمعةٍ خجلى على خدّ العتمة. وكانت نار الجِلّة تشتعل بهدوء في الزاوية، تلك الأقراص المصنوعة من روث الحيوانات المجفف، تُضيء الخيمة بضوء خافت، وتنبعث منها دفء خجول، كأنها أنفاس الأرض التي تحتضننا بصمت.

القرية تتدحرج من سفح جبلٍ صغير، وتتكئ على سهلٍ فسيح، حيث تمتدّ الحقول كأذرعٍ مفتوحة نحو السماء، والسماء تلبس ثوباً من نجومٍ مشروخة، كأنها تُضمّد جراحَ الليل.

في تلك القرية ولد ديبو.

شابٌ فقير، كأن الحياة نسيت أن توزّع عليه شيئاً من الحظ أو الملبس، أو حتى النظرة الكريمة من الناس. كان يرتدي ثياباً مرقّعة بلون التراب، وحذاءً مصنوعاً من بقايا جلدٍ عتيق، وخطواته تشبه خُطى غزالٍ جريح: وئيدة، خجولة، صادقة.

لكنه كان يحمل في قلبه شيئاً لا يُشترى في الأسواق: الحُب.

كان يحبّ فتاةً من قريةٍ جارة، عيناها كقهوةٍ مرّةٍ في صباح الشتاء، واسمها... عائشة.

ابنةُ أحد وجهاء المنطقة، فتاةٌ تربّت على سماع خوار البقر أكثر من أصوات الرجال، وعلى قراءة الطالع في خطوط الكفّ أكثر من قراءة الكتب. لكنها كانت ذكيّة، تتوقد في عينيها شرارة لا تخفى على شاعر، أو عاشق، أو حتى مجنون.

لكن بين ديبو وعائشة، جدارٌ اسمه: الفقر.

في ليلةٍ باردة، دُعي ديبو إلى بيت والد عائشة ضيفاً. تقاليد الضيافة في البوادي لا تُناقش، حتى الفقير يُكرَّم إن جاء زائراً، يُمدّ له الفراش، وتُسكب له القهوة، ويُقال له: "بيتنا بيتك، وخيمتنا عتبك."

لكن تلك الليلة لم يكن ديبو وحده.

كان ثمة ضيفٌ آخر، شابٌ بلباسٍ ناصع، طقمٌ أبيض، وعقال، وشماغ معطّر. رجلٌ يفيض الغنى من ملامحه، ويقطر الفخر من لسانه، لا يتكلم إلا عن نفسه:

– "ركبتُ فرساً لم يطأها غيري، ونازلتُ الذئب في قلب الصحراء، وأكلي لا يكون إلا على الذهب، والجنّ، إن سمعوا صوتي، ارتعدوا."

كان يقصد بعُجبه أن ينال إعجاب عائشة، التي كانت تستمع من خلف ستار الخيمة، دون أن تُبدي شيئاً.

أما ديبو، فكان صامتاً. عيناه على عائشة، وقلبه يشتعل غيرةً من ضيفٍ يبدو أن لديه كل شيء... ما عدا الذكاء.

قال المتبجّح وهو ينفث دخان غليونه:

– "الجنّ؟ أخاف منهم؟ أنا؟ أنا يا سادة، إن رأوني ولّوا فراراً، وإن مررتُ بهم، اختبأوا في أعمدة التراب."

ابتسم ديبو ابتسامةً ماكرة وقال:

– "لا تشتمْ الجنّ يا رجل... إنهم يسمعون، ولا يحبّون من يسخر منهم، خاصّةً في الليل."

ضحك الغني وقال:

– "فليأتوا إن أرادوا! سأُريهم مَن أنا."

ردّ ديبو بنبرةٍ غامضة:

– "قد يزورونك الليلة... الجنّ لا يحبّون المترَفين."

ضحك الجميع، إلا ديبو. كان ينسج خطةً في عقله، وقد أعدّ لها كل شيءٍ في صمته.

في منتصف الليل، حين خمد السراج، وسقط الجميع في سُباتٍ عميق، تسلّل ديبو من فراشه، خلع ثيابه حتى بقي كما خلقه الله، كتم أنفاسه، وسار بخفةِ قطّ بريّ نحو فراش ضيف الطقم الأبيض.

بأصابعه الباردة، مرّرها على وجه الرجل، خفيفةً كهمسةِ جنيّ، كأن الليل نفسه يُمرّر عليه لعنة.

فتح الغني عينيه في رعب، وتمتم:

– "أعوذ بالله... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!"

وبعد دقائق، عاد ديبو ثانية، كرّر فعلته، همس بأصواتٍ غريبة، ثم اختفى.

ومع تكرار اللمسات الغامضة، صرخ الغني في الظلمة:

– "يا جنّ... دخيلكم! لا تقتلوني! سأترك العجب والفخر... أرجوكم!"

قفز من فراشه، لكن ديبو كان ينتظره. أمسكه من قدميه، وسحبه كما يُسحب مذنبٌ خائف، وجرّه إلى حظيرة الأبقار، حيث الروث والدخان، ورماه وسط الروث الأخضر، وهو يصرخ بجنون:

– "أقسم لن أتكبّر بعد الآن! دخيلكم... دخيلكم يا أهل الهوى!"

استفاق أهل البيت، ركضوا نحو مصدر الصوت، ليجدوا الضيف المعطّر بين الأبقار، يصرخ ويهذي، وثيابه البيضاء تحوّلت إلى لوحةٍ من العار.

أما ديبو، فعاد إلى فراشه، ارتدى ثيابه، وأغمض عينيه كأن شيئاً لم يكن.

وفي الصباح الباكر، حين نثر ضوء الفجر ذراته الذهبية فوق سقف الخيمة، غادر الغني بلا وداع، كظلّ زائل لا يُثقل الذاكرة سوى بحذاءٍ وحيدٍ ملوّثٍ برائحة الخوف والذل، تركه خلفه على الأرض كما تُترك الذكريات الباهتة، كأنما غادر حياته هو قبل أن يغادر المكان. ذلك الحذاء، الشاهد الصامت، حمل بصمات سقوط الكبرياء الذي لم يُدرِ أن مصيره المحتوم كان هذا.

أما عائشة، فقد مرت عليها الأيام كأنها موسم تغير فيه كل شيء، وتركت في قلبها مساحة واحدة لا تتبدل، صورة محفورة بوضوح لا يزول: ديبو، ذاك الشاب البسيط الذي لا تزينه المجوهرات ولا تلمّع ثيابه، لكنه كان أغنى من كل من اعتلى مرتفعات التفاخر، صادقاً كنسمةٍ عليلةٍ بين شواطئ القفار، ماكراً بحبٍ لا يُقاس بالمال ولا بالسلطان، بل بحكمة تملكها الأرواح التي تُحبّ حقاً.

وعندما قررت عائشة أن تخطو خطوة العمر، وافقت أن تكون مع ديبو، رغم كلّ ما قيل، ورغم أن والدها ما زال يحمل همّ الخوف من الفقر والحياة التي قد تأتي معه.

قال لها والدها بصوتٍ مثقل بالتردد والحذر:
– "لكنّه لا يملك شيئاً... سوى ثيابه المرقّعة، وقلبه الفقير."

فابتسمت عائشة، وكانت كلماتها كالسهام التي تقطع ظلال التشاؤم:
– "بل يملك قلباً لا يُشترى، ومكراً يُخيف الجنّ، وحباً لا يعرف القيود ولا الحساب."

وبذلك، تمت مراسم الزواج بين ديبو وعائشة، لتبدأ قصة جديدة تنسجها الأقدار بخيوط من الإخلاص والذكاء، قصة تتحدى فيها الروح الفقرَ وتتغلب على الكبرياء الزائف، قصة رجلٍ حمل بين ضلوعه وطنه الصغير، وحبّ امرأة كانت أعظم من كل الكنوز التي لم يعرفها العاشق المتكبر.

عيناها لا تنامان

الفصل الأول: ظلال الشرفة القديمة

كانت الريح تهمس في زوايا الحيّ العتيق، تلامس النوافذ الخشبية كما لو أنها تطرق أبواب الذكريات المنسية؛ لا تستأذن الدخول، بل تنفذ مثل طيف حبيبٍ نُسي اسمه، لكن بقي عطره عالقاً على أطراف الستائر.

في ذلك المساء، كان كلُّ شيء يوحي بأن شيئاً غير مرئيّ يزحف بين الجدران، شيئاً يشبه الحنين حين يتسلّل خفيةً دون أن يطرق باب القلب.

وكان المساء يتكئ على كتف جبلٍ بعيد، يراقب المدينة من علٍ كسيدٍ مُتعب، يترك الشمس تتوارى تدريجيّاً خلف أغصان اللوز اليابسة، كأن النهار يتوسّل إلى الظلمة أن تُمهله لحظة أخيرة، أو لعلّه يعرف أن الليل في هذه البلدة ليس مجرّد غيابٍ للضوء، بل متحفٌ للأرواح المعلّقة.

في بيتٍ منسيٍّ عند حافة البلدة، كان الزمن يمشي على رؤوس أصابعه.
شرفةٌ قديمة مائلة قليلاً، كأنها أُنهكت من ثقل السنوات، تطل على طريقٍ ترابيّ ضاق بصمت العابرين. لم يكن أحد يرفع رأسه حين يمرّ من هناك، فالبيت نفسه بدا وكأنه يحتفظ بسرٍّ لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه.

وعلى تلك الشرفة، جلست نيرفانا.
بثوبٍ أبيض طويل يشبه ضوء القمر حين ينعكس على صفحة نهرٍ ساكن، وشالٍ رماديٍّ يحيط بكتفيها كظلٍّ ناعم من أيامٍ مضت دون أن تودّع.
يداها مطويتان في حجرها، أما عيناها... فكانتا مفتوحتين على وسعهما، لا تحدقان في شيء محدد، بل في كلّ شيء دفعة واحدة، كما لو كانتا تحاولان تذكّر العالم قبل أن يولد.

"لماذا لا تنامين، نيرفانا؟"
سألتها الجدة، وهي تجرّ قدميها المثقلتين نحو كرسي القش المجاور، وبدت خطواتها مرهقةً كأنها تسير على صفحة زمنٍ يذوي، وكان في صوتها نبرةٌ مبلّلةٌ بتعب الحكمة.

لم تلتفت نيرفانا مباشرة.
تركت السؤال يسبح لحظةً في الفراغ، كأنها تزن وزنه في قلبها، ثم ابتسمت... تلك الابتسامة التي لا تخصّ الأحياء كثيراً، بل تخصّ من غادروا إلى جهة الغياب، وبقوا عالقين في زوايا الذاكرة.

"لأنّ الليل وحده... يصدقني حين أحكي له."

قالتها بهدوءٍ يشبه الكشف.

كأنّ النهار، في عرفها، متّهمٌ بالكذب، وأنّ الضوء لا يجيد الإصغاء للقلوب التي تنزف دون صوت.

حدّقت الجدة في وجهها، تبحث عن صدعٍ في صمتها، عن ثغرةٍ تكشف هذا التيه النبيل الذي يسكن نظراتها.
لكنها لم تجد سوى نهرٍ ساكن من الحزن، وجمرٍ يتوهّج دون أن يُرى له دخان.

كانت عينا نيرفانا ترفضان أن تُغلقا؛ ليس لأن النوم مستحيل، بل لأن الحلم أصبح خيانة.
فكلّما حاولت أن تغمض جفنيها... رأته.
رأته وهو يركض وسط الدخان، يحاول أن يفتح باباً مغلقاً.
رأته وهو يختفي بين اللهب، ويده لا تزال ممدودة كأنّه يريد أن يأخذها معه.
ومنذ تلك الليلة... لم تكن قادرة على الإغلاق.
كأنّ جفنيها موصولان بروحه، وكأنّ النوم فصلٌ أخير لا تريده أن يُكتب.

في ذلك الحيّ، لم يكن أحدٌ يفهم نيرفانا.
بعضهم قال: إنها فقدت عقلها.
وبعضهم قال: إن الليل خطبها، ولم ترفض.
لكن الجدة وحدها كانت تُدرك... أن هناك أرواحاً لا يُداويها الزمن، ولا يُنقذها الصباح، لأن وجعها لا يختبئ في الذكريات، بل يسكن المستقبل... في انتظار شيء لم يأتِ بعد.

وكانت نيرفانا، كل مساء، تفتح عينيها كما لو كانت تقيم حراسةً لأملٍ لا تعرف شكله، تنظر نحو الطريق الترابيّ المظلم، كمن ينتظر رسالةً من المجهول، أو عودةً من عالمٍ لم يعد يؤمن به أحد.

في عينيها، كانت الحرب مستمرّة.

وفي صمتها...
كانت القصيدة تُكتب دون حبر، وتُقرأ دون صوت، وتبقى.

الفصل الثاني: الحريق

قبل خمس سنوات، كانت الحياة تمضي برتابةٍ محبّبة في بيت نيرفانا.
كانت فتاةً تُشبه الربيع حين يتأخر قليلاً، ضفائرها تتأرجح مع الريح، وعيونها تضحك قبل أن تتحرك شفتيها.
تملأ المكان بصوتها الطفولي، تغني وهي تكنس الحديقة أو ترشّ الماء على التراب، تحكي للزهور الصغيرة عن أحلامها، وتضحك حين يغمرها والدها بمزاحه الذي لا يعرف التكرار.

كان البيت آنذاك يعجّ بالحياة:
الأم في المطبخ تُعدُّ العشاء، تنادي من خلف البخار، والأب يرفع ابنته على كتفيه، يعدو في أرجاء الحديقة كطفلٍ يلهو، والأصوات... كانت كثيرة، دافئة، مألوفة، كأنّ البيت يتنفس، ويتكلّم، ويغني معهم.

لكن كلّ هذا... كان قبل تلك الليلة.

ليلةٌ شتوية، بدا فيها المطر كأنّه يتواطأ مع القدر، يقرع الأسطح والنوافذ كقلبٍ خائفٍ يدقّ في العتمة. البرق يشقّ السماء بومضاتٍ مفاجئة، والرعد يتلوه كأنّه نداء من عالمٍ آخر.

كانت نيرفانا تقرأ قصةً صغيرة تحت ضوء مصباحٍ خافت، حين سمع الجميع صوتاً غريباً... انفجارٌ خافت، ثم رائحة غاز، ثم...
نار.

بدأ كل شيء من المطبخ.
ربما شرارة، أو غفلة، أو خلل في المدفأة.
اشتعل الستار أولاً، ثم قفز اللهب إلى الطاولة، ثم إلى الخزانة، ثم... أصبح كل شيء يشتعل، كما لو أن الحريق لم يكن ناراً، بل كائناً حيّاً، يزحف في البيت بجوعٍ شيطاني، يبحث عن الهواء ليكبر، وعن الوجوه ليبتلعها.

صرخت الأم، حاولت سحب نيرفانا من يدها، لكن الدخان كان أسرع، والنار كانت أوقح من أن تنتظر.

أما الأب، ذلك الرجل الذي كان يحميهم بابتسامته، فاندفع كجدارٍ بشري وسط النيران.
دخل ولم يخرج.
نداؤه الأخير كان اسم نيرفانا، ويده التي امتدت في العتمة اختفت، كأنها سُحبت إلى عالمٍ آخر.

وحين أفاقت نيرفانا، كانت على الأرض خارج البيت، المطر يغسل وجهها، والدخان يتصاعد من خلفها، والناس يركضون، والماء يُسكب، والصراخ يملأ المكان.

لكنّ صوتها لم يخرج.

منذ تلك اللحظة...
سكتت نيرفانا.
كأن لسانها احترق مع أول جدارٍ انهار، وكأن قلبها انفصل عن الزمن.

لم يبقَ من العائلة سوى هي، وذاكرةٌ لا تحترق.

تقول الجدة إنها لم تبكِ، لم تصرخ، لم تسأل عن أحد.
فقط فتحت عينيها، وظلّت تحدّق في بيتٍ لم يعد بيتاً، في رمادٍ كانت فيه أمها، وأبوها، والدفء.

ومنذ تلك الليلة... لم تُغمض عينيها. ليس لأن النوم مستحيل، بل لأن فيه خيانة.

النوم يعني أن توافق على أن العالم مستمر، أن ما مضى قد مضى، وأن الأحلام قادرة على التعويض.

لكن نيرفانا كانت تعرف أن لا شيء يعوّض.
الحلم كذبةٌ ملوّنة، والنوم إغلاقٌ للنافذة التي قد يعود منها من تحب.

قالت يوماً، بصوتٍ خافت كأنها تحدث ظلها:
"حين أُغمض عينيّ، أراه يختفي من جديد."
"أراه يركض، يحاول أن يصل إليّ، لكنني لا أتمكّن من الإمساك بيده."
"وحين أفتح عينيّ... لا أراه، لكنني أشعر أنه ما زال يحاول."

صارت نيرفانا تمشي في البيت بصمتٍ يوقظ الأحزان. تجلس في الزاوية ذاتها، تحدّق في اللا شيء، وتنام أحياناً بعينيها مفتوحتين، كأنها تخاف أن يُغلق الباب مرةً أخرى... دون عودة.

قالت الجدة ذات مساء، وهي تراقبها من بعيد:
"الفتاة تلك... لم تنم منذ خمس سنين." "لكن ما يُرهقها ليس الأرق... بل الانتظار."

كانوا يقولون إن الحريق قتل أهلها. لكن الحقيقة الأعمق: أنه قتل الزمن داخلها.
كل من نجا في تلك الليلة... عاد ليعيش، إلا نيرفانا، عادت لتنتظر.

ومنذ تلك الليلة، صارت عيناها حارستين على جمرٍ لا يخمد، وصار الليل مرآتها الوحيدة. عيناها... لم تُغلقا، لأن الجرح لم يُغلق.

الفصل الثالث: عيناها تراقبان الغياب

مرّت السنوات كما تمرّ الريح على الحجارة القديمة:
لا تغيّر هيئتها كثيراً، لكنها تترك أثراً لا يُرى بالعين، بل يُلمس في النفس.
وكبرت نيرفانا... دون أن تنتبه.
كبرت كما تكبر الأشجار المهملة في أطراف الحقول، لا أحد يسقيها، ولا أحد يقطعها، فقط تواصل النمو في صمتٍ عنيد، كأنها تؤمن بأن الظلّ أيضاً شكلٌ من أشكال الحياة.

طال شعرها حتى صار جديلةً من الصمت، يتدلّى على ظهرها كحبلٍ يصلها بزمنٍ لم يعد موجوداً، وخفتت خطواتها شيئاً فشيئاً، حتى صار مشيها أشبه بعبور طيف، كأنها لا تريد أن توقظ أحداً... أو شيئاً... أو حتى ذاكرة.

كانت تمشي بين الناس كظلٍّ يبحث عن صاحبه، لا تشتبك نظراتها بأحد، لكنّ كلّ من التقت عيناها بعينيه... بقي صوته يتردّد داخله طويلاً.

في السوق، كانت العجائز يتهامسن:
"تلك الفتاة... تنظر إلينا كأننا نبتعد عنها، كأنها تراقبنا من مستقبلٍ لم نصل إليه بعد."

أما الأطفال، فكانوا يخافون من عينيها، ليس لأن فيهما قسوة، بل لأنهما تشبهان شيئاً لا يُفهم.
كانوا يقولون:
"حين تنظر إلينا، نشعر أن شيئاً فينا ينكشف."
"كأنّ عينيها تعرفان ما نخفي، وتغفرانه دون أن نطلب المغفرة."

عيناها لم تعودا مجرد نافذتين على العالم، بل صارتا كالبئرين العميقين؛ كلّ من تجرأ ونظر فيهما، رأى وجهه على حقيقته، ورأى الماء في داخله، ورأى العطش أيضاً.

وذات صباحٍ غائم، دخل الحيّ شابٌّ غريب، يحمل حقيبةً سوداء، ونظرة شاعرٍ نُفي من كتابه، ووجهاً بدا كأنه التقى بالحياة كثيراً... ولم يتفقا.

كان اسمه رَوناك، وفي عينيه شيءٌ من الرجال الذين يسيرون بعيداً عن الجموع، وفي خطواته ارتجاف العائدين من هزيمةٍ لم يُعلن عنها أحد.

توقّف عند مفترق الطريق، أخرج ورقةً من جيبه، نظر فيها، ثم تطلّع إلى البيوت المتجاورة، لكنه لم يحتَجْ كثيراً إلى السؤال... كانت عيناه قد وقعتا عليها.

نيرفانا، كانت جالسةً على الشرفة كعادتها، بثوبٍ أبيض لم يتغير، كأنها تحتفظ به كوسيلةٍ للحفاظ على طقوس الانتظار، وشالٍ رماديّ يغطي كتفيها كأنّه يدفئ ما لم تعد تُحسّه.

رآها... فتوقّف.
لم تكن جميلةً بجمالٍ صاخب، لكن ملامحها بدت كأنها نُحتت من شجنٍ قديم، كأنها لا تنتمي إلى اليوم، بل إلى يومٍ آخر لم يأتِ بعد.

حدّق فيها كمن يرى شيئاً حلم به طويلاً دون أن يعرف اسمه.
وقال في نفسه:
"تلك العيون... لا تشبه أحداً. إنها لا تنام، لأنها تنتظر شيئاً أعمق من الأحلام. إنها تفتحُ الباب على اتساعه، لكنها لا تخرج."

ومنذ تلك اللحظة... تغيّر شيءٌ في داخله. لم يعرف ماذا، ولا لماذا. لكنه شعر أن الحقيبة التي يحملها على ظهره صارت أثقل، وأن اسمه، الذي ردّده مراراً للناس، فقد بعضاً من صوته أمامها.

وقف طويلاً، ثم تابع طريقه ببطءٍ، كأنه يخشى أن يوقظ شيئاً قديماً. لكن في عينيه... بقيت صورتها. كأنها لم تُخلق لتُنسى.

وفي قلبه...
بدأت قصيدةٌ لم تكتب بعد.

الفصل الرابع: الحوار الذي لم يكتب

في اليوم التالي، عاد روناك إلى الحي، وكأنّ قدميه تعرفان الطريق قبل أن يقرر الذهاب، يحمل في داخله فضولاً لا يشبه العابرين، بل يشبه أولئك الذين يجدون في النظرة الأولى بداية كتاب لا يستطيعون التوقف عن قراءته. توقف عند البيت العتيق، ورفع رأسه نحو الشرفة، فوجدها هناك، كما كانت في الأمس، كأنها لم تتحرك منذ ذلك اللقاء، وكأن الليل توقف كي لا يغادرها وحدها. رفع يده بتحية خفيفة، تشبه اعتذار الغريب الذي اقترب أكثر مما ينبغي، فبادلته نيرفانا بابتسامة خفيفة بلا صوت، ابتسامة لا تشبه التحيات، بل تشبه انفتاح نافذة داخلية في جدارٍ لا يثق كثيراً بالناس.

قال روناك بصوت هادئ: "أنا روناك، أبحث عن بيتٍ للإيجار في هذا الحي، هل تعرفين أحداً؟" فنظرت إليه لبرهة، ثم أجابت بنبرة رتيبة، كأنها تقرأ من ذاكرة لا تخصها: "البيوت هنا فارغة... مثل الأرواح التي هجرتها." بدت عبارتها كما لو أنها خرجت من كتابٍ نُسي على رفٍّ بعيد، لكنها لم تكن مصطنعة، بل نابعة من مكانٍ لا يجرؤ الكثيرون على الاقتراب منه. سألها بدهشة خفيفة، امتزج فيها الفضول بالحذر: "وأين ذهبت الأرواح؟" فردّت دون تردد: "نامت باكراً، ولم تستيقظ."

شعر بشيء يهتز داخله. لم يكن إعجاباً سطحياً بجمالٍ غامض، بل انجذاباً إلى صوتٍ يتحدث بلغةٍ يعرفها قلبه منذ زمن. ومنذ ذلك اليوم، صار يمرّ يومياً قرب البيت، يجلس أحياناً على الدرج الحجري، يحدثها عن الكتب التي قرأها، عن المدن التي زارها والتي لم تشبهها أي مدينة، وعن الشعراء الذين كتبوا للحزن أكثر مما كتبوا للحب. كانت تُنصت له دون أن تقاطعه، تنظر إليه أحياناً، وأحياناً إلى الأفق، كأنها تُنصت لما لا يقال. وكان يدرك أن وجوده هناك لم يكن عبثاً، وأن شيئاً بينها وبينه يُكتب بصمت.
وذات مساء، حين طال بهما الصمت، قال لها: "حين أراكِ، أشعر أنني أمام صفحة بيضاء، لا أجرؤ على الكتابة فوقها." نظرت إليه نظرة عميقة، ثم قالت: "البياض الحقيقي لا يكتب عليه، بل يقرأ منه." صمت بعدها، ولم يكن لديه رد، لكنه شعر أن قلبه بدأ يكتب ما لا تستطيع يده صياغته.
وفي إحدى الليالي، حين هدأ كل شيء من حولهما، وحين بدا أن الليل وحده من بقي يستمع، سألها برقة حقيقية: "لماذا لا تنامين، نيرفانا؟" فأجابت بهدوء، لا يشبه اليأس ولا يشبه الأمل: "لأن أحدهم ربما سيعود، وأريد أن أكون أول من يراه." لم يكن في صوتها ضعف، بل نوع من الوفاء الذي لا يقبل التفاوض، وفاءٌ لا لوجهٍ محدد، بل لذكرى لم تتوقف عن التنفس داخلها.
ومنذ تلك الليلة، لم يعد رَوناك غريباً عن المكان، لكنه بقي غريباً عما في داخلها. لم يسألها عن الماضي، ولم تسأله عن المستقبل. فقط جلسا معاً، يتبادلان الصمت، ويتقاسمان غياباً لا يعرف اسمه. وكل مساء، كان يشعر أن الحكاية التي تجمعهما لا تحتاج إلى كلمات، بل إلى بقاء.

الفصل الخامس: الرحيل الذي لم يحدث

كانت السماء تلك الليلة بلون الغياب، رمادية، كأنها لا تنتمي إلى ليلٍ ولا إلى نهار، بل إلى حافة زمنٍ توقف بين نفسين. الريح مرّت على الحيّ بهدوءٍ غريب، تلامس الجدران كما لو أنها تتحسس ذاكرةً لم تغلق بعد، وتسرق من الشرفات أنفاساً مؤجلة.

في ذلك المساء، جلس رَوناك على الدرج الحجري، يضمّ حقيبته إلى صدره كما لو أنها صندوق أسراره الأخيرة. ظلّ صامتاً طويلاً، يحدّق في الشرفة حيث جلست نيرفانا، كما اعتادت، بجسدٍ هادئ، وعينين مفتوحتين على مجهولٍ بلا اسم. بدا كأنهما تجاوزا الحديث وتخطّيا الحاجة إلى الكلمات، فكلّ ما بينهما بات مشتركاً: الحزن، الصمت، والتلكؤ في الزمن.

لكنه في تلك المرة لم يأتِ فقط ليجلس. أخرج من الحقيبة دفتراً صغيراً، طواه على عجل كمن يخفي شيئاً عزيزاً، ثم قال بصوتٍ خافت:

"كتبت لكِ شيئاً... لا أعرف إن كان يصل، لكنه يشبهني حين أفكر بكِ."

فتح الورقة، وقرأ بصوتٍ يرتجف قليلاً:

عيناكِ لا تنامان، ليس خوفاً من الكوابيس،
بل لأنكِ الكابوس الجميل الذي لم يكتمل.
أنتِ المرآة التي كسرتني،
فجمعتُ شظاياي لأراكِ كاملة.

حين انتهى، لم تجبه نيرفانا على الفور. كان الصمت بينهما أكثر بلاغة من أي ردّ. ثم حدث ما لم يتوقعه: لمعت في عينيها دمعةٌ خفيفة، لم تكن بكاءً حقيقياً، بل كأنّ روحها نفسها استسلمت للحظة ضعفٍ لم تخطّط لها. كانت تلك أول دمعة تظهر في عينيها منذ سنوات، وربما منذ ليلة الحريق.

قالت بصوتٍ شبه هامس، كأنها تخشى أن توقظ شيئاً دفنته طويلاً:
"أحبك يا رَوناك... لكني لا أستطيع أن أحبك كما يستحق قلبك."

لم يكن في نبرتها قسوة، بل حزن صافٍ، كحزن من يعرف أنه لم يُخلق ليُحب، بل ليحرس الحب من بعيد.

أخفض رَوناك رأسه، تنفّس بعمق، ولم يظهر خيبة، بل فهم. فهم ما لم يقل، وما لن يقال.

هي لم تكن له، لا لأنها لا تريده، بل لأنها لم تعد تملك نفسها لتعطيها لأحد. لقد خُلِقَت من الذاكرة، لا من الحاضر. من الشرفة، لا من الطريق. من الانتظار، لا من الوصول.

قالت بعدها، وهي تحدّق في الأفق بصوتٍ مبحوح:
"أنا لا أنتظر رجلاً يا روناك... أنا أنتظر شيئاً لم يعد له شكل. ربما أبي، ربما لحظةً من طفولتي، وربما نفسي التي اختبأت في مكانٍ ما حين اشتعلت النيران."

ثم أضافت بابتسامة لا تشبه الفرح:
"أنا حارسة الغياب، ولا أحد يقع في حب الحارس."

سكت طويلاً، ثم قال، دون أن يلتفت إليها:
"كنت أعلم هذا من البداية... لكني أردت فقط أن أكون شاهداً على الضوء، ولو من بعيد."

قام، حمل حقيبته، ثم توقف عند أول درجة في الطريق، التفت ببطء. كانت لا تزال تنظر إلى الأفق، كما لو أن حضوره لم يُحدث أي تغيّر.

لكن الحقيقة... أنها لم تعد كما كانت.

في عينيها، تلك الليلة، سكن شيءٌ جديد: رَوناك نفسه. ليس كحبيب، بل كذكرى طازجة وسط حطام الذكريات القديمة.

ولم يرحل.

لم يستطع.

ظلّ يأتي إلى الشرفة كل مساء، لا ينتظر منها شيئاً، لا حباً، ولا كلمات، بل فقط حضورها. ونيرفانا، وإن لم تقل له يوماً "ابقَ"، لم تطلب منه الرحيل.

كانا يجلسان معاً كنجمتين لا تقتربان، لكنهما تضيئان الليل ذاته.

في قلب رَوناك، كان يعرف: هذه ليست قصة حب، بل قصة روحين التقتا في المنفى ذاته، واكتفيتا بأن تكتبا معاً فصلاً لا ينتهي.

فـ"الرحيل"... لم يحدث.

لأنه حين التقى غريبان في حضرة الحزن، اختار كلّ منهما أن يكون وطناً للآخر... بصمت.

الفصل السادس: العيون التي لم تغمض

كان الصباح بارداً على غير عادته، والريح تحمل في طياتها صوتاً يشبه التأوّه، كما لو أنّ السماء نفسها كانت تتمتم بحزنٍ لم يجد بعد من يفهمه. في الحيّ العتيق، اعتاد الجيران أن يروا نيرفانا كلّ صباح، جالسةً على شرفتها بثوبها الأبيض، تنظر إلى الأفق كما لو أنّها تحرس وعداً لا يأتي. لكنها في ذلك اليوم... لم تتحرّك.

مرّت الجارة العجوز أولاً، وألقت التحية كما اعتادت، لكنها لم تتلقَّ ابتسامة، ولا حتى إيماءة بالرأس. توقّفت لحظةً، ثم اقتربت بخوفٍ غريزيٍّ من الباب. طرقت... ثم طرقت ثانية. لا صوت.

في دقائق معدودة، تجمّع الجيران. أحدهم دفع الباب بخفّة، فانفتح دون مقاومة. لم يكن في الداخل ما يوحي بحدوث فاجعة: لا صراخ، لا فوضى، لا علامات ذعر، فقط الصمت... صمتٌ كثيف، كأنّه جدارٌ من الهواء الرماديّ.

وجدوها هناك، نيرفانا، جالسةً كما اعتادت، على كرسي الشرفة الخشبي، يداها مطويتان في حجرها، جسدها مستقيم، وشالها الرماديّ يغطي كتفيها، تماماً كما كانت تفعل كلّ يوم. لكن شيئاً واحداً فقط كان مختلفاً.

عيناها.

كانتا مفتوحتين كما اعتاد الجميع أن يراها، لكنهما هذه المرة لم تكونا تراقبان الطريق، ولا تتبعان الغياب، ولا تفتشان عن أحد.
بل كانتا تحدّقان في نقطةٍ لا تُرى، كأنّهما تنظران إلى الداخل لا إلى الخارج.

اقتربت الجدة العجوز منها ببطء، وضعت يدها على كتفها، وهمست باسمها:
"نيرفانا..."
لكن نيرفانا لم تُجب. لم ترفّ جفنُها، ولم تتحرّك شفتاها. عندها، أدرك الجميع... أن نيرفانا قد رحلت.

لكن الأغرب... أنها لم تسقط. ظلّ جسدها مستقيماً، وعيناها مفتوحتين كأنّها لا تزال تنتظر شيئاً لا يعرفه أحد. لم تكن ميتةً كما يموت الآخرون، لم تستسلم للنوم الأخير كما يستسلم البشر. كانت، ببساطة، قد غفت روحها... لكن عيونها ظلّت على العهد.

جاء الطبيب بعد قليل. فحصها، ثم قال بهدوءٍ يشبه الهمس، كأنّه يخشى أن يزعجها:
"توقّفت عن الحياة منذ ساعات... لكنها لم تغلق عينيها."

منذ ذلك اليوم، تغيّر الحيّ.
تحول البيت الذي كانت تسكنه إلى مكانٍ يشبه المزار. صار الغرباء يأتون من أحياء أخرى، يسألون عن "الفتاة التي لم تغمض عينيها حتى بعد الموت". كانت النساء

يأتين بصور الأحبة الذين فقدوهم، ويتركنها على عتبة الشرفة. وكان الشعراء يقفون أمام الباب، يتأملونه طويلاً، ثم يكتبون شيئاً لا يُفهم. وكان الأطفال، رغم خوفهم، يشيرون إلى الكرسي ويتمتمون:
"إنها لا تزال هناك..."

ولم يجرؤ أحد على إزاحة الكرسي.
تركوه في مكانه كما كان، وفي كلّ مساء، حين تبدأ الشمس بالغروب، يُخيّل للناس أن ظلاً خفيفاً يجلس هناك... ظلٌّ لا يتحرّك، لكنه لا يغيب.

وفي المدينة، انتشرت الحكاية. قيل إن نيرفانا لم تكن امرأة، بل فكرة. قيل إنّها لم تمت، بل تحوّلت إلى ذاكرةٍ جماعية، إلى مرآةٍ لكلّ من فقد، ولكلّ من ينتظر، ولكلّ من لم يعد يعرف كيف يحلم.

وصار البيت رمزاً.
صار مكاناً يذهب إليه من أرهقه الصراخ، ومن لا ينام، ومن لم ينسَ بعد، ومن يشعر أن قلبه لا يعيش في زمنه.
كانوا يقفون هناك، صامتين، يتمتمون كما لو أن صوتهم يصلها:
"عيناها لا تنامان... حتى حين غفت الروح."

وهكذا، بقيت نيرفانا، رغم رحيلها، تمشي بين الأرواح، لا على قدميها، بل بعينيها المفتوحتين.
تقول لكل من مرّ من هناك:
"الحبّ ليس أن تنتظر من تحب...
بل أن تبقى العين يقِظةً... حتى لو لم يأتِ."

لأنّ هناك من لا يُنتَظَر ليعود، بل يُنتَظَر... كي لا يُنسى.

الفصل السابع: الدفتر الذي وجد بعد الغياب

بعد أشهرٍ من رحيل نيرفانا، ظلّ البيت كما هو؛ شرفته صامتة، وكرسيها في مكانه، كأن الزمن قرر ألا يمرّ من هناك بعد الآن. ظلّ المارّون يتوقفون أمام الباب، بعضهم يتمتم، بعضهم يبكي، وبعضهم يكتفي بالصمت. أمّا رَوناك... فلم يُرَ منذ أيام.

ظنّه البعض غادر المدينة بهدوء، كما جاء. وقال آخرون إنه اختفى كما يختفي الشعراء حين يكملون قصيدتهم الأخيرة. وحدها الجدة العجوز، التي كانت تمرّ كل صباح، شعرت أن شيئاً ناقصاً... أو على وشك أن يُقال.

وذات صباح، بينما كانت تكنس عتبة البيت، وجدت شيئاً غريباً تحت كرسي الشرفة، مغلفاً بقطعة قماش رمادية ومربوطاً بخيطٍ أحمر باهت. فتحته ببطء، ويداها ترتجفان كأنها تمسك بقلبٍ لم يعد ينبض، لكنه ما زال دافئاً. كان دفتراً بسيطاً، بلا عنوان، لكن أولى صفحاته كتبت بخطٍ مائل:

"إلى من علّمتني أن الانتظار يمكن أن يكون حياةً كاملة."

كان دفتر رَوناك.

صفحةً تلو أخرى، بدأت الحكاية تروى من الجهة الأخرى، الجهة التي لم تعرفها نيرفانا، ولا أحد من أهل الحي. كلماتٌ كُتبت في الظل، في الليالي التي جلس فيها على الدرج يتأملها بصمت، خواطر، أسئلة، وانكسارات صغيرة لم يُفصح عنها.

كتب:

"كل مساء، أجلس قرب الشرفة، وأتساءل: هل ترى نيرفانا أنني هنا لأجلها؟ أم أنني مجرّد ظلٍ عابرٍ في طقوس انتظارها؟"

"عيناها لا تبحثان عن أحد، بل ترفض أن تنساه. وأنا... أحاول أن أكون ممرّاً لذكراها، لا عقبة في طريقها."

"قلت لها يوماً: (أنا لا أريد أن أغيّرك، بل فقط أن أكون شاهداً على ثباتك). ابتسمت، كأنها فهمت أنني لن أطلب منها ما لا تستطيع منحه."

"ذات مساء، أمسكت بيدي فجأة، دون سبب. كانت يدها باردة، لكنها قبضة من نور. ثم تركتني دون أن تنظر. وفهمتُ أنني كنت لحظةً عابرة في فيلمها الطويل."

لكن أكثر الصفحات ألماً كانت تلك التي كتبها قبل أن يختفي:

"غداً، إن لم تريني، فهذا لا يعني أنني غادرتك. بل يعني أنني اختبأتُ في إحدى الصفحات التي لم تفتحيها بعد من ذاكرتك."

"أعلم أنكِ لن تغمضي عينيكِ حتى بعد الموت، ولهذا، سأغمض عيني نيابةً عنك، لعلّ الحلم يصلني بدلاً عنك."

"الناس يموتون حين تنسى حكايتهم. وأنا أكتب... كي لا تموتي."

وفي الصفحة الأخيرة، لم يكن هناك تاريخ، ولا توقيع، فقط جملة واحدة:

"حين تنامين أخيراً، سأكون على الجانب الآخر من الحلم... أنتظر."

انتشر خبر الدفتر في الحي كما تنتشر القصص النادرة. صار الناس يتلون صفحاته كما لو كانت صلاة. بعضهم نسخها وعلّقها على الجدران، وآخرون وشموا منها سطوراً على أجسادهم.

وصار يقال إن الحبّ الذي لا يتحقق، لا ينتهي.
وأن هناك نوعاً من الوفاء... لا يحتاج إلى مقابل.
وأن اللقاء لا يكون دائماً وجهاً لوجه، بل أحياناً...
عيناً تقرأ ما كتب بعد الغياب.

مرآةٌ تسكنها امرأة

أعود إلى البيت في ساعةٍ متأخرة، والمدينة تطفئ أنوارها واحداً تلو الآخر، كما لو كانت تخلع قميص الليل ببطء، وتتهيأ للعُري في حضن السكون. الشارع خالٍ إلا من ظلّي الذي يتثاءب على الإسفلت البارد، كأنه تعب من مرافقتي طوال النهار. خطواتي تنقر الرصيف بكعبي العالي، فتتناثر الأصوات في الأزقة كحبات زجاجٍ مكسور، وكل جدارٍ يرمقني، وكل نافذةٍ تحفظ عني شيئاً... ربما اسمي، وربما حزني المضمور في الكعب.

أصلُ الباب، أخلع كعبي كما تخلع الأنثى كبرياءها خفية، وأدخل على رؤوس أصابعي. ليس لأنّ أحداً ينتظرني، بل لأن طيف أبي لا يزال يحرس هذا البيت من خلف الظلال، كتمثالٍ أبديٍ للحنان والصرامة معاً.

أبي... الذي مات منذ سنوات، لم يرحل تماماً. لا يزال يجلس على تلك الأريكة البنيّة التي لم تتبدّل، يمسك صحيفة لا يقرؤها، ويرفع حاجبه الأيسر كلما فتح الباب متأخراً، كما لو أن الزمن توقف في تلك اللحظة.
ما زال صوته يحاصرني، كأنه صوت اللهب وهو يهمس في موقد الشتاء:
– "أيُّ ساعة هذه يا ابنتي؟ الليل للسكينة، لا للتسكع."

لكنني الآن أعيش وحدي... لا يسكنني سوى الذكريات، وأبي، لا يسكن إلا في قلبي... ومع ذلك، لا يزال غضبه يوجعني.

أدلف إلى غرفتي، أُضيء مصباح الطاولة الخشبي الذي يشبه نَفَساً دافئاً في ليلٍ بارد، وأتأمّل وجهي في المرآة. لم أتجمل كثيراً؛ فقط مررتُ أحمر الشفاه كمن يرسم جرحاً صغيراً لا يريد له أن يلتئم، وضفرت شعري كما تفعل الفتيات اللواتي يخفين الحنين في ضفائرهنّ، كأنّ كل خصلةٍ هي خيطٌ من خيوط الانتظار.

وهناك... في عمق الزجاج، يسكن رجل.

يهمس لي في كلّ مرّة أقف فيها أمام المرآة:
– "كلّما نظرتِ إلى نفسك، ابتسمي... ابتسمي لي، وتذكريني. فأنا من يراكِ قبل أن تتجمّلي وبعد أن تتجمّلي، ويحبك في الحالتين."

سألته مرّة، وأنا أضع الكحل على جفني المرتجف:
– "من أنت؟"
قال:
– "أنا الرجل الذي ترك العالم وسكن مرآتكِ... لا لأقول إنكِ أجمل نساء الكون، بل لأنكِ المرأة الوحيدة التي أردت أن أعيش حياة انعكاسها."

ضحكتُ حينها، فتردّدت الضحكة في الزجاج، وقالت لي المرآة بصوتٍ يشبه صوتي حين أحب:

– "حين تحب المرأة، تصير سربَ نساء."

فكرت... كم امرأة أنا في داخلي؟
التي ضحكت في وجه الحياة يوماً، والتي بكت في حضن المقاهي، والتي ارتمت في آخر عناقٍ كمن يتشبّث بشرفة النجاة، والتي انتظرت رسالة لم تأتِ.
كم قطعةً سأصير إن كسرت؟
وكم امرأة تنهض من رمادي وتعود إليّ دون أن أطلبها؟

في المساء الآخر، كنت على شاطئ "بويرتو" البعيد، أجلس مع رجلٍ لا يعرف لغتي، ولا أعرف لغته، لكنّ الشمس كانت تفهمنا معاً. تركنا القصيدة تمرّ بيننا كما يمر النسيم بين نخلتين... لا يراهما أحد، لكنهما تتهامسان في وضح الضوء.

قال لي:
– "اقتربي، لا أثق بالهواء."
اقتربت، فوضع يده على صدري، وقال:
– "أريد أن أقول أحبكِ مباشرةً في قلبك."

ضحكتُ بخجل، وقلت له:
– "وجهي لا يستطيع أن يوقف الحرب، لكنّه يبعدها قليلاً عن قلب من يحبني."

في باريس... عند السادسة صباحاً، أحببت فقط أن ألتفت إلى الوقت هناك، رغم أنّني لست هناك. أحببت الفكرة، أحببت أن أعيش زمناً لا يخصّني، أن أتنفس دقيقةً من حياة لا تشبهني. تلك عادةٌ سيئة من عادات الشعراء: يوقظون الوقت من نومه، لا ليعيشوه... بل ليكتبوه.

في الصباح، أفتح النافذة.
تمرّ نسمةٌ باردة، فأشعر بها تغمر وجهي كأنّ أحداً مدّ يده إليّ.
يدٌ أعرفها...
يدٌ قرأتُ عليها يوماً ملامحي، وخريطتي، وطرقات احتمالاتي، وانتظاراتي المتأخرة.
يدٌ امتدّت ففتحت باباً في داخلي لم يُغلق بعدها.
فأنا... كلما لمستني تلك اليد، نسيتُ كل شيء... إلا قلبي.

في غرفةٍ صغيرةٍ يسكنها ضوءٌ خافت، ما زالت المرآة تحتفظ بذلك الرجل.
يكتب لي شعراً لا يعرف أنّه شعر، يقول:
– "أنا لا أعرف شيئاً عن الشعر، لكنّي أضع القصائد مثل مكعّبات ثلجٍ على مواضع الألم."

وفي صدري الآن بحيرة.

الساعة تمضي، ولا أحد ينتظرني عند نهايتها.
لكنّي أعود في كلّ ليلة.

أخلع الكعب العالي، أمشي على رؤوس الأصابع، أتفقّد وجه أبي في جدار الذاكرة، ثم أذهب إلى مرآتي... حيث يسكن رجل.

لا يقول لي إنّني جميلة.
بل يقول لي:
– "أنتِ العالم... وأنا اخترتُ أن أعيش في صورته فيكِ."

وكلما نظرتُ إلى المرآة، ابتسمت.
لأنّي أتذكّره...
أتذكّر أنني، حين أحببت، صرتُ مرآةً تسكنها امرأة... ويحبّها رجل، لا يعرف الشعر، لكنه...
يسكن القصيدة.

قُروية من قُورش...
حين تكلمت الجبالُ بلغتها الأم

الفصل الأول: حين تنفّس الجبل

كان العام ١٩٨٦ يهبطُ على الأرض كما لو أنّه سحابةٌ مُتعبة، يجرُّ خلفه ظلالاً مثقلة بالغبار، ويحمل على ظهره صمتاً حجرياً توشوشه الريح في آذان الصخور. في أقصى الشمال الغربي من عفرين، حيث تتكئ قرية "قُورش" على خاصرة الجبل كندبةٍ قديمة نسيتها الخرائط، كانت الحياة تمضي ببطءٍ كثيف، كأنّ الزمن نفسه كان يعجن ساعاته من طين القرية.

الجبال المحيطة بـ"قُورش" لم تكن مجرّد تضاريس... كانت وجوهاً شاهقة محفورة بالعواصف، تفتح عيونها في الليل، وتغمضها حين تشتد الرياح. في تلك الجبال، كانت الأشجار تشبَّه بالمسنين؛ جذوعها منحنية، وأغصانها ترتجف تحت وطأة الحكايات التي تهمس بها الريح من وادٍ إلى آخر. الزعتر البرّي كان ينمو بين شقوق الحجارة كصلاةٍ منسيّة، والريح تمشّط سنابل القمح كما لو أنها تواسيها من تعب الحصاد المتكرر.

وفي حضن هذا المشهد الغارق في الأسطورة، ولدت "هيبت"... لم تكن مجرد فتاة، بل كأن الطبيعة نفسها استعارت جسداً لتجسد سرها. حين أنجبتها أمها، قالت بصوتٍ خفيض، كأنها تسلم سراً للريح:

"هذه الطفلة ليست من الأرض فقط... فيها شيء من الغيم."

عينا "هيبت" كانتا تشبهان العاصفة قبل هبوبها، رماديتين تميلان إلى الأخضر، كأن الغابة، حين تغرب عنها الشمس، تقيم فيهما. كانت تنظر من نافذة الكوخ الطيني نحو الجبل، وكأنها تتبادل معه نظراتٍ لا يفهمها أحد.
قالت ذات مرة، وهي ترسم خطوطاً غريبة على التراب بأصبعها:

"الجبل يتنفس... أسمعه كل ليلة، يزفر حزناً ويشهق نجوماً."

ضحك منها الأطفال، وسخر منها بعض الكبار، لكن أمها كانت تسكت الجميع بعبارة واحدة:

"هيبت ليست كبناتكم... انتظروا، ستكبر الحكاية معها."

كبرت "هيبت"... وكبرت معها الغرابة.
لم تكن تلعب كثيراً. كانت تصنع من الطين وجوهاً، وتدفنها تحت الأشجار، وتهمس لها بكلماتٍ لا تعرف لغتها.
كانت تمشي وحدها بين الحقول، تصغي إلى لغة الريح، وتدس في جيوبها أوراق الزيتون اليابسة كأنها كنوز.

وذات ليلة، رآها والدها تقف على صخرةٍ عالية، والبرق يشقّ السماء خلفها، كأنها ظلٌّ من زمنٍ آخر. لم تصرخ، لم تخَف، فقط رفعت يديها نحو العاصفة وقالت:

"خذيني... أنا أعرف الطريق."

في الصباح، وجدوها نائمةً عند سفح الجبل، تحيط بها دائرةٌ من الحجارة المرتّبة بدقّةٍ غريبة، وفي وسطها زهرةٌ لم يرها أحدٌ من قبل.

منذ تلك الليلة، بدأت القرية تهمس:

"الجبل كلمها... والفتاة فهمت."

تغيّرت "هيبت". كانت تحدّق في الوجوه وتقول كلماتٍ مقتضبة تصيب السامع برجفةٍ خفيّة.
قالت لطفل:

"لا تذهب إلى النهر غداً."
فلم يذهب. وفي اليوم التالي، فاض النهر، وغرق فيه عجلٌ كبير.
وقالت لعجوز:
"لا تحرق الزعتر هذه السنة... دع الأرض تتنفّس."
فأطاعها، وفي تلك السنة امتلأت الحقول بروائح لم تعهدها القرية من قبل.

هيبت لم تكن تتنبّأ، بل كأنّها تُعيد تذكير الأرض بأسرارها المنسيّة.

وفي مساءٍ من مساءات الخريف، حين كانت الشمس تموت خلف الجبل بلونٍ يشبه الدم، وقفت "هيبت" أمام باب كوخها، وقالت لأمّها بهدوءٍ يشبه نبوءة:

"أنا لن أبقى هنا طويلاً... الجبل سيطلبني قريباً."

ثم مشت.
تركت خلفها أثراً من العطر والتراب والدهشة.

ذلك الليل، سمع أهل القرية صوتاً غريباً قادماً من الجبل... كأنّ الأرض تتنهّد.
وفي الصباح، لم يجدوا لـ"هيبت" أثراً.

لكنّهم وجدوا شيئاً آخر...
على الصخرة التي كانت تقف عليها دائماً، ظهرت نقوشٌ لم تكن من صنع يدٍ بشرية.
نقوشٌ تشبه الخطوط التي كانت ترسمها على التراب، لكنها هذه المرة، محفورةٌ في الحجر.
وفي قلبها، وردةٌ من الزعتر البرّي، نبتت وحدها، تشبه "هيبت" في صمتها.

منذ ذلك اليوم، تغيّر اسم الجبل في خرائط أهل القرية.
صاروا يهمسون به بخشوع:

"جبل هيبت."
ويقولون للغرباء:

"هنا، تنفّس الجبل... وولدت الحكاية."

الفصل الثاني: حين تتكلم الجبال

في الليالي التي ترتجف فيها النجوم من بردٍ لم يكتب له اسم، وتتمايل فيها ظلال الأشجار كأشباحٍ تعبت من الحكاية، كانت "هيبت" تصعد وحدها إلى حيث لا يجرؤ أحد على الصعود...

إلى صخرة النبي هوري، تلك الصخرة المعلّقة على كتف الجبل كحكمةٍ منسيّة، والتي يقال إنّ أرواح الأنبياء مرّت بها ذات نشيد، وإنّ في شقوقها أنفاساً قديمة ما زالت تنتظر من يصغي.

كانت تمشي حافية القدمين، كأنّها لا تنتمي لثقل الأرض. خطواتها لا تثير الغبار، بل توقظ ذاكرة الحجارة.
وفي أعلى القمّة، حيث لا صوت سوى الريح تمرّ على عظام الزمن، كانت تقف، تفتح كفيها للسماء، وتُحادث الجبل... لا بخشوع، بل بودٍّ غريب، كما لو كانت تخاطب أباً غائباً منذ بدء الخليقة.

"أخبرني، يا أبي الكبير... أين يُخفي الله أسراره؟"

هكذا كانت تهمس. لا أحد سمع صوتها، لكنها كانت ترسل كلماتها إلى عمق الجبل، والجبل، في المقابل، لم يبقَ صامتاً. كان يتنهّد، يزفر غباراً عتيقاً، وتختلج بعض الصخور كأنها تهمّ بالكلام.

في ليلةٍ بعينها، كان القمر مرهقاً، كأنّه شاهدٌ على ما لا يحتمل. وكانت القرية تغطّ في نومٍ ثقيل، حين حدث ما لم يحدث من قبل.
ضرب البرق قمة الجبل، لا كضوءٍ عابر، بل كأنّه سيفٌ من نارٍ جاء ليوقظ ما سُجِن تحت الحجارة منذ ألف عمر.
تلاه صوت... لا هو رعد، ولا هو زئير. كان صوتاً شبيهاً بالبكاء، لكنه ليس بكاء بشر، بل بكاء أرضٍ تتذكر.
قال الراوي:

"كان الجبل يئنّ... كأنّ ذاكرةً مغلقة قد فُتحت، وأخرجت صرخةً عمرها ألف عام."

في الصباح، تغيّر وجه "هيبت".
عيناها، اللتان كانتا تنظران إلى البعيد، صارتا تنظران إلى الداخل. لم تعد تُحدّث أحداً، لكنها بدأت تكتب... على الجدران الطينية، وعلى أوراق الشجر اليابسة، وحتى على جذوع الزيتون.

كانت تكتب بلغةٍ لا تشبه العربية، ولا الكوردية، ولا أي لسانٍ معروف، لكنها، رغم ذلك، كانت مفهومة...
كأنّها لغةُ الريح حين تمرّ على نايٍ منسيّ، أو لغةُ الماء حين يبكي في جوف البئر.

كل من قرأ تلك الرموز، شعر برجفة.
قالت العجائز:

"لقد مسّها جبل النبي هوري... أخذ منها شيئاً، وأعطاها شيئاً آخر."

وحين سُئلت أمّها:

"ما الذي تكتبه هيبت؟"

أجابت، والدمعة لا تجرؤ على السقوط:

"تكتب ما لم نستطع قوله منذ مئة عام... تكتب وجعنا، لكن بلغة الجبل."

أما الأطفال، فصاروا يخافون منها قليلاً، لكنّهم كانوا يجلسون قرب جدران بيتها في كل مساء، يقرأون الكلمات الغريبة، ويحاولون تقليدها بأصابعهم. وكان بعضهم، حين ينجح، يسمع همساً في أذنه لا يسمعه سواه، ويقال إنّ أحدهم رأى حلماً طويلاً فيه خريطة مصنوعة من ضوءٍ ودم.

وذات مساء، رسمت "هيبت" دائرة على الأرض، وجمعت بعض الحصى، ورتّبتها حول الدائرة بطريقةٍ غريبة. ثم جلست في المنتصف، وأغمضت عينيها، وبدأت تنشد نشيداً لا يشبه أي نشيد.
كان النشيد يخرج من فمها، لكنه لم يكن صوتها.
كان كأنّه قادم من جوف الجبل نفسه... من قلبه العميق، من حكاياته التي لم تُروَ.

وفي تلك الليلة، اهتزّت الأرض... ليس زلزالاً، بل كأنّ شيئاً ما تحرّر. سمع الناس صدى بعيداً في الجبال الأخرى، وكأنها تتجاوب. كأنّ جبل النبي هوري كان ينادي إخوتَه، يخبرهم أنّ الحكاية بدأت.

قالت العجوز "زهرة"، وكانت أكبر من في القرية:

"الجبال لا تتكلّم عبثاً... حين تتكلّم، فاعلم أنّ الأرض تتهيّأ لولادةٍ جديدة، أو لموتٍ كبير."

ومنذ تلك الليلة، لم تعد "هيبت" ابنة القرية فحسب... صارت شيئاً أوسع من الاسم، وأعمق من الحكاية.
صار البعض يجيء من القرى المجاورة ليرى تلك النقوش، ويأخذ حفنة تراب من تحت نافذتها، ويعود وهم يتمتمون:

"إنّها تكتب لغةً للذين نسيتهم الكتب."

أما هي، فكلّما أنهت نقشاً، مسحته بيدها، وهمست للجبل:

"أنا لا أكتب للناس... أنا أُذكرك فقط."

وفي فجرٍ بعيد، قبل أن يستيقظ أحد، رحلت.
ولم تأخذ معها سوى حجرٍ صغير من "صخرة النبي هوري"، وخرقة قماشٍ كتب عليها أول نقشٍ ظهر ذات صيف.

وحين صعدت الشمس، وجد أهل القرية نقوشاً جديدة على الجدران.
لكنّهم هذه المرّة لم يفهموا منها شيئاً...
سوى كلمةٍ واحدة:

الوداع.

الفصل الثالث: حكاية اللغة المنسية

في الزاوية الأقصى من قريةٍ نائمة بين تلافيف الجبل، حيث تنكفئ الشمس باكراً وتبدأ الحكايات قبل حلول المساء، كانت الطفلة "هيبت" تجمع الأحجار كما لو كانت تبني عالماً منسيّاً، أو تستدعي أرواحاً لا تتكلّم إلا بلغةٍ لا أحد يسمعها سواها.

بيدين صغيرتين تعبتا من الحفر في الأرض، كانت ترتّب الحجارة حول زيتونةٍ عجوز، تقف هناك منذ زمنٍ لا يعرفه تقويم ولا يذكره كتاب. دوائر من حجارةٍ سوداء، وبينها خطوط حمراء قانية، ترسمها هيبت بخليطٍ من دَم الدجاج الذي تسرقه خلسة من مطبخ أمها، وماء الطين الذي تقطره من جدران الكهوف. تلك الطلاسم، كانت تراها في أحلامها. تفتح عينيها في الصباح وقد حفرت في عقلها رموزاً لا تُقرأ، لكنها تفهمها. تقول لأمها بصوتٍ يشبه همس النبوءة:

– "هذه لغة الجبل، لغة الذين كانوا قبلنا، الذين تحدّثوا مع الله دون وسيط، وسمعوا صوته حين صمت الجميع."

كانت أمها ترتجف وهي تنظر إلى العبارات التي تكتبها ابنتها على الورق. لا تشبه العربية، ولا الكوردية، ولا أي لغة يعرفها أهل قُورش. حروفٌ مائلة، ملتفّة حول ذاتها، كأنها تتراقص على لحنٍ لا يُسمع. همسات الجبل، كما تصفها هيبت.

لم يصدقها أحد، لكنّهم لم يجرؤوا على تكذيبها أيضاً. بعض النساء قلن إنها مصابة بمسٍّ من الجنّ، وبعض الشيوخ حكّوا لحاهم وقالوا: "ربما هي نبيّة... أو لعنة!"
أما الأطفال، فصاروا يراقبونها من بعيد، لا يجرؤون على اللعب بقرب الزيتونة، ولا على الدوس على الدوائر الحجرية. كانت هيبت بالنسبة إليهم شيئاً بين الخوف والانبهار، بين الجنون والقداسة.

الرجال قالوا كلاماً كثيراً، لكنهم حين مرّوا بجانب بيتها، كانوا ينكسون رؤوسهم. فكلّ من رأى عينيها، قال: "هذه الطفلة لا تنتمي إلى هذا الزمان."

فهيبت لم تكن تبتسم. كانت تحدّق في الجدران، وتكتب. بدأت على الورق، ثم على الحيطان، ثم على الصخور. في كل صباح، يجد الناس كلماتٍ جديدة محفورةً على الحجارة:
رموز تشبه زخارف الكهوف، تتداخل فيها الشمس مع القمر، والإنسان مع الحيوان، وكأنّها تعيد ترتيب الأساطير.
وفي الليل، كانت تجلس وحدها قرب الزيتونة، تحدث أحداً لا يرى. تقول إنهم "أساتذة اللغة الأولى"، يأتون من تحت الأرض ليعلموها، ثم يختفون مع أول ضوء.

في إحدى الليالي، صعدت إلى مغاور النبي هوري. وحدها. لم تكن تتجاوز العاشرة. ظنّ الناس أنها ضاعت. بحثوا عنها ثلاثة أيام، ثم وجدوها جالسة عند مدخل المغارة، تغنّي بلغةٍ لا تُفهم، وعيناها تطلّان على البعيد، كأنّها رأت ما لا يُروى.

قالت لأمها بعدها:
– "في الداخل، رأيت مملكةً من حجر ونور. سمعت صوتاً يقول لي: اكتبي ما لن يكتبه أحد، احفري الحروف في الصخر، فحين تُنسى اللغة، يُنسى الإنسان."
ولم تعد هيبت كما كانت. صارت تكتب يوماً بعد يوم. وكانت كلماتها تشبه ما سمعه الرعاة قديماً:
عن ممالك بُنيت ثم ابتلعها النسيان.
عن نساءٍ كنّ يسقين الشمس بالحليب، ويحملن مفاتيح الأبواب السماوية.
عن رجالٍ سجدوا للضوء، وطفلٍ من ترابٍ ونار كان يحمل على صدره ألواحاً من نور.

ولم تكن تلك القصص مجرد خرافات. فقد بدأ بعض الشيوخ يتذكرون، كأنّ اللغة التي تكتبها هيبت أيقظت فيهم ذاكرةً عتيقة.
قال أحدهم: "سمعت جدّي ذات مرّة يذكر هذه الحروف. قال إنها لغة الذين لم يُهزموا، بل اختفوا لأنهم لم يريدوا الحرب."
وقال آخر: "كانت لنا لغات قبل أن تأتينا كتب الغريب... لغات تُغنّى، لا تُكتب."

وفي يومٍ شتوي، والثلج يملأ الطرقات، اختفت هيبت.

تركت وراءها دفتراً واحداً، مخطوطاً من جلد الغنم، ممتلئاً برسومٍ لا تُفكّ، وكلماتٍ تصعد كالدخان من بين الحروف.
كتب أحد العارفين على هامشه:
"إنها لم تكن تكتب، بل كانت تستعيد اللغة التي بكَتْ فينا حتى جفّت."

ومنذ ذلك اليوم، صارت كلّ صخرة في قُورش تقرأ مرتين: مرة بلغة الناس، ومرة بلغة هيبت.

لغة منسيّة... لكنها ما زالت تنتظر من يفهمها.

لغة إذا نطق بها أحدٌ ذات يوم، سيعرف العالم من جديد كيف كان الإنسان يتحدث مع الله دون أن يحاكم.

الفصل الرابع: موسم الرحيل

كانت قرية قُورش تستعدّ لموسم الزيتون كما في كل عام. السلال من خوصٍ قديم، والمناجل تُشحذ على الحجارة، والنساء يُهيّئن الخبز والماء لمن سيصعدون إلى السفوح.
لكن في ذلك الصباح، لم توقظهم رائحة الخبز، بل وقعُ خطواتٍ ثقيلة قطعت صمتَ الجبل كأنها نصلٌ صدئ يشقّ لحماً حيّاً.

جاء الجنود عند الفجر، بأحذيتهم المغبَّرة ولهجاتهم الغريبة، يحملون بنادق تُشبه السياط، موجَّهة إلى ذاكرة الأرض. لم يسألوا عن الزيتون، ولا عن الماعز، ولا حتى عن المياه.
جاءوا يبحثون عن "كتابات تحريضية"، كما نطقها الضابط بلهجةٍ خشنة، بينما كان يمضغ الكلمة كأنّها تهمةٌ جاهزة.

كانوا يعرفون ما يبحثون عنه. كانوا قد سمعوا أن فتاةً في هذا الجبل تكتب أشياء لا يُفترض أن تُكتب.
كلماتٌ تهزّ الرايات، وتزعزع الطاعة، وتفتح بواباتٍ أُغلقت منذ ألف عام.

وقفوا أمام بيتٍ طيني صغير، عند حافّة الزيتونة التي لم تثمر ذلك العام، كأنها قرأت ما سيأتي.
اقترب الضابط وحدّق بالجدار المغبّر، ثم أشار إلى جملةٍ محفورة بإصبعٍ صغير:

"كلُّ شعبٍ لا يسمع صوت الأرض، لا يسمع صوت الحرية."

كلماتٌ كتبتها هيبت قبل أسبوع، بعد أن رأت في منامها أن الجبل بدأ يبكي.
جدارٌ طيني بسيط، لكنّ الجملة فيه كانت كارتجاف البرق قبل العاصفة.

زمجر الضابط وأشار إلى جنوده:
– "خذوها!"

اقتيدت هيبت بين أيديهم، بلا مقاومة، بلا كلمة. كانت عيناها ساكنتين كصخرتين شاهقتين، ووجهها مشوباً بشيءٍ يشبه الحلم لا الخوف.
لم تصرخ.
ولم تنظر خلفها.
حتى حين نادت أمّها باسمها، لم تلتفت.
كأنّها تعرف أن هذا الرحيل ليس نهاية... بل بدايةٌ لصمتٍ أعلى من الكلام.

أُخذت هيبت إلى جهةٍ لم يُعرَف عنها شيء.

لم يعلن عن سجن، ولم توجه تهمة، ولم يمنح أحدٌ فرصة للسؤال.
صمتت الأم.
وصمت الجبل.
وحتى الذئب، الذي كان يعوي كلّ مساءٍ من الجرف العالي... لم يسمَع له صوت.
وكأنّ قُورش كلّها دخلت في موسمٍ من المواويل المكبوتة، ووجعٍ لا اسم له.

مرّ الشتاء قاسياً، والثلوج أكلت أطراف المروج. تهاوت الجدران الطينية، والناس مرّوا بصمتٍ أمام الزيتونة اليابسة.
لم يتجرأ أحدٌ على النطق باسمها، لكن الغياب كان يسير في القلوب بثقل الحجارة على الأكتاف.

ثم، في منتصف الربيع، عندما تفتّحت زهرة بنفسج بريّة عند فم المغارة، عادت الريح إلى قُورش.
ريحٌ غريبة، لا تُشبه نسمات الجنوب المعتادة، ولا ريح الجبل التي تحمل رائحة الزعتر البرّي.
كانت ريحاً دافئة، مرّت بين النوافذ، وأدخلت معها شيئاً آخر...

قصاصات.

أوراقٌ خفيفة، مهترئة، تطير كالفراشات، وتهبط على السطوح، وعلى عتبات البيوت، وحتى على أكتاف الرعاة.
قصاصاتٌ كتبت بخطٍّ صغير، أنيق، يشبه غصناً يرقص في مهبّ الذاكرة.
في كلّ واحدة، عبارةٌ واحدة فقط:

"أنا لم أمت.
أنا فيكم.
فقط اصغوا... الجبل يتكلم."

ارتعدت الأمهات، وبكى الشيوخ، أما الأطفال، فصاروا يجمعون الأوراق كما يجمعون كنزاً من زمنٍ سحيق.
الكتابة نفسها، الخطّ نفسه، اللغة التي لا تشبه لغتهم، لكنها تسكن أرواحهم.

هيبت... كانت هناك.
في مكانٍ لا تراه العين، لكنها حيّة في القصاصات، في الحروف، في الجملة التي أيقظت القرية من نومها العميق.

صارت كلُّ قصاصة تُخبّأ في صدر، تُعلَّق خلف الأبواب، أو تُقرأ همساً في المساء.
وصار الناس يصعدون إلى الزيتونة، يضعون حولها أحجاراً دائرية كما كانت تفعل هيبت، يرسمون رموزها، ويكتبون مثلها.

وفي أحد الأيام، وجدوا على صخرةٍ عند مدخل المغارة القديمة جملةً جديدة، لم يرَها أحدٌ من قبل:

"حين يسكت البشر، تتكلّم الجبال... وأنا صوتها."

منذ ذلك اليوم، تغيّر كلّ شيء في قُورش. صار موسم الزيتون موسماً للحكاية، وصار وقت القطاف وقتاً للصمت المقدّس. وصارت هيبت، التي أُخذت ذات فجر، لا تذكر كغائبة، بل كمن بدأ الكلام من جديد.

في موسم الرحيل...
لم ترحل هيبت، بل زرعت صدى صوتها في صدور الذين عرفوا أن الأرض لا تنسى من يصغي إليها،
وأنّ الكلمات التي تكتب على الطين، تبقى أطول عمراً من كلّ جدران الملوك، وأنّ الحرف... إذا خرج من قلب الجبل، لا يمكن أن يعتقل.

الفصل الخامس: زمن الذاكرة

مرّت السنوات...
سنوات لا تُعدّ بفصول الزيتون، بل بعدد الذين صاروا يكتبون على الجدران خوفهم، وشجاعتهم، وأحلامهم التي ولدت في قلب الجبل.

تغيّرت قرية قُورش، تلك القرية المنسية بين التلال، ولم تعد كما كانت.
لم يعد الأطفال يلهون عند تخوم الحقول، بل صاروا يجلسون قرب الزيتونة القديمة، يخطّون كلماتٍ غريبة على التراب، يقلّدون ما كانت تكتبه هيبت.
في البداية، كانت مجرد حروفٍ متعرجة، خطوطٍ خجولة. ثم صارت لغة. لغةٌ لا تُدرّس في المدارس، ولا تعترف بها في دفاتر الحكومة، بل تكتب على الجدران، وعلى المقاعد الخشبية، وعلى أبواب البيوت الطينية.

"أنا فيكم... فقط اصغوا."
"الجبل يتكلّم."
"كلُّ شعبٍ لا يسمع صوت الأرض، لا يسمع صوت الحرية."

جُمل قصيرة، لكنها كانت توقظ شيئاً نائماً منذ أزمنة سحيقة. صار الأولاد يكتبونها على دفاترهم، في الزوايا الخلفية من كتب الرياضيات، وصارت البنات ينقشنها على معاصمهن بخيطٍ أحمر، كتميمةٍ ضد النسيان.

وفي موسم الزيتون التالي، لم تعد الجملة تقال همساً، بل تحولت إلى نشيدٍ يغنّى عند القطاف. نشيدٌ لا لحن له، لكن الجبل حفظه، والريح حملته، وكأنّ الكلمات التي خرجت من فم هيبت ذات حلم، أصبحت ترنيمةً جديدة لعصرٍ لا يخضع لقوانين النسيان.

كان الزمن يتحرّك بثقلٍ في قُورش، لكن الذاكرة كانت تزهر في قلوب الناس.

امرأةٌ مسنّة، يقال إن اسمها "سَفين"، كانت تجلس كل مساء قرب الزيتونة، وتروي للأطفال من هي هيبت.

تحكيها كما تُروى الأساطير:
عن طفلةٍ كانت تسمع صوت الأرض، وتفهم لغة الأشجار، وتخاطب الريح. طفلةٌ لم تكن تكتب بالحبر، بل بنبضٍ يسيل من القلب، ولم تكن تقرأ من الكتب، بل من الصخور، ومن صمت المغارات.

"هيبت" لم تكن مجرد فتاة قروية، كما قالت سفين، بل كانت نبوءة خرجت من فم الأرض. كانت الجملة الوحيدة التي ظلّت الطبيعة تبحث عمّن يكتبها، وكانت العين التي رأت ما لم يره أحدٌ غيرها.

وحين سألتها طفلة ذات مساء:
– "هل ماتت؟"
ضحكت العجوز، وقالت:
– "هيبت لا تموت، يا صغيرتي. الموت لا يعرف طريقه إلى من صار ذاكرة."

بدأت القرى المجاورة تهمس باسمها.
رجال من الجبال البعيدة جاءوا يبحثون عن القصاصات التي نثرتها الريح.
شعراء كتبوا عنها، وفنانون رسموا وجهها رغم أنهم لم يروه.
امرأة مجهولة الملامح، لكنها معروفة الروح.
وجهٌ من نورٍ غامض، وقوةٍ خفيّة، وحزنٍ طويل يسكن الجبال.

وفي أحد الفصول، حين صعد الأطفال إلى المغارة القديمة، وجدوا على الجدار نقشاً جديداً. لم يكن هناك من دخلها، لكن الجملة كانت واضحة، محفورة بأظافر الروح:

"من يعرف كيف يُنصت إلى الصخر، سيسمع اللغة التي سبقت الكلمات."

تلك الليلة، لم ينم أحد في قُورش.
الأمهات أشعلن الشموع، والشيوخ جلسوا في صمتٍ مهيب، والريح دارت في الأزقة كأنها تبحث عن شخصٍ غاب للتو.
وفي الصباح، خرجت الشمس من بين الغيم، وأضاءت جدار المدرسة...
حيث كتب أحدهم بالطباشير الأبيض:

"زمن الذاكرة قد بدأ."

لم تكن الذاكرة في قُورش مجرد حنينٍ لما مضى، بل تحولت إلى فعلٍ يومي. النساء علّقن القصاصات على صدورهن كقلائد، والرجال نقشوا كلمات هيبت على خزّانات الماء، والأطفال صاروا يكتبونها في الهواء بأصابعهم، كما لو أن السماء نفسها صارت دفتراً مفتوحاً.

كل شيء تغيّر في القرية.
لم تعد الصلوات تُقال فقط في الجوامع، بل أيضاً عند الزيتونة.

ولم تعد الحكايات تروى عن أبطالٍ من زمن الملوك، بل عن فتاةٍ كتبت ذات فجرٍ على جدارٍ طيني، فغيّرت بذلك التاريخ.

ومع كل سنة تمضي، كلّما اشتدّت الرياح، كلما نضج الزيتون باكراً، كلّما سقط المطر على المغارة القديمة، تذكّر الناس أن هيبت لم تكن حلماً، بل كانت البرق الذي أيقظ الحرف من سباته.

تلك الفتاة التي كتبت جملةً، فنهضت بها الذاكرة. كتبت بحروفٍ من نار، فأنجبت الكلمات وطناً جديداً، لا يُقاس بالخريطة، بل يُقاس بعدد من تجرأ على أن يصغي... إلى الجبل.

الفصل الأخير: في حضن النبي هوري

مرّت سنون كثيرة منذ اليوم الذي غابت فيه هيبت، كما تغيب الأنهار في جوف الأرض... دون أن تنقطع.

تركت خلفها ظلالاً لا تشيخ، وذكريات تتجدّد كأغصان الزيتون بعد الحرائق. لم يعد أحد يتذكّر ملامح وجهها بدقة، لكن صوتها ظلّ يسكن الريح حين تمرّ بين التلال، وحروفها بقيت تزهر في الشقوق، وتكبر كلما حاول أحد أن ينساها.

في ربيعٍ نادر، حين تفتّحت زهورٌ لم تعرف من قبل، وحامت فراشات بلون الحبر البنفسجي، صعد أحد الرعاة إلى قمة جبل النبي هوري، في وقت لا يصعد فيه أحد. كان يبحث عن نعجة ضاعت منذ يومين، لكن ما وجده غيّر وجه الحكاية إلى الأبد.

في تجويفٍ صخريّ يشبه فماً مفتوحاً نحو السماء، لمح شيئاً يلمع تحت ضوء الصباح. اقترب بخطى حذرة، ووجد صخرة ملساء، منقوشة بحروف لا تشبه شيئاً مما تعلّمه في المدرسة. حروف بدت كأنها كُتبت بلغة الطير، أو رُسمت بظلّ امرأةٍ كانت تعرف كيف تنسج الكلام من الدموع.

جاء المختار، ثم المعلّم، ثم شيخ الجامع، ثم جاءت العجائز بأوشحتهن الداكنة، وكأنّ شيئاً مقدّساً نزل إلى الأرض.
وقفوا جميعاً حول الحجر، صامتين، حتى جاء رجل نحيل في أواخر الستين، يُقال عنه إنه "الحكيم الأخير" في قُورش، ذاك الذي لا ينسى، والذي رأى هيبت يوماً في طفولته حين مرّت بجانبه وابتسمت.

جلس أمام النقش طويلاً، مرّر أصابعه عليه كما يُمرّر المرء يده على جرحٍ قديم. قال بعد صمتٍ طويل، وصوته مشوب بخشوع عتيق:

"لا تخافوا من اللغة،
ففيها تختبئ الحرية،
وفي الصمت، تنبت الأناشيد."

ساد الصمت.
ثم انهمرت دموع امرأةٍ عجوز وهمست:
"هيبت... عادت."

لكن أحداً لم يرَها، ولم يُعثر على قبر لها، ولم يلتقط أحد صورتها. فقط هذا النقش، هذا الحجر، وهذه الكلمات التي ترتجف كلما هبّت ريحٌ من الجنوب.

في اليوم التالي، اجتمع أهل قُورش وقرّروا أن يغيّروا اسم الجبل. لم يعد اسمه "جبل النبي هوري" فحسب، بل صار اسمه محفوراً في الوجدان، يُقال كلما نُطقت كلمة "حرية":
"هَيبَت داغ" — جبل هيبت.

ومنذ ذلك اليوم، تغيّرت الحكاية.

لم تعد تُروى فقط عن نبيٍّ دفنه الله في الجبل، بل عن فتاة خرجت من التراب تحمل نبوءة اللغة، وعن همسٍ خافتٍ صار صرخة، وعن جبلٍ تكلّم، وحرفٍ تمرّد، وزيتونة ظلّت واقفة رغم كلّ مواسم القطاف الدامية.

في الليالي الطويلة، حين تهبّ الريح من أعالي الجبال، تُطفأ القناديل، وتجلس الجدّات مع الأطفال، ويبدأ السرد:

"كان يا ما كان، في قريةٍ تُدعى قُورش،
ولدت لغة تمشي على قدمين،
وكان اسمها... هيبت."

وتُكمل الجدّة الحكاية، وهم يفتحون عيونهم كأنهم يرونها لأول مرة:

"هيبت لم تكن بشراً فحسب، بل كانت القصيدة التي خبّأها الجبل لقرون، وكانت الصرخة التي كتبها الشعب قبل أن يتعلّم الكتابة، وكانت اللغة التي إذا نطقت... نهض الوطن."

ويحلم الأطفال، ويحفظون الحكاية.
لأن من ينسى الحكاية، ينسى الطريق.
ومن ينسى هيبت... ينسى ذاته.
ومن لا يُصغِ للجبل... لا يسمع الحقيقة.

انتهت... ولكن لم تنتهِ الحكاية.
فالحروف لا تموت.
والجبال لا تنسى.
والحرية... تعرف اسمها جيداً.

وصيّة الراعي الأخير

في صباحٍ حزين، كان الضباب يلفُّ الوادي كالكفن الأبيض، تتناثر فوق العشب قطرات ندى باكية، كأن السماء قد قضت ليلها دامعةً على رحيل رجلٍ بسيطٍ، عظيمٍ بصدقه، اسمه راعي الأغنام.

ذلك الرجل الذي عاش بينهم، يأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون، يضمد جراحهم إذا خدشتها الأشواك، ويغني لهم في الليالي المقمرة، حتى صار صوته في مسامعهم نشيدَ أمانٍ أزلي.

في ذلك الصباح، اجتمعت الأغنام حول كوخ الراعي، تحدّق بأعينٍ زجاجية دامعة في جسده المسجّى على حصيرٍ قديم. لم يكن بينها من يعرف كيف يوارى الجسد، ولا كيف يقال في الموتى كلام يليق. كانوا مجرد أغنام؛ لا لغة لهم سوى ثغاءٍ حزين، ولا عزاء لهم سوى دموعٍ صامتة.

وفجأةً، اخترق الصمتَ صوتٌ غريب، صوتٌ أجشّ بدا مبللاً بالدموع. كان الذئب، سيد الغابة، مقبلاً من بعيد بخطواتٍ متباطئة، كأنّه هو الآخر مثقلٌ بالفقد. تقدّم بخطواتٍ مدروسة، وانحنى أمام الأغنام، ثم قال بنبرةٍ هادئة مفعمة بالشجن:

. "رحم الله فقيدكم، لقد كان مثلاً أعلى في الوفاء والإخلاص، ورمزاً للتضحية ونكران الذات... والله إني لأشعر بفقده كما لو فقدتُ أخاً عزيزاً."

اندُهشت الأغنام، وتبادلت نظراتٍ مرتبكة. الذئب، الذي طالما كان ظلّاً مفزعاً يترصّدهم بين الوديان، يبكي اليوم معهم؟ أيكون الحزن قد أذاب قلبه الحجري؟

واصل الذئب كلامه:
. "لم آتِ اليوم للتعزية فقط، بل لأبلغكم وصيّةً عظيمة، حمّلني إياها فقيدكم قبل أن يودّع الحياة. أوصاني أن أكون وليَّ أمركم بعد رحيله، أن أحميكم من أعدائكم المتربّصين، وأن أضمن لكم حياةً يسودها السلم والرخاء."

تساقطت كلماته في قلوب الأغنام كالمطر على أرضٍ عطشى. هتف أحدهم بفرح:
. "سبحان الله! ما أعظم وفاءه حتى بعد موته! وما أكرم هذا الذئب الذي رضي أن يحمل الحمل الثقيل عنا!"

ارتفعت أصوات الأغنام بالتهليل، وغمروا الذئب بقبلاتهم الساذجة، كأنهم وجدوا في حضنه دفء الأب المفقود. عندها ابتسم الذئب ابتسامةً خفية لا يعرف معناها إلا هو، ثم رفع رأسه نحو السماء وقال في سره:
. "كم هو جميل أن يفتح الباب إليك دون أن تضطر لكسره."

ومنذ ذلك اليوم، صار الذئب راعياً للأغنام. لكن أيّ رعايةٍ تلك؟

في البداية أظهر لهم حناناً مصطنعاً؛ يبيت بينهم، يحرسهم، ويغني لهم كما كان يفعل الراعي الراحل. كانوا ينظرون إليه بإعجاب ويقولون:
. "ما أروعه! لقد صدق الراعي في اختياره."

لكن شيئاً فشيئاً تغيّرت الملامح؛ أصبح الذئب يفرض قوانين جديدة:
. "لا ترعوا إلا حيث أقول لكم."
. "لا تشربوا إلا من النبع الذي أحدده لكم."
. "إن أكلتُم كثيراً ضعفتُ عن حمايتكم."

والأغنام . من فرط سذاجتها . انصاعت، بل اعتبرت أوامره حكمةً ووصيّةً مقدسة من راعيها الأول.

ومع مرور الأيام، بدأت الأغنام تختفي واحدةً تلو الأخرى. كلما سألوا عن غياب رفيقٍ لهم، كان الذئب يجيب بحزنٍ مفتعل:
. "لقد خطفه العدو المتربّص. حاولتُ حمايته لكنني لم أستطع. فاصبروا واحتسبوا."

فتذرف الأغنام دموعها، ثم ترفع رأسها نحو الذئب وتقول:
. "يكفي أننا ما زلنا في حماك، فوجودك أمان."

وهكذا ظلّت القافلة تسير، والأغنام تتناقص، والدموع تسكب، والوصيّة تستَحضَر، حتى غدا القطيع نصف ما كان.

وفي ليلةٍ مقمرة، وقفت شاةٌ صغيرة عند سفح الجبل، ورفعت رأسها نحو السماء هامسةً:
. "يا أبي الراعي... هل هذه كانت وصيّتك حقاً؟ أن نسلّم حياتنا لذئبٍ مفترس؟"

لكن الجواب الوحيد الذي جاءها، كان عواء الذئب يتردّد في أعماق الوادي... كضحكةٍ خبيثة تملأ الليل.

المغزى:
القصة ليست عن أغنامٍ وذئبٍ وحسب، بل عن أممٍ تسلّم رقابها باسم الوصايا، وتستبدل أمان الراعي بوعود المفترس، ثم تبكي موتاها وهي راضية خانعة، حتى يبتلعها الغياب.

التغريبة الكوبانية
ملحمة الجرح والمنفى

الفصل الأول: الفقد

في التاسع عشر من أيلول الحزينة، طرقت أبواب الرحيل فجراً، كأنها ريحٌ عاتية تنذر بانطفاء بيتٍ كامل. لم يكن صباح كوباني شبيهاً بما عهدناه من قبل؛ الشمس لم تشرق دفئاً، بل نذيراً، والطرقات لم تستقبل خطواتنا بل ارتجفت تحت وقعها، كأنها تعرف أنها المرة الأخيرة التي تحتفظ بأثرنا. ذلك الصباح لم يكن يوماً عادياً، بل بداية التغريبة: بداية انكسار العمر وانفتاح الجرح على اتساعه.

في الأزقة الضيقة، كانت البيوت تتنفس صمتاً ثقيلاً؛ نوافذ نصف مغلقة، وجدران كأنها تسمع وتبكي. كل حجرٍ كان يهمس لنا: "لا تتركوني." لكننا كنا نعلم أن ساعة الفقد قد حانت.

قال أبي وهو يحزم بعض الأمتعة على عجل:
. "لا وقت للوداع، فحتى الدموع لم يعد لها مكان هنا."

كانت أمي تتجول في أرجاء البيت بعينين دامعتين، تلمس الجدران بأطراف أصابعها كمن يحاول أن يحفظها في ذاكرة يديه. همست، وهي تكتم انكسار صوتها:
. "كيف أترك مطبخاً شهد ضحكات أطفالي؟ كيف أترك نافذةً كانت تفتح كل صباح على الشمس؟"

اقتربت أختي الصغيرة "روجين"، ممسكةً دميتها الخشبية، وقالت ببراءةٍ موجعة:
. "ماما، هل ستأتي الدمية معنا؟"

جلست أمي على ركبتيها، أمسكت وجهها الصغير، وأجابت بصوتٍ مرتعش:
. "نعم يا حبيبتي... ستأتي. لكن بيتنا... قد ينتظرنا طويلاً."

في الخارج، كان الجيران يتجمعون. وجوهٌ مغسولة بالحزن، نساء يحملن أطفالاً نائمين، ورجال يجرّون خطواتهم كما لو كانوا يجرّون جبالاً من الذاكرة.
صرخ جارنا "خليل" العجوز، وهو ينظر إلى شجرة التوت العتيقة عند مدخل الحي:
. "كيف أتركها؟ لقد زرعتها بيدي حين كنت شاباً... هذه الشجرة تعرف اسمي أكثر مما يعرفه البشر!"

ردّ ابنه وهو يسنده:
. "سنعيد زراعتها في مكان آخر يا أبي. المهم أن تبقى أنت، أما الشجر... فسيعود حين نعود."

امتلأ الطريق بالصخب: بكاء أطفال، دعاء أمهات، وصوت حمارٍ يجرّ عربةً محمّلة بما تبقى من حياة. كان الغبار يعلو في السماء كستارةٍ تخفي المدينة عن عيوننا شيئاً فشيئاً.

أمسكت "روجين" بيدي وسألتني بصوتٍ خافت:
. "أين سننام الليلة؟"
أجبتها بابتسامةٍ مريرة:
. "سننام تحت السماء... السماء بيتنا الكبير يا صغيرة."

ضحكت، وظنّت أن السماء أرحب من بيتنا الضيق. لم تعلم أن السماء نفسها كانت غريبة، وأن الليل الذي ينتظرنا كان أثقل من العمر كله.

على مشارف الحدود، كان الزحام يزداد. آلاف العيون تحدّق في الفراغ، كأنها تبحث عن إجابة لم تأتِ. هناك، صرخت امرأة في منتصف العمر:
. "أوقفونا! قالوا لنا انتظروا هنا... إلى متى سنظل ننتظر؟"

أجابها رجلٌ بجانبها، ملامحه مغبّرة:
. "حتى يقرروا إن كنّا بشراً... أم مجرد أعداد."

حلّ الليل ونحن على العراء. كانت الريح تلفح وجوهنا، والبرد يتسرّب إلى العظام. تجمع الأطفال حول أمهاتهم، فيما راح الرجال يشعلون ناراً صغيرة من بقايا أغصان يابسة.

في تلك الليلة، ولدت الغربة من رحم الألم. لم يعد هناك جدار يحمي، ولا نافذة تفتح على صباح مألوف. المخيم كان على مقربة، لكننا شعرنا أننا دخلنا سجناً كبيراً؛ سجناً بلا أبواب ولا جدران، بل بأسلاكٍ وهمية تحيط بنا من كل جانب.

قال أبي وهو يحدّق في الظلام:
. "من هنا تبدأ التغريبة يا أولادي... من هنا يبدأ امتحان العمر."

لم يرد أحد. كنا نعلم أن ما تركناه وراءنا أكبر من أن يقال، وأثقل من أن يحمل بالكلمات.

الفصل الثاني: الرحيل

خرجنا إلى الطرقات بلا خارطة، بلا وجهة محددة. كنّا مثل قافلةٍ ضائعة، يدفعها الخوف من الخلف ويشدّها الأمل الواهي من الأمام. بدا الطريق بلا نهاية، كليلٍ طويلٍ بلا قمر، والظلام لم يكن في السماء وحدها، بل في صدورنا أيضاً.

كان أطفالنا يبكون من الجوع والخوف، وأمهاتهم يخفين دموعهن خلف ستراتٍ مثقوبة بالبرد، بينما الشيوخ يجرّون ذاكرتهم كأثقالٍ مربوطةٍ بأكتافهم، كل خطوة بالنسبة لهم كانت تعادل حياةً كاملة.

وعند أول منعطف، صرخت امرأة من الجموع وهي تحمل رضيعها على صدرها:
. "إلى أين نذهب؟ من يدلّنا؟"

ردّ رجلٌ خمسيني، وجهه تكسّرت عليه تجاعيد القهر:
. "نمشي فقط... لا تسألوا عن الطريق، فكل الطرق صارت غربة."

التفت إليّ أبي وهو يسحب حقيبته الصغيرة التي بالكاد تحمل بعض الخبز اليابس، وقال:
. "لا تنظر خلفك يا ولدي... إن فعلت، سيكسر الحنين ظهرك."

لكنني لم أستطع. التفتُّ، فرأيت المدينة تغيب شيئاً فشيئاً خلف غبارٍ كثيف. بيوتٌ كانت تحتضننا بالأمس، صارت اليوم أطلالاً تبكينا. أحسست أنني أترك جزءاً مني هناك، جزءاً لن أسترده أبداً.

في منتصف الطريق، جلس جارنا "موسى" على حجرٍ وهو يلهث، وصاح:
. "لم أعد أستطيع... دعوني هنا."

اقترب منه ابنه، يركع عند قدميه:
. "لا يا أبي، لن نتركك. الطريق طويل، لكنك ستبقى معنا."

تدخّل أبي، واضعاً يده على كتف موسى، وقال بحزمٍ مبلّل بالحزن:
. "الغربة لا ترحم، لكنها لا تقتل إلا من يستسلم. انهض، فكلنا نحمل أثقالاً، وكلنا جراح."

نهض موسى بصعوبة، وتابعنا المسير.

كانت السماء فوقنا تمطر ناراً وحديداً من بعيد، وأصوات المدافع لا تنام، والدخان يتصاعد من أطراف الأرض. كنا نمشي ونحن نشعر أن كل خطوة يمكن أن تكون الأخيرة.

صرخت "روجين"، أختي الصغيرة، وهي تشدّ على دميتها الخشبية:
. "ماما، تعبت... أريد أن أحمل قدميّ بيدي!"

ضحك بعض الأطفال من عفويتها، لكن ضحكتهم كانت باهتة، مثل شمعةٍ توشك أن تنطفئ. انحنت أمّي نحوها، وحملتها على ذراعها رغم الإرهاق الذي يعصف بجسدها، وقالت:
. "اصبري يا ابنتي، فحتى الطريق يتعب، لكنه يظلّ مستمراً."

في كل خطوة، كان الغبار يعلو، كأن الأرض تحاول أن تخفي آثارنا. همست لي شابة تسير بجانبي، وجهها متعب لكنه مليء بعنادٍ غامض:
. "هل تصدّق أننا قد لا نعود؟"

تردّدتُ قليلاً، ثم قلت:
. "العودة ليست بيدنا... هي بيد التاريخ."

ابتسمت ابتسامةً حزينة، وأجابت:
. "إذن فلنكتب التاريخ بدموعنا."

مع اقتراب الغروب، اشتدّ البرد. الريح كانت تلسع وجوهنا كالسياط. جلسنا جميعاً في فسحةٍ صغيرة بجانب طريقٍ ترابي، وأشعل بعض الرجال ناراً ضعيفة من أغصانٍ يابسة. تحلّقنا حولها كفراشاتٍ مذعورة تبحث عن دفء.

رفع أبي صوته وهو يحدّق في اللهيب:
. "هذا ليس رحيلاً... هذا اقتلاع من الجذور. نحن لا نسافر، نحن ننتزع من أرضنا كما تنتزع الشجرة من ترابها."

ردّ خليل العجوز، بصوتٍ متهدّج:
. "لكن حتى الشجرة حين تقتلع... تظلّ جذورها تبكي تحت التراب."

ساد الصمت، إلا من بكاء الأطفال وصوت النار التي تتأوّه. ثم قالت أمّي وهي تنظر إلى النجوم التي بدأت تتلألأ:
. "انظروا... السماء لم تتغيّر. ربما هي بيتنا الآن، سقفنا الوحيد."

ضحكت "روجين" بخفةٍ وقالت:
. "السماء أكبر من بيتنا... يمكنها أن تسع الجميع!"

لكننا كنا نعلم أن الليل القادم أضيق من قلوبنا، وأثقل من كل ما حملناه.
وهكذا واصلنا المسير. لم يكن الرحيل مجرد خطوةٍ في طريقٍ مجهول، بل كان عبوراً من حياةٍ إلى أخرى، من مدينةٍ إلى غربة، من بيتٍ يملؤه الدفء إلى عراءٍ ينهشه البرد. كان ذلك بداية امتحانٍ لم نكن مستعدين له... امتحان العمر كله.

واصلنا المسير، والليل يزداد وحشة، كأن الطرقات تبتلعنا في صمتها الثقيل. كلما اقتربنا من الحدود بدا الطريق أكثر ازدحاماً بالبشر، كأن الأرض نفسها تلفظ أبناءها دفعةً واحدة.

صرخ صبيّ في العاشرة، وهو يشدّ ثوب أمّه بعينين غارقتين في التعب:

. "ماما، متى نصل؟ لقد تعبت قدماي!"

أجابته الأم، وهي تحاول أن تثبّت ابتسامةً مكسورة فوق وجهٍ يقطّعه الإرهاق:
. "قريباً يا روحي... قريباً ستنام."

لكنها لم تجرؤ أن تقول له إن النوم سيكون على التراب، وتحت سماءٍ بلا جدران.

كلما تقدّمنا خطوة، ازداد الصخب من حولنا. آلاف الأصوات تختلط: بكاء أطفال، صرخات نداء، دعوات أمهات، وأحياناً صمتٌ مفاجئ يشبه ارتجافاً جماعياً حين يعلو دويّ قذيفة من بعيد.

وعند أول مشهدٍ للأسلاك الشائكة، توقفت الجموع. كانت الحدود أمامنا كوجهٍ غريبٍ متجهّم، قاسٍ، لا نعرف له ملامح، تحرسه عيون الجنود وبنادقهم.

رفعت امرأة في منتصف العمر يديها إلى السماء، وصوتها يتصدّع من البكاء:
. "يا رب، أهذا خلاصنا أم موتنا؟"

فأجابها رجل بجانبها، وقد غطّى الغبار ملامحه:
. "هذا انتظارنا يا أختي... لا موت ولا حياة، مجرّد انتظار."

جلس الأطفال على التراب، يلتقطون حجارة صغيرة ويرسمون بها أشكالاً على الأرض، كأنهم يحاولون أن يخترعوا وطناً من الرمل. بينما النساء يغطّين أبناءهن بما تبقّى من أغطيةٍ ممزقة، والبرد يعضّ العظام بلا رحمة.

اقترب جندي من وراء الأسلاك، وصاح بلغةٍ لم نفهمها:
. "انتظروا هنا! لا تتحرّكوا!"

تجمّدت الجموع في أماكنها.
صرخ رجل مسنّ وهو يلوّح بعصاه المرتجفة:
. "إلى متى؟ ألا ترون الأطفال؟ ألا تسمعون بكاءهم؟"

لكن الرد لم يأتِ، سوى نظراتٍ قاسية من خلف خوذاتٍ صامتة.

جلس أبي على الأرض، ألقى حقيبته بجانبه، وقال بصوتٍ خافت أثقلته السنين:
. "ها نحن يا أولادي... غرباء على أبواب الغربة."

همست أمي، وهي تضمّ "روجين" النائمة في حضنها:
. "لم أعد أخاف الموت... أخاف فقط أن يكبروا بلا بيت، بلا ذكريات."

طال الانتظار. ساعاتٌ تتثاقل كأنها دهور. والناس بدأوا يتهامسون:
. "هل سيفتحون لنا الطريق؟ أم سنظلّ هنا حتى يبتلعنا الجوع؟"

وفجأة، ارتفع صوت شابٍ نحيل، نظر نحو الأسلاك وقال بحرقة:
. "نحن لا نحمل سلاحاً... لا نحمل إلا دموعنا. لماذا يخافون من دموعنا؟"

لم يجبه أحد. لكن العيون جميعها لمعت بالسؤال نفسه.

وأخيراً، في ساعةٍ متأخرة من الليل، انفتح جزء صغير من البوابة الحديدية. هرع الناس كأنهم يبحثون عن أوكسجين جديد، لكن ما إن عبروا حتى اصطدموا بمشهدٍ آخر: أرضٌ غريبة، ومخيمات تمتدّ ككفنٍ أبيض، وأسلاك جديدة تحاصرهم من كل جانب.

همستُ لنفسي:
. "حتى الغربة لها حدود."

نظر أبي إلينا وقال، وصوته يختنق:
. "هنا يبدأ المنفى... هنا يبدأ امتحان الصبر، لا امتحان الطريق."

وهكذا، كانت تلك الليلة أول ليلة لنا في المنفى، ليلةً باردة حملنا فيها السماء غطاءً، والوجع وسادة، والانتظار قدراً لا مهرب منه.

الفصل الثالث: الغربة

وصلنا أخيراً إلى المنافي. كانت المدن البعيدة أمامنا شاسعة وباردة، كوجوهٍ لا تعرف الرحمة، كبيوتٍ بلا أبواب، كسماءٍ بلا نجوم مألوفة. لم نملك هناك سوى أسماءنا الممزقة، وهويّاتٍ خائفة كأطفال فقدوا حضن أمّهم، وذكرياتٍ تتساقط من بين أصابعنا كما تتساقط المياه من وعاءٍ مثقوب.

في الشوارع، أصبحنا مجرد غرباء، ننتظر على الأرصفة اعترافاً بوجودنا، كأن العالم كله يمرّ بنا دون أن يلمسنا. الغربة لم تكن غياب الأرض فحسب، بل كانت اقتلاعاً من الداخل، غربة عن الذات، عن كل ما كنا عليه وعن كل ما أحببنا.

جلست أمي على أحد المقاعد، تنظر حولها بعينين دامعتين، تحاول أن تجد شيئاً مألوفاً في وجوه المارين:
. "هل هذا هو العالم كله؟" همست بصوتٍ كئيب، يرتجف من الحنين.
أجابها أبي، وهو يحاول أن يخفف ثقلها:
. "لا، يا أمي... العالم ليس هنا... نحن هنا فقط، لكننا سنخلق فيه وطننا، ولو كان صغيراً."

صرنا نحدّق في المرايا ولا نرى أنفسنا. كانت الملامح التي نحملها في ذاكراتنا قد غادرت معنا ولم تصل بعد. كل نظرة في زجاج النافذة كانت تعيدنا إلى طفولتنا، إلى الأزقة الضيقة، إلى ضحكات بيوتنا، لكنها كانت سراباً، حلماً بعيداً.

في السوق، حاولت "روجين" أن تبيع زهرة بلاستيكية صغيرة للأطفال لتأمين قطعة خبز. اقتربت مني، ممسكةً يدها بدميتها الممزقة، وسألت بخجل:
. "أخي، هل سيقبلوننا هنا؟"
ضحكتُ بصوتٍ متهدج، أحاول أن أخفي ارتجافي خلف ابتسامةٍ ضعيفة:
. "لا أحد يعرفنا هنا يا صغيرة... لكننا سنعلّمهم أن يعرفونا."

كل كلمة جديدة، كل لغة غريبة، كانت كحجرٍ إضافي على صدورنا. نبتسم في وجوهٍ لا تفهم دموعنا، نتلعثم في عباراتٍ لا تنتمي إلينا، نحمل أوطاننا في صدورنا كجرحٍ داخلي لا يراه أحد، كحريقٍ لا ينطفئ داخلنا.

في المخيم، بين الخيام المتلاصقة، جلسنا حول نار صغيرة، كأننا نحاول إشعال وطن صغير لنا وسط غربةٍ واسعة. رفعت أمي صوتها وهي تدفن وجهها في كفيها:
. "كم تمنيت لو أن الأرض التي هجرتنا تعود إلينا ولو للحظة."

اقتربت مني "روجين"، ممسكةً دميتها الممزقة، وسألتني ببراءةٍ موجعة:
. "أخي... هل سنجد بيتاً هنا؟ بيتاً حقيقياً؟"
أمسكت بيديها الصغيرة، وقلت بصوتٍ مرتعش لكنه مليء بالعزم:
. "ربما لا اليوم... وربما لا غداً... لكننا سنبني بيتاً من قلبنا، من ذكرياتنا، من دموعنا، وسنحمله معنا أينما ذهبنا."

مرت الأيام ببطءٍ قاتل. كانت كل ليلة أطول من النهار، كل سريرٍ على الأرض أقسى من الحجر، كل وجبةٍ قليلة، كل ابتسامةٍ مضطرّة. ومع ذلك، كان فينا شيءٌ لا ينكسر. شيءٌ يقول لنا: مهما طال المنفى، مهما دفعتنا الغربة إلى الحافة، ستظل روح كوباني معنا، وستظل تهمس لنا بأن العودة ليست مجرد حلم، بل وعدٌ مستمر، وعدٌ نزرعه في قلوبنا مع كل خطوة جديدة.

في أحد الأيام، اقترب رجل كبير السن منا، جلس بجانب أمي وسألت:
. "كم بقيت في هذا المنفى؟"
أجاب وهو ينظر إلى الأفق البعيد:
. "سنوات... ولكني تعلمت شيئاً: الغربة تُعلّمك أن تحمل وطنك في قلبك، حتى لو لم يكن حولك شيء سوى العراء."

هكذا صارت الغربة جزءاً منا، جزءاً من نفسنا، جزءاً من قصتنا. لم تعد مجرد رحلة بلا عودة، بل اختباراً لصبرنا، لذكرياتنا، ولقدرتنا على أن نحيا حتى عندما تصبح المدن حولنا غريبة، والوجوه بلا أسماء، والليل بلا نجوم مألوفة.

وفي كل صباح، كنا نصحو على حلمٍ صغير: أن نحمل وطننا في خطواتنا، في كلامنا، في صمتنا، وأن نعلّم أطفالنا أن الغربة ليست نهاية، بل بداية أخرى للحياة، للحياة التي نريد أن نبنيها بأيدينا، بدموعنا، وبتاريخ لم يكتب بعد، تاريخٍ سنخلقه نحن مهما كانت المصاعب، مهما كانت المدن باردة والوجوه غريبة، مهما كانت السماء بلا نجوم مألوفة... لأن الوطن ليس فقط الأرض، بل ما نحمله في قلوبنا.

الفصل الرابع: المنفى

المنفى لم يكن مدينةً واحدة، بل كان قارةً من الشقاء، ممتدة بلا حدود، بلا وجوه مألوفة، بلا زوايا تذكرنا بضحكاتنا القديمة. في الداخل، كان منفى أكبر من السجون، حيث الأسوار الشائكة تحاصر الجسد والذاكرة معاً. وفي الخارج، كان منفى أبعد من الحدود، حيث الأرض البعيدة لا تعرفنا، والسماء التي نراها كئيبة، كأنها نسيت أن تضئ لنا.

كوباني كانت معنا، لكنها بقيت في أعماقنا فقط، كجرح صغير لا يندمل، كحلم يختبئ خلف كل دمعة. لم يَرَها أحد سوانا، ولم يستطع أحد أن يشعر بما تركناه وراءنا، بما غادرناه من حياة، من طفولة، من وجوه كانت تعرفنا بلا كلمات.

في كل ليلة، كنا نحلم بأننا عدنا إلى بيوتنا: الأزقة الضيقة، الأشجار التي حملت أسرارنا، النوافذ التي كانت تفتح على الشمس. ثم نصحو لنكتشف أننا غرباء حتى عن أحلامنا، أننا نحمل وطننا في قلبٍ لا يراه أحد، وأن كل الطريق الذي نسلكه يقودنا إلى فراغ أكبر من الذي تركناه.

جلسنا في إحدى الخيام، نتجمع حول نار صغيرة تحاول أن تمنحنا دفئاً ولو قليلاً. رفعت أمي وجهها إلى السماء المظلمة، ودموعها تتساقط على يديها، وقالت بصوت خافت:
. "كم تمنيت لو أن المنفى لا يعرفنا... لو أن الأرض تسمع صمتنا."

اقتربت مني "روجين"، ممسكةً دميتها، وعيناها تتسائلان بلا كلمات:
. "أخي... هل سنبقى هنا إلى الأبد؟ هل ستصبح السماء بيتنا؟"

ابتسمت لها برقة، وأمسكت بيديها الصغيرة:
. "ربما... لكن حتى في هذا العراء، سنزرع وطننا من بين الدموع، من بين الصمت، ومن بين كل الخوف الذي يحيط بنا."

في الجوار، جلس رجل مسن، يحدق في الخيام الأخرى. اقتربت أمي منه، وسألته بعينين ملؤهما الحنين:
. "كم بقيت هنا؟"
رد بصوت مرتجف:
. "سنوات... وسنوات... المنفى يعلمك أن تحمل وطنك في قلبك، حتى لو لم يكن حولك شيء سوى صمت وجدران بلا أبواب."

ضحكت "روجين" بخفة، وقالت:
. "أخي... أهذا كل شيء؟ بيتنا لم يعد سوى صمت ونار صغيرة؟"

قلت لها بصوت يحمل العزم:
. "ليس كل شيء... بيتنا هنا أيضاً. بيننا، بين دموعنا، بين كلماتنا، وبين ضحكاتنا الصغيرة. سنبنيه من جديد، مهما طال الانتظار."

الليل امتد بلا نهاية. أصوات الريح كانت تخترق الخيام، والبرد يلسع وجوهنا كما لو أراد أن يذيب كل شيء، لكننا صمدنا. الأطفال ناموا على الأرض، ووجوههم مليئة بالتعب والخوف، لكن في عيونهم بقايا أمل.

همست أمي لي، وهي تحضن "روجين":
. "تعلم يا ولدي... المنفى لا يقتل الروح. الغربة تعلمك الصبر، تعلمك كيف تحب أكثر، كيف تحافظ على وطنك داخلك، حتى لو ضاعت المدن والوجوه."

اقترب جارنا "موسى"، وهو ينظر إلى الأفق البعيد، وقال بحزن عميق:
. "كل هذا الألم... كل هذا الانتظار... هل سيكتب لنا الفرج؟"

أجبتُه دون تردد:
. "الفرج لن يأتي إلا إذا حملناه معنا. إذا لم نزرع وطننا هنا، في قلوبنا، فلن يكون لنا مكان نعود إليه."

المنفى أصبح مدرسة لنا، مدرسة الغربة والصبر، مدرسة بناء الوطن من الذكريات، من دموعنا، من ضحكاتنا الصغيرة، من كل ما تركناه وراءنا. لم يعد المكان مهماً، ولا الزمن، ولا حتى الناس من حولنا. ما بقي هو الإرادة، والذكرى، والوطن الذي نحمله داخلنا.

وفي كل صباح، عندما يشرق الضوء على خيامنا الباردة، كنا نصحو على حلم صغير: أن نحمل وطننا في خطواتنا، في كلماتنا، في صمتنا، وأن نعلّم أطفالنا أن الغربة ليست نهاية، بل بداية أخرى، بداية من رحم الألم، من رحم الانتظار، من رحم المنفى، بداية تزرع فينا الحياة، مهما كانت المدن قاسية، ومهما كانت السماء بلا نجوم مألوفة، ومهما طال الزمن قبل أن نلمس بيوتنا من جديد، سنظل نحمل كوباني معنا، في قلبنا، في دموعنا، في ضحكاتنا، وفي كل نفس نتنفسه، كأنها وطن صغير لم يخترق بعد، وطننا الأبدي الذي لا يستطيع المنفى ولا الزمن أن يمحوه.

الفصل الخامس: الصمود

ومع ذلك، لم نمت... لم يستطع المنفى أن يسرق منا جذورنا، ولم يستطع البرد القارس ولا الأسلاك الشائكة أن يقتلع قلبنا من الأرض التي حملتنا بين ذراعيها سنوات الطفولة.

في صباحٍ هادئ، جلست أمي على حافة خيمتنا، تحدّق في الأفق البعيد حيث تمتدّ المدينة الجديدة أمامنا، وقالت بصوتٍ خافت لكنه مليء بالعزم:
. "حتى في هذا العراء، يا ولدي، كوباني لا تزال معنا... في دموعنا، في صمتنا، في كل خطوة نخطوها."

اقتربت "روجين"، ممسكةً دميتها الممزقة، وقالت ببراءة:
. "أخي... هل سنبني بيتاً يوماً؟ هل سنرى بيوتنا القديمة مرة أخرى؟"

ابتسمت لها، حاولت أن أخفي ما يعصف بصدري، وقلت بصوتٍ مرتجف لكنه واثق:
. "نعم، سنبنيه، ليس من حجارةٍ وحدها، بل من ذكرياتنا، من دموعنا، من كل الحكايات التي لم تمُت معنا... كلّ لحظة ألم، كل دمعة، ستصبح حجراً في بيتنا الجديد."

في الجوار، جلس جارنا "موسى" بجانب النار، ينظر إلى السماء المظلمة، وقال بحزنٍ مختلط بالأمل:
. "كل هذا الانتظار... هل يستحق العناء؟"

أجابته أمي بصوتٍ حاد، كأنها تعلن حقيقة لم يسمعها الزمن من قبل:
. "الانتظار جزءٌ من الصمود، ومهما طال، فإن القلب الذي لم يستسلم يزرع وطنه في أي مكان، حتى في العراء."

بينما نحن نتحدث، ارتفع صوت الأطفال من زاوية المخيم، ضحكاتهم ممزوجة بالبكاء، أصواتهم كانت تتسلل بين الخيام كنسيمٍ خجول. اقتربت "روجين" مني، وعيناها تتلألأن:
. "أخي... هل نحن أقوياء بما يكفي لنصمد؟"

أمسكت بيديها الصغيرة، وشعرت بثقل المسافة التي قطعناها، ولكن قلبي امتلأ بعزم لم أعرفه من قبل. قلت لها:
. "نعم، يا صغيرة... نحن أقوياء. أقوى من الجدران، أقوى من الانتظار، أقوى من أي ألم. كوباني في قلبنا، وستظلّ معنا حتى لو نامت أجسادنا، فلن تموت روحنا."

اقتربت منا سيدة من الجيران، وجهها متعب لكن عيناها تحملان نوراً خافتاً:
. "لقد مررنا بكل شيء... الجوع، البرد، الخوف... لكننا لم نستسلم. كل دمعة كانت درساً، وكل دمعة كانت وعداً."

ردّ موسى، ويده ترتجف على عصاه:
. "لقد علمتنا الغربة شيئاً لا يُنسى... الصمود ليس في انتظار العودة، بل في القدرة على أن نحمل وطننا معنا أينما ذهبنا."

في المساء، اجتمعنا جميعاً حول نار صغيرة، ورفع أبي صوته قائلاً:
. "كوباني ليست مجرد مدينة، هي رمز لكل إنسان انتزع من أرضه ولم يستسلم، لكل قلبٍ عرف الفقد لكنه ظلّ ينبض بالأمل."

وبينما كانت الريح تلسع وجوهنا، أحسست أن الغربة صارت أقرب إلينا، لكنها لم تعد عدونا، بل صارت مدرسة تعلمنا كيف نحيا، كيف نحب، وكيف نزرع وطننا في كل مكان، في كل ابتسامة، في كل دمعة، في كل لحظة صمت.

كانت تلك الليلة، أكثر من أي ليلة أخرى، ليلة ولادة جيل جديد من كوباني، جيل يعرف أن الكرامة لا تشترى، وأن العودة ليست زمناً، بل إصرار.

ضحكت "روجين" بين الحين والآخر، وأمي نظرت إلينا بعينين تتسع فيهما الحياة كلها، وابتسمت:
. "حتى لو لم نعد يوماً... كوباني فينا، ونحن فيها... وهذا كافٍ لنمضي قدماً."

هكذا صمدنا.

كل خطوة، كل ابتسامة، كل دمعة، كانت رسالة للعالم: نحن باقون، نحن نحمل وطننا معنا، مهما بعدت المدن، ومهما طال المنفى، ومهما حاولت الغربة أن تسرق منا الماضي.

كوباني اليوم ليست مجرد مدينة. هي جرح، نعم، لكنها أيضاً قصيدة، ذكريات، أمل، صمود، وعد بأن لا ننسى، وأن نزرع وطننا في كل مكان، حتى في قلوب من حولنا، حتى في قلوبنا، وحتى في المستقبل الذي لم يكتب بعد، مستقبلٌ نبنيه نحن بأيدينا، بدموعنا، وبإرادتنا التي لا تقهر.

الفصل السادس: الحلم بالعودة

في كل عينٍ باكية يولد أفق، وفي كل قلبٍ مثقلٍ بالحنين ينام وطن صغير ينتظر صحوته. نحن أبناء التغريبة الكوبانية، نحملُ وعداً مؤجّلاً، نخبئه في صدورنا كأمانة لا تفارقنا، كنبراسٍ يضيء الطريق في ظلام الغربة الطويل.

جلست أمي على حافة الخيمة، تحدّق في السماء الملبدة بالغيوم، وقالت بصوتٍ يكاد يختنق بالحنين:
. "يا ولدي... هل سيعود يوم نرى مدينتنا؟ هل ستفتح أبوابها لنا مجدداً؟"

أمسكت بيدها، وقلبي يشتعل بعزم لم يعرفه من قبل:
. "ستعود، يا أمي... كوباني تنتظرنا. هي الجذر، هي البداية، هي كل شيء تركناه خلفنا، لكنها لم تنسَ."

اقتربت "روجين"، عيناها تتسعان من الفضول والبراءة، ودموعها لا تزال تحرق خدها الصغير:
. "أخي... هل سنتمكن من العودة؟ هل سنرى أشجار البلوط في فناء بيوتنا؟"

ابتسمت لها بصعوبة، وحاولت أن أخفي قلقي خلف وعدٍ صامت:
. "نعم... سنعود يوماً، ولو بعد سنوات طويلة. سنزرع الحجارة التي رحلت، ونغرس الأشجار التي لم تمت، ونحيي ضحكات المدينة في قلوبنا أولاً، ثم في أزقتها."

في زاوية المخيم، جلس جارنا "موسى"، ينظر إلى الأفق البعيد، وقد ارتسم على وجهه مزيج من التعب والأمل:
. "لقد رحلنا، وعشنا المنفى بكل قسوة... لكن هل يبقى شيء من مدينتنا فينا؟"

أجابته أمي بصوتٍ حاد، كأنها تصنع من الكلمات جسراً بين الحلم والواقع:
. "كل ما فينا هو كوباني... كل دمعة، كل صرخة، كل ابتسامة في وجوه أولادنا هي المدينة نفسها. هي لم تغادرنا، ونحن لن نغادرها."

تدفقت الريح بين الخيام، تحمل رائحة التراب، ورائحة المطر القادم، ورائحة الماضي الممزوج بالحزن. اقتربت "روجين" مني، وقالت وهي تتشبث بذراعي:
. "أخي... أليس من الصعب أن نحلم ونحن بعيدون جداً؟"

ابتسمت لها، ومسحت دموعها الصغيرة:
. "ليس صعباً، يا صغيرة... الحلم أقوى من المسافة، أقوى من الغربة، أقوى من البعد والشتات. كوباني فينا، ونحن فيها، نحملها أينما ذهبنا."

في تلك اللحظة، انضمّت إلينا امرأة من الخيام المجاورة، وعيناها مشبعتان بالحزن والتحدي:
. "كل يوم نعيشه في المنفى... هو وعد لنا بأننا أقوى، بأننا نحمل وطننا في قلبنا، حتى لو لم يكن حولنا شيء سوى العراء."

صمتنا قليلاً، ثم قال موسى، بصوت يرتجف لكنه حازم:
. "العودة ليست مجرد حلم... هي التزام، هي صمود، هي رسالة لكل من حاول أن يمحو ذكرياتنا... نحن نحمل كوباني معنا، وسنعود لنكتبها من جديد."

ارتفعت أصوات الأطفال من زاوية المخيم، ضحكاتهم ممزوجة بالبكاء، أصواتهم كانت موسيقىً صغيرة تملأ المكان بصدى الحياة. نظرت إلى "روجين"، وقلت لها:
. "شوفي، يا صغيرة... كل خطوة نخطوها هنا، كل دمعة، كل ابتسامة، هي حجر في طريق عودتنا... كوباني تبني نفسها معنا، ونحن نبنيها فينا."

رفعت أمي وجهها إلى السماء، وابتسمت رغم الثقل الذي يكسو روحها:
. "حتى لو طال المنفى، حتى لو طال الانتظار، نحن نحمل المدينة في قلوبنا. وكل غياب، مهما طالت مدته، لا يمحو الجذر."

وفي ذلك المساء، جلسنا جميعاً حول النار الصغيرة، نغزل من الدخان والخوف حكايات أمل، نخطط في صمتنا لعودةٍ لا تعرف البعد، ولمدينةٍ لم تنسنا، ولأطفالنا الذين سيكبرون على وعود لم تفقد.

الحلم بالعودة أصبح قوتنا، ونورنا، ووطنا في قلب الغربة. كوباني ليست مجرد مكان... هي وعد، هي صمود، هي ذكرى حية، هي المستقبل الذي سنصنعه بأيدينا، بدموعنا، بإصرارنا، وبقلوبنا التي لا تنسى، وبأولئك الذين سيأتون بعدنا ليعرفوا أن الغربة ليست نهاية، بل بداية لحياة تبنى على الحنين، على الأمل، وعلى حلم العودة الذي لا يموت، وعلى عهدٍ صامت بيننا وبين المدينة، بأننا سنظل نحملها فينا، مهما بعدت المسافات، ومهما طال الزمان، ومهما حاولت الرياح أن تفرقنا عن جذورنا وأحلامنا.

التغريبة الكوبانية: ملحمة لم تنتهِ

التغريبة الكوبانية ليست حدثاً مضى، بل ملحمة مستمرة، رواية لم تكتب نهايتها بعد، تتجاوز الزمن، تتجاوز المسافات، وتتجاوز كل ما حاولت الحرب والمنافي أن تفرضه علينا من نسيان. إنها قصة الفقد والرحيل والغربة والمنفى، لكنها في الوقت نفسه قصة الصمود، عن الحلم الذي يشرق في قلب كل مغترب، عن الرجاء الذي يرفض الانكسار مهما عصف الألم.

جلست أمي على حافة خيمتنا، تحدق في السماء الرمادية، حيث تتشابك الغيوم مع الريح وكأنها تتجادل مع الزمن نفسه، وقالت بصوت خافت:
. "يا ولدي... كل عام نعيد فتح هذا الدفتر، كل عام نكتب فيه ما تركناه خلفنا... لكن هل سيقرأ أحدنا يوماً هذه السطور؟"

أمسكت بيديها، وقلت لها بعزمٍ ممتلئ بالحنين:
. "سوف نقرأها نحن، يا أمي... وكل من يأتي بعدنا سيقرأها. كوباني فينا، ونحن في كوباني، وكل كلمة نكتبها هنا هي حجر في طريق العودة."

اقتربت "روجين"، عيناها تتلألأن ببراءة لا تعرف الخوف بعد، ممسكةً دميتها الصغيرة:
. "أخي... هل نحن أبطال هذه القصة؟ هل سنرويها لأطفالنا يوماً؟"

ابتسمت لها، وقلبي يخفق بشدة، وأجبته بصوتٍ هادئ لكنه مفعم باليقين:
. "نعم، يا صغيرة... نحن أبطال هذه الملحمة. كل دمعة ذرفناها، وكل ابتسامة احتفظنا بها وسط الخراب، كل خطوة قطعناها على طرقات المنفى... كلها حكايات بطولية. نحن الرواة، ونحن الأبطال."

وفي زاوية المخيم، جلس موسى، جارنا العجوز، ويده ترتجف على عصاه. نظر إلينا بعينين تعبتان من الانتظار لكنه امتلأتا بالأمل:
. "لقد فقدنا مدينتنا، ولكننا لم نفقد ذاكرتنا. لقد عشنا الغربة، وعرفنا ألمها... لكننا علمنا أيضاً كيف نحمل الوطن معنا، حتى وإن كان مختبئاً بين القلب والحنين."

أمي رفعت وجهها إلى السماء، والدموع تنساب على خديها، وقالت بحزن واختلاط الأمل:
. "كل عام، نعيد كتابة ذكرياتنا، وكل عام، نحلم بالعودة... كوباني لم تغادرنا أبداً، ونحن لم نغادرها."

هدأت الريح قليلاً، لكن صوتها ما يزال يحمل رائحة التراب، ورائحة المطر القادم، ورائحة الذكريات. اقتربت "روجين" مني، ويدها الصغيرة في يدي، وقالت بخوفٍ وفضول:
. "أخي... هل سيستمر الحلم معنا دائماً؟ حتى لو طال الزمن؟"
ابتسمت لها، ومسحت دموعها الصغيرة، وقلت بصوت يرتجف بالحنين والعزم:
. "الحلم لن يموت، يا صغيرة... طالما هناك قلب ينبض، وطالما هناك دمعة تذرف، وطالما هناك ذكرى تعيش فينا. كوباني ليست مجرد مكان... إنها وعد، إنها روح، إنها قصة لن تنتهي."
وفي تلك اللحظة، شعرنا جميعاً، نحن الباقون من التغريبة، بأننا لسنا مجرد لاجئين في منفى بعيد، بل نحن حراس الذاكرة، حماة الجذور، رواة قصة شعبٍ رفض الانكسار، رفض الاستسلام، وظلّ ينبض بالحياة رغم كل شيء.
خرجنا من كوباني، نعم، لكن كوباني لم تخرج منا أبداً. كل شارعٍ محفور في الذاكرة، كل نافذة مضاءة في الحنين، كل ضحكة اختبأت في الزوايا، كل دمعة ذرفناها في المنفى، هي المدينة نفسها، هي الوطن ذاته، هي القوة التي تجعلنا نكتب ونحلم وننتظر.
وفي مثل هذا اليوم من كل عام، نفتح دفاترنا، نكتب، نغني، نهمس، نعلن للعالم: نحن هنا... نحن باقون... وكوباني، مهما ابتعدنا عنها، ستظل نبضنا، وستظل وعدنا الذي لا يموت، وستظل بداية كل حلم جديد، لكل غريب يعرف أن العودة ليست مجرد مكان، بل روح لا تقهر، لا يمكن أن ينسى، ولا يزول مهما طال المنفى ومهما عصف الغياب.

عندما يبكي المطر بصمت

توارى الليل خلف ثوبٍ كثيفٍ من السواد، يتنفس أنفاسه الثقيلة بين أزقة القرية، كأن الأرض تخبئ سرّاً تخشى البوح به. الغيوم الرمادية تدلّت فوق البيوت الطينية، كأنها تريد أن تمحو الحدود بين السماء والإنسان. وبدأ المطر يهوي، لا بعنفٍ ولا رقة، بل بإيقاعٍ ثابت يشبه طرقات يدٍ قديمة على بابٍ مغلق منذ زمن.

جلس رامي عند النافذة، أمامه كوب شاي بارد ودفتر صغير لم يفارقه منذ صباه. لم يكن الدفتر مجرد أوراق؛ بل مقاماً لهروبه، وصندوقاً لأسرارٍ لم يجرؤ أن ينطق بها. فتحه لا كقارئٍ يبحث عن الكلمات، بل كغريبٍ يستعيد ظلاً قديماً، أو بقعة ضوءٍ غابت في العتمة. كان المطر في الخارج يهمس بما لا يسمعه أحدٌ سواه.

تذكر والده، مروان، الرجل الذي شبّهه الناس بالحجر: صارمٌ، قاسٍ، قليل الكلام، كأن الكلمات خلقت لتعذبه. يقضي نهاراته بين دخان السجائر ومرار القهوة، ولم يرَ رامي في ابتسامته سوى انحناءة شفاهٍ متعبة. وإذا سُئل عنه المارّة قالوا: "ليس كل جرحٍ بحاجةٍ إلى بوح." لكن رامي كان يتوق إلى كلمةٍ واحدة تشفي فراغاً يتسع داخله بلا نهاية.

أما أمّه، ليلى، فلم تكن امرأةً عابرة، بل صبراً يتخذ شكل الماء. وجهها أرهقه الزمن، لكنها كانت تزرع الأمل في قلب الخراب، تحوّل الصغير إلى كبير: رغيفاً ساخناً، رقعةً على ثوب، أو حكايةً تُروى قبل النوم. كانت تبكي بصمتٍ في عزلتها، دموعها أقرب إلى صلاةٍ طويلة. ورامي كان يرى دموعها تلك كغيمةٍ تشتعل في صدره، دون أن يمد يده لينقذها من وحشتها.

وفي تلك الليلة الممطرة، انكسر صمت البيت بصوت والده وهو يدخل الغرفة بخطواتٍ ثقيلة، وعلى شفتيه كلامٌ كتب ليقال بلا نقاش:

. "أما زلت مستيقظاً يا رامي؟"

. "نعم، يا أبي."

. "لقد كبرتَ... وحان وقت أن ترتب حياتك، أن تتزوج قبل أن يفوتك الأوان."

سقطت كلمة "زواج" على قلبه كحجرٍ بارد. لم تكن الكلمة وحدها مؤلمة، بل طريقة فرضها، كأن للزواج موعداً تدفعه الأيام قسراً. صمتٌ طويل تخلله همس رامي:

. "لا أريد الآن."

زمجر مروان بصوتٍ اعتاد البيت ارتجافه:

. "استيقظي يا ليلى! اسمعي ما يقوله هذا العاق!"

لكن الصمت أجاب. مدّ رامي يده بارتباك نحو السرير، رفع الغطاء، فإذا بوجه أمه شاحباً، وقد انسحب منه النور نهائياً. كانت تلك لحظة اكتمال الغياب، لحظة أدرك فيها أن كل الكلمات التي لم تُقل صارت بلا جدوى.

صرخ صرخةً هزّت جدران البيت:
. "أمّاه!"

وخرج يركض إلى الشارع، المطر يلتف حوله كأنه يريد خطفه من الدنيا، وصوته يتردّد في أزقة القرية:
. "ماتت أمي!"

في الصباح، تحرك موكبٌ صغير نحو التلّ. سار رامي متثاقل الخطى، كأن التراب يجرّه معه. تساقطت الكلمات التقليدية على مسامعه: "اصبر يا بني"، "الموت قدر"، "إنا لله وإنا إليه راجعون". كلماتٌ باهتة، كأوراقٍ مبتلة لا تلتصق بأي جوهر.

وقف أمام القبر، ورفع بصره إلى السماء الملبدة، وهتف بصوتٍ خافت:
. "لماذا؟ إذا كانت الحياة انتظاراً ينتهي بالموت، فما الذي يجعلها جديرة بأن نعيشها؟"

لم يجبه أحد. حتى الغيوم اكتفت بإعادة صدى السؤال كأنه سقط في بئرٍ بلا قرار. اقترب شيخٌ عجوز، وضع يده على كتفه وقال:
. "الحياة امتحان، والصبر مفتاحه."

لكن رامي لم يسمع إلا صدى المطر وهو يتساقط على التراب. التقط حفنةً من الأرض المبتلة، شعر ببرودتها تخترق أصابعه، فاندفعت إلى ذاكرته صورٌ قديمة: ضحكة أمه وهي تطبخ، يداها وهي تمسح وجهه، صلاتها في الليل، وسجائر أبيه التي أحرقت عمراً بأكمله. كل تلك الصور بدت كأزهارٍ ذابلة تحت المطر.

عاد إلى البيت مثقلاً بالفراغ. صار يكتب في دفتره كلماتٍ لا هي شعر ولا نثر، بل محاولة يائسة ليسمع صدى نفسه قبل أن يبتلعه النسيان. وفي المساءات الممطرة، كان يفتح النافذة، يشتمّ رائحة الأرض، ويعيد طرح سؤاله الأزلي: هل الحياة انتظارٌ لشيءٍ لا يأتي؟

ومع مرور الأيام، تعلم رامي أن للسكون لغته. لم ينسَ والده، لكنه كفّ عن معاتبته. ومروان، بدوره، صار ينظر إلى ابنه نظرةً مختلفة، كأنه أدرك متأخراً أن ما فشل في قوله، قد حُفر في صمت الوجوه.

وفي إحدى الأمسيات، حين عاد المطر يطرق الزجاج برفق، جلس رامي أمام دفتره وابتسم ابتسامةً باهتة. لم تكن ابتسامة فرح، بل اعتراف هادئ بأن المطر لا يأتي ليعاقب أو ليواسي، بل ليذكّرنا بأننا نعيش وسط فعلٍ أعمى — مثل الحياة نفسها — يعلّمنا كيف نحمل حزننا ونمضي.

أغلق الدفتر، ونظر إلى النافذة حيث انعكست قطرات الماء كنجومٍ صغيرة على الزجاج. لم يجد إجابة، لكنه شعر أنه لم يعد وحيداً مع سؤاله.

على أجنحة المطر

كان المساء في قريةٍ كورديةٍ محاصَرة بالجبال، يشبه جرحاً مفتوحاً لا يندمل. الغيوم تزاحمت فوق القمم كأنها جيوشٌ من دخان، والمطر بدأ ينهمر أول الأمر ببطء، ثم اشتد حتى صار كطَبلٍ أبكم يقرع أبواب البيوت الحجرية.

في بيتٍ قديمٍ على حافة الوادي، جلس آرام أمام النافذة يتأمل قطرات المطر وهي تنحدر على الزجاج مثل دموعٍ معلَّقة. أمامه دفترٌ قديم، وبجواره شمعة تتمايل مع هبوب الريح، كأنها تخشى أنْ تنطفئ.

أغمض عينيه، فإذا بذاكرته تمتلئ بصورة أمه زوزان؛ تلك المرأة التي كانت تضحك حتى وهي تبكي، وتخبز الخبز على التنور بينما تروي له حكايات عن الأبطال والغرباء والأنهار. كان يسمع صوتها الآن يتردّد بين ضربات المطر:

. "آرام... لا تدع قلبك ينكسر، فالمطر لا يسقط ليغرِقنا، بل ليغسل أرواحنا."

لكن زوزان لم تعد. رحلت في ليلةٍ شبيهةٍ بهذه، حين اجتمع المطر مع البرد ليخطفا أنفاسها الأخيرة.

فتح آرام دفتره، وكتب بخطٍّ مرتجف:
"كل مطرٍ منذ رحيلك، يا أمي، يتحول إلى جنازةٍ جديدة."

دخل والده هارون فجأة، بوجهٍ غليظ كجدارٍ قديم:
. "ما زلتَ تكتب؟"
. "أكتب كي لا أموت."
. "الحياة لا تعاش على الورق، يا ولدي. لقد كبرتَ، والقرية كلها تنتظر أن ترى لك بيتاً وزوجة."
. "أنا لا أريد الزواج الآن."
. "إذن ماذا تريد؟ أن تبقى عبداً لدفترك؟!"

سكت آرام، ولم يرد. لكن بداخله كانت العاصفة أعتى من المطر.

في الصباح التالي، خرج إلى الوادي. الأشجار المبتلة تميل كأنها تصلي، والطيور تختبئ في أغصانها. هناك التقى دلشير، صديقه منذ الطفولة، يحمل بندقيةً قديمة على كتفه.

. "إلى أين تمضي يا آرام؟"
. "إلى المطر."
ضحك دلشير:
. "المطر لا يجيب يا صديقي. تعال معنا، الشباب يستعدون لمغادرة القرية. الحرب تقترب، والجبال صارت ساحةً للغرباء."

. "وأنا... لا أستطيع الرحيل. أمي مدفونة هنا، وذكرياتي كلها مربوطة بجذور هذه الأرض."

اقترب دلشير منه، وضع يده على كتفه وقال:
. "إذن اكتب، يا آرام. اكتب ما يحدث، فربما تصبح حكايتك يوماً جسراً نعبر عليه جميعاً."

في تلك الليلة، والمطر يزداد غزارة، طرق البابَ طرقٌ خفيف. فتح آرام، فإذا بها هيفدار، ابنة خالته، بثوبٍ مبتل ووجهٍ شاحب.

. "آرام... هل تسمح لي بالدخول؟"
. "ماذا حدث؟"
. "لقد أخذوا أخي... الجنود اقتادوه إلى مكانٍ مجهول. لم يبقَ لي أحد."

جلسا قرب النار. صمتٌ ثقيل يخيّم، لا يقطعه إلا أصوات الحطب وهو يتشقق. نظرت إليه بعينين غارقتين بالدمع:

. "لماذا نحن دائماً نُترَك؟ لماذا يأخذون منّا كل شيء؟"
. "لأننا نكتب أسماءنا على المطر... والمطر لا يبقى."
. "أنت وحدك من يستطيع أن يجعل الأسماء تبقى. اكتب يا آرام... اجعلهم يعيشون على الورق حتى لو غابوا عن الأرض."

ابتسم بمرارة وقال:
. "لكن الورق ضعيف، والدفاتر تحترق."
. "والذاكرة؟"
. "الذاكرة تموت إن لم تجد من يحملها."
مرّت أسابيع. الحرب اقتربت أكثر، الجنود يقتحمون البيوت، والليل صار ممتلئاً بالصرخات. لكن آرام ظل يكتب. كتب عن أمه، عن دلشير، عن هيفدار، عن القرية والأنهار، وعن المطر الذي يجيء ولا ينقطع.
وذات مساءٍ عاصف، عاد والده ليجد البيت فارغاً إلا من دفترٍ مفتوح على الصفحة الأخيرة:
"إن رحلتُ يوماً، فاعلموا أنني لم أهرب. لقد ذهبتُ أبحث عن مطرٍ لا ينطفئ، وعن غيابٍ لا يسرق الأسماء."
في الخارج، كان صوت الرصاص يختلط بصوت المطر.
بعد سنوات، وفي قلب القرية، على جدارٍ حجري قديم، وجد الأطفال أوراقاً مهترئة بخطّ آرام. كانت تحكي عن الأمهات، عن البيوت، عن المطر الذي لا يخون. وصاروا يقرأونها كل مساء، كأنها صلاة، حتى أدركوا أن الغياب يمكن أن يتحول إلى حياةٍ أخرى.
وهكذا، لم يمت آرام.
بل صار مطراً جديداً، يسقي قلوبهم كلما أظلم الليل.

حنين تحت سماء الشتاء

كان الشتاء في القرى البعيدة لا يأتي كفصلٍ عابر، بل كقدرٍ ثقيلٍ يُنزله الله على الأرض ببطء، كأنّه يختبر قدرة الأرواح على الاحتمال، ويقيس صبر القلوب التي لم يعد لها من عزاءٍ سوى الانتظار. لم تكن الرياح الشمالية تهبّ فحسب، بل كانت تنوح كأمٍ فقدت أبناءها في ليلةٍ واحدة، تدور حول البيوت الطينية، وتضرب الأبواب والنوافذ بأصابع باردة، كأنها تبحث عن اسمٍ نسيته، أو وجهٍ لم تعد قادرةً على تذكره. كانت تحمل معها رائحة الغياب؛ ذلك الغياب الذي لا يرى، لكنه يُثقل الصدر كما يُثقل الثلج أغصان الأشجار اليابسة.

وكانت السماء الرمادية، الممتدة بلا نهاية، تبدو كأنّها نسيت كيف تكون زرقاء، أو ربما قررت أن تتخلى عن لونها القديم، بعدما أدركت أن الفرح لم يعد يسكن هذه الأرض. كانت منخفضةً على غير عادتها، قريبةً إلى حدٍ يجعل المرء يشعر أنّه لو رفع يده قليلاً، للمس حزنها العالق فوق رؤوس البيوت.

بدت القرية نفسها كأنها دخلت في صمتٍ أبدي، صمتٍ لا يشبه السكون بقدر ما يشبه الغياب.

الطريق الترابي، الذي كان يوماً نابضاً بخطوات العابرين، صار الآن مغطى بطبقةٍ بيضاء كثيفة، تخفي تحتها آثار سنواتٍ من الحياة التي مرّت ولم تعد. الأشجار، التي كانت في الربيع تتزين بالأخضر وتقف كفتياتٍ صغيراتٍ يحتفلن بالحياة، أصبحت الآن هياكل صامتة، تمدّ أغصانها اليابسة نحو السماء، كأنّها تستجدي دفئاً لن يأتي.

لم يعد هناك صوت.

لا ضحكات أطفال.

لا نداءات أمهات.

لا وقع أقدامٍ عائدةٍ عند الغروب.

حتى الكلاب، التي كانت تنبح في الليالي الباردة، صارت تختبئ في صمت، كأنّها أدركت أن لا أحد سيجيب نداءها، وأن العتمة أصبحت أوسع من أن تخترق بصوت.

وكانت النوافذ...

تلك النوافذ الصغيرة، التي كانت تضيء في المساء وتعلن أن هناك حياةً خلف الجدران، قد انطفأت واحدةً تلو الأخرى، حتى لم يبقَ منها سوى نافذةٍ واحدة، في بيتٍ صغير عند طرف القرية، كانت تلمع بخفوت، كعينٍ عجوزٍ تأبى أن تغمض، خوفاً من أن تفقد آخر ما تبقى لها من ذاكرة.

في ذلك البيت، كانت الجدران تحتفظ بأسرار سنواتٍ طويلة، وكانت الأرض تعرف وقع خطواتٍ لم تعد تمرّ فوقها. كان الباب الخشبي، الذي أكل الزمن أطرافه، يئنّ كلما حركته الريح، كأنه يشكو وحدته، أو يستعيد في أنينه صدى أيدٍ كانت تفتحه يوماً بحب، ثم غابت ولم تعد.

وكان البرد هناك مختلفاً.

لم يكن مجرد هواءٍ متجمّد، بل كان شعوراً يتسلل إلى الداخل، يستقر في الزوايا، ويجلس بصمتٍ قرب الأشياء التي لم تعد تستخدم. كان يلامس الكرسي الخالي، ويتكئ على الطاولة التي لم يعد أحد يجلس حولها، ويتسلل إلى السرير الذي صار واسعاً أكثر مما ينبغي، بعد أن غاب عنه نصفه الآخر، وترك خلفه فراغاً لا يمكن للدفء أن يملأه.

حتى الساعة المعلقة على الجدار، كانت تدقّ ببطء، كأنّها متعبة من عدّ زمنٍ لم يعد يحمل جديداً.

تك...

تك...

تك...

كل دقةٍ كانت تشبه نبضة قلبٍ يرفض أن يتوقف، رغم أنه لم يعد يجد سبباً واضحاً للاستمرار، سوى عادة البقاء.

وخارج ذلك البيت، كانت الريح تمرّ عبر الأزقة، وتحمل معها حكايات الذين رحلوا. كانت تعرف أسماءهم جميعاً، وتعرف الأبواب التي خرجوا منها، ولا يزال صدى خطواتهم عالقاً في ذاكرتها. كانت تمرّ على كل بيت، وتتوقف لحظة، كأنّها تنتظر أن يفتح أحد، أو أن يعود صوتٌ قديم، أو أن تخرج يدٌ مرتجفة تبحث عن شيءٍ فقدته منذ زمن.

لكن لا أحد كان يفتح.

لأن الذين كانوا يفتحون الأبواب...

رحلوا.

ولأن الذين بقوا...

لم يعودوا ينتظرون أحداً.

إلا قلباً واحداً...

لا يزال، رغم كل شيء، يرفض أن يتعلم كيف يتوقف عن الانتظار.

في تلك القرية التي نسيها الطريق، حيث كانت الأزقة الضيقة ترقد تحت طبقةٍ كثيفة من الصمت، كان بيتٌ طينيٌ صغير يقف وحيداً عند طرف التل، كشيخٍ متعبٍ لم يعد يقوى على السير مع الآخرين. وفي ذلك البيت، قرب مدفأةٍ قديمةٍ تتنفس ببطء، كانت تجلس امرأة تدعى "رحمة".

بلغت رحمة من العمر ما يجعل الأيام تتشابه، وما يجعل الذاكرة أثقل من الجسد. كانت يداها، اللتان كانتا يوماً قادرتين على حمل الحطب ونسج الصوف، ترتجفان الآن كغصنين في مهبّ الريح. وكان وجهها، الذي كان في شبابها يشبه صباحات الربيع، قد صار خريطةً دقيقةً من الخطوط، كلّ خطٍ فيها يحكي قصة خسارة، أو انتظار، أو وداعٍ لم يكتمل.

كانت تحدّق في النار، لا لأنها تحتاج إلى دفئها، بل لأنها كانت الشيء الوحيد الذي لا يزال يتحرك في حياتها.

النار لا تخون.
النار لا ترحل.
النار تبقى... حتى تنطفئ.

لكنها، رغم ذلك، كانت تعرف أن كل شيءٍ آخر في حياتها قد رحل.

في شبابها، لم تكن القرية صامتة كما هي الآن. كانت تمتلئ بالأصوات، بالأغاني، وبخطوات الأطفال وهم يركضون خلف أحلامٍ صغيرة، لا يعرفون أنها ستضيع يوماً ما. كانت تتذكر نفسها وهي تمشي بين الحقول، وشعرها الأسود يتمايل خلفها، وعيناها تلمعان كأنهما تحملان وعداً سرياً مع الحياة.

وكان هناك طفل.

طفلٌ صغير، كان يمسك بطرف ثوبها ويسألها عن كل شيء.

— "أمي... لماذا السماء بعيدة؟"

فتضحك، وتجيبه بصوتٍ مغمورٍ بالحنان:

— "لكي يبقى لدينا شيء نشتاق إليه."

كان اسمه يوسف.

وكان عالمها كله.

كبر يوسف، كما تكبر الأشياء التي لا نلاحظ نموها إلا حين تبتعد عنا. صار شاباً، وصارت عيناه تحملان ذلك القلق الذي يسكن عيون الذين يعرفون أن عليهم الرحيل. لم يكن يريد أن يتركها، لكنها كانت ترى ذلك في صمته، وفي طريقته وهو ينظر إلى الأفق، كأنّه يسمع نداءً لا تسمعه هي.

في تلك الليلة، حين أخبرها أنه سيذهب إلى المدينة، لم تبكِ.

ابتسمت فقط.

لأن الأمهات يعرفن أن الحب الحقيقي ليس أن تحتفظ بمن تحب، بل أن تسمح له أن يذهب.

لكنها، حين أغلقت الباب بعد رحيله، شعرت أن شيئاً في قلبها قد خرج معه... ولم يعد.

في البداية، كانت الرسائل تصل.

كانت تمسك الورقة بكلتا يديها، وتقرأ كلماته ببطء، كأنها تخشى أن تنتهي. كانت تعيد قراءتها مراتٍ عديدة، حتى تحفظها، وحتى تصبح كلماته جزءاً من صوتها الداخلي.

كان يكتب:

"أمي... المدينة كبيرة، لكنها لا تشبه دفء يديك."

"أمي... أشتاق إلى خبزك."

"أمي... سأعود قريباً."

وكانت تصدقه.

كانت دائماً تصدّقه.

لكن الرسائل بدأت تتباعد.

ثم أصبحت نادرة.

ثم... توقفت.

وكأن الزمن، الذي منحها تلك الكلمات، قرّر أن يستعيدها منها.

مرّت الشهور بطيئة، ثقيلة، بلا صوت.

كانت تستيقظ كل صباح، تفتح الباب، وتنظر إلى الطريق الأبيض الممتد أمامها، كأنها تتوقع أن تراه واقفاً هناك.

لكن الطريق كان فارغاً.

دائماً فارغاً.

وفي الليل، كانت تسمع صفير الريح، فتتخيّل للحظة أنها خطوات.

كانت تنهض.

تفتح الباب.

ولا تجد أحداً.

فقط الشتاء.

فقط الفراغ.

فقط نفسها.

وفي إحدى الليالي، حين صار الصمت أثقل من قدرتها على احتماله، لم يكن الليل مجرد وقتٍ عابر، بل كان كائناً جالساً معها في الغرفة، يتنفس ببطء، ويراقبها بعينين غير مرئيتين. كانت الساعة المعلقة على الحائط تواصل دقها البارد، كأنها لا تعدّ الزمن، بل تعدّ ما تبقّى منها.

جلست قرب الطاولة، تلك الطاولة التي شهدت كل تحولاتها الصامتة؛ شهدت ضحكاتها القديمة، حين كانت الحياة لا تزال ممكنة، وشهدت أيضاً انهياراتها، حين صار كل شيء مجرد ذكرى مؤجّلة. مرّرت أصابعها فوق سطحها الخشبي، كأنها تتحسس آثار زمنٍ لم يعد هنا، كأنها تبحث عن بقايا نفسها بين خطوط الخشب، بين الشقوق التي ربما خبّأت شيئاً منها، ولم تُعده.

أخرجت ورقة.

لم يكن إخراج الورقة فعلاً عادياً، بل كان أشبه بفتح بابٍ نحو هاوية. ظلّت تنظر إليها طويلاً، كما لو أنّ الورقة تنظر إليها أيضاً، تنتظر اعترافاً، أو انهياراً، أو شيئاً يشبه النهاية.

لم تكتب إلى يوسف.

لم تكتب اسمه.

لم تجرؤ.

لأن كتابة اسمه كانت ستجعله أكثر واقعية مما ينبغي، وكانت ستجعل غيابه أكثر حضوراً مما تستطيع احتماله.

بل كتبت إلى الزمن.

كتبت إلى الشيء الوحيد الذي بقي، والشيء الوحيد الذي خانها دون أن يعتذر، ودون أن يترك تفسيراً واحداً يمكن أن يُمسك به القلب كي لا يسقط.

كتبت:

"أيها الزمن... لماذا تمنح الأشياء جمالها، ثم تسلبها؟

لماذا تجعلنا نحب، إن كان علينا أن نفقد؟

لماذا تترك الأمهات ينتظرن... بينما أبناؤهن لا يعودون؟"

توقفت.

لم يكن توقفها ضعفاً، بل كان عجزاً. كان هناك شيءٌ في صدرها أكبر من الكلمات، شيءٌ لا يمكن أن يكتب، لأن الكلمات، مهما بلغت صدقها، تبقى أصغر من الحقيقة، وأقلّ من قدرتها على احتواء ما يتكسّر في الداخل.

نظرت إلى السطر الأخير، إلى كلمة: "لا يعودون".

كانت هذه الكلمة، تحديداً، تحمل كلّ شيء.

كلّ الانتظار.

كلّ الأبواب التي فتحت، ولم يدخل منها أحد.

كلّ النوافذ التي ظلّت مفتوحة، كأنها ترفض الاعتراف بأن الغياب قد أصبح قدراً، لا حادثة.

كانت دموعها تسقط على الورقة ببطء، دون صوت. لم تكن تبكي كما يبكي الناس، لم تكن هناك شهقة، ولا ارتجافة، ولا انهيار واضح. فقط انهمار صامت، كأن روحها هي التي تذوب، لا عيناها.

سقطت دمعة فوق كلمة "نحب"، فاختلط الحبر بالماء، وصارت الكلمة ضبابية، غير مكتملة، كأن الحب نفسه لم يعد واضح المعالم.

وسقطت دمعة أخرى فوق كلمة "يعودون"، فاختفت بعض حروفها، وبقيت الكلمة ناقصة، كما لو أنّ اللغة نفسها فقدت قدرتها على الاكتمال، كما لو أنّ الغياب لا يمحو الأشخاص فقط، بل يمحو الكلمات أيضاً.

راقبت ذلك دون أن تمسح دموعها.

تركتها تسقط.

تركتها تفعل ما تشاء.

لأنها شعرت، للمرة الأولى، أنّ الدموع أكثر صدقاً من الكلمات، وأكثر قدرة على قول ما تعجز اللغة عن احتماله.

رفعت رأسها ببطء، ونظرت إلى الفراغ أمامها. لم يكن هناك شيء. فقط جدار أبيض، صامت، بارد، يشبه مستقبلاً بلا ملامح.

تذكرت يوسف.

لم تتذكر صوته أولاً.

بل تذكرت غيابه.

تذكرت كيف كان وجوده يملأ المساحات التي لم تكن تعرف أنها فارغة. كيف كان حضوره يجعل العالم أقل قسوة، أقل صمتاً، أقل برودة.

وتذكرت أيضاً اللحظة التي أدركت فيها أنه لن يعود.

لم تكن لحظة درامية.

لم يكن هناك وداع.

لم تكن هناك كلمات أخيرة.

فقط، في أحد الأيام، انتظرت... ولم يأتِ.

وفي اليوم التالي، انتظرت... ولم يأتِ.

ثم مرّ أسبوع... ثم شهر... ثم عام...

وفي كلّ مرة، كانت تتعلم شكلاً جديداً من الخسارة.

خسارة لا تحدث دفعة واحدة، بل تتسرب ببطء، كالماء، حتى تُغرق كلّ شيء.

أنهت الرسالة، لكنها لم تطوِها.

ظلّت الورقة أمامها، مفتوحة، عارية، كأنها جرحٌ يرفض أن يُغلق، أو حقيقةٌ ترفض أن تُنسى.

لم تشعر بحاجة إلى إخفائها.

لم يكن هناك أحد ليقرأها.

لم يكن هناك أحد، أصلاً.

تركتها على الطاولة.

كأنها كانت تعرف أن أحداً لن يقرأها.

أو ربما...

كانت تأمل، في مكانٍ ما عميق داخلها، أن الزمن نفسه سيأتي، ذات يوم، ويجلس على هذا الكرسي، ويقرأ.

أن الزمن سيشعر، ولو لمرة واحدة، بثقل ما فعل.

أن الزمن، الذي أخذ كلّ شيء، سيعيد شيئاً واحداً فقط.

شيئاً صغيراً.

صوتاً.

خطوة.

أو حتى وهماً يشبه العودة.

لكنها كانت تعرف الحقيقة.

الحقيقة التي يتعلمها الجميع متأخرين.

الزمن لا يقرأ الرسائل.

ولا يعتذر.

ولا يعود.

أطفأت الشمعة.

لم يكن الظلام مختلفاً كثيراً عن الضوء.

جلست في العتمة، دون حركة، دون صوت، كأنها أصبحت جزءاً من الليل نفسه، أو كأن الليل أصبح جزءاً منها.

وعلى الطاولة، بقيت الورقة.

تجفّ عليها الدموع ببطء.

كما تجفّ الحياة...

في قلبٍ تعلم، أخيراً، أن الانتظار لا يعيد أحداً.

***

في صباح اليوم التالي، استيقظت على صوت طرقٍ خفيف على الباب.

ظنّت في البداية أنه وهم.

لكن الطرق تكرر.

نهضت ببطء، وكانت كل خطوة كأنها تعبر سنوات، لا أمتاراً.

فتحت الباب.

وكان هناك شاب.

لم يكن يوسف.

لكنه كان يحمل رسالة.

قال بصوتٍ هادئ:

— "هذه لك."

ارتجفت يداها وهي تأخذ الظرف.

عرفت خطه فوراً.

جلست.

فتحت الرسالة.

وبدأت تقرأ.

"أمي...

إن كنت تقرئين هذه الرسالة، فهذا يعني أنني تأخرت كثيراً.

سامحيني.

كنت أريد أن أعود، لكن الحياة هنا كانت أقسى مما توقعت. كنت أعمل، وأنتظر، وأحلم أن أجمع ما يكفي لأعود إليك، لا كابنٍ خائب، بل كرجلٍ تستطيعين أن تفخري به.

لكن الأيام كانت أسرع مني.

والمدينة... لم تكن أماً لأحد.

أمي...

أنا مريض.

ولا أعرف إن كنت سأراك مرة أخرى.

لكنني أريدك أن تعرفي شيئاً واحداً:

لم يكن هناك يومٌ واحد لم أشتق إليك فيه. ولا ليلة واحدة لم أتمنَّ أن أعود."

توقفت رحمة عن القراءة.

كانت الكلمات تهتز أمام عينيها.

لا لأنها لم تعد تراها بوضوح...

بل لأنها فهمتها بوضوحٍ يفوق قدرتها على الاحتمال.

رفعت رأسها ببطء.

نظرت إلى الباب.

إلى الطريق.

إلى الشتاء.

ثم همست، بصوتٍ بالكاد سمعته:

— "أنا هنا يا يوسف... أنا هنا."

لكن الطريق...

ظل صامتاً.

في تلك الليلة، جلست قرب المدفأة. كانت النار أضعف من المعتاد. وكان البرد أقسى. وضعت الرسالة قرب قلبها.

وأغلقت عينيها.

وللمرة الأولى منذ زمنٍ طويل...

لم تكن تنتظر.

وفي الصباح، حين دخل أحد الجيران ليطمئن عليها، وجدها جالسة كما هي.

هادئة.

صامتة.

وكأنها نائمة.

وكانت الرسالة...

لا تزال بين يديها.

وخارج البيت، كان الشتاء مستمراً. لكن في مكانٍ ما، بعيداً عن القرى، وعن المدن، وعن الزمن نفسه...

لم تعد رحمة تنتظر.

لقد عادت أخيراً...

إلى ابنها.

في مدينةٍ تحاسِبُ على الأحلام

في مدينةٍ لا يسمح فيها بالغفوة أكثر من دقائق معدودة، حيث يراقَب النبض كما تراقَب النوايا، ويصادر الحلم كما تصادر المخالفات المرورية، ولدتُ.

لم يكن الميلاد في تلك المدينة بدايةً للحياة، بل بدايةً للمراقبة. منذ اللحظة الأولى، لم يكن يسجل اسمك فقط، بل احتمالاتك أيضاً؛ احتمالات أن تحلم، أن تنحرف عن الواقع الرسمي، أن ترى ما لا ينبغي أن يرى. كانت المدينة تخشى ما يحدث داخل الإنسان أكثر مما تخشاه خارجه، لأن الداخل لا يمكن إخضاعه بسهولة... إلا بالخوف.

على كل زاويةٍ، كانت هناك لافتة تحمل العبارة نفسها:
"لا تحلم وحدك... فالحلمُ ملكٌ للسلطة."

لم نفهم معناها تماماً ونحن صغار، لكننا كنّا نشعر بثقلها. كنا نرى دورياتٍ من رجالٍ بلا ملامح، وجوههم مغطاة بأقنعةٍ رمادية، يجوبون الشوارع حاملين أجهزةً صغيرة تومض بضوءٍ بارد، أجهزةٌ قيل لنا إنها تقيس "ذبذبات المخيلة". لم نكن نعرف كيف يمكن لجهازٍ أن يسمع حلماً، لكننا كنا نعرف أن الأحلام، منذ تلك اللحظة، لم تعد آمنة.

لم نكن نخاف الجوع.
الجوع كان شيئاً يمكن احتماله.
لكننا كنا نخاف أن نبتسم بلا سبب، أن نغفو في الحافلة فنرى وجهاً غائباً، أو نسمع أغنيةً قديمة فتفتح في داخلنا نافذةً نُسيَت عمداً. لأن كل ذلك كان يُسجَّل.
لم تكن الأحلام تعتبر ضعفاً... بل كانت تعتبر جريمة.

كان اسمي مدوَّناً في ملفات المراقبة منذ طفولتي المبكرة، ليس لأنني فعلت شيئاً، بل لأنني حلمتُ بشيء.

في إحدى الليالي، سمعتني أمي أتكلم أثناء نومي. كنتُ أتمتم بصوتٍ خافت، كأنني أخشى أن يسمعني أحد، حتى وأنا غارقٌ في اللاوعي. اقتربت مني، وضعت يدها على جبيني، وأصغت.

قلتُ:
— "أريد أن أطير."

لم يكن ذلك مجرد كلام طفل، في نظرهم.
كان مؤشراً.

في الصباح، لم تنظر إليّ أمي كما كانت تفعل عادة. كان في عينيها خوفٌ لم أفهمه آنذاك. أخبرت أبي، ولم يقل شيئاً. فقط أمسك بيدي، وخرجنا.

سرنا معاً في شوارع المدينة الصامتة، حتى وصلنا إلى مبنى رمادي بلا نوافذ، تعلو بابه لافتة تقول:
"قسم التأديب الوقائي."

هناك، جلستُ على كرسي أعلى من جسدي الصغير، فيما كان رجل يرتدي معطفاً أبيض يحدّق في ملف أمامه، ثم ينظر إليّ، ثم يعود إلى الملف، كأنني لم أكن طفلاً، بل احتمالاً.

قال بصوتٍ بارد:
— "الحلم ليس حقاً... الحلم مسؤولية. وبعض الأحلام... أخطاء."

لم أفهم كل ما قاله، لكنني فهمت شيئاً واحداً:
أن عليّ، منذ تلك اللحظة، أن أخفي نفسي... عن نفسي.

كنتُ في الثامنة.

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد هناك شيءٌ فيّ غير مرصود. نظراتي إلى السماء أصبحت تلاحظ. دفاتري أصبحت تُفتَّش. الكلمات التي أتردد في قولها أصبحت أكثر خطورة من الكلمات التي أقولها. حتى الصمت لم يعد آمناً.

لم تكن المدينة مجرد أبنية وشوارع، بل كانت وعياً جماعياً خائفاً، يعيد تشكيلك ببطء، حتى تصبح نسخةً صالحة للواقع المفروض. كل شيء كان محسوباً: عدد المرات التي يسمح لك أن تبكي فيها، نوع الموسيقى التي يمكنك سماعها، الألوان التي يمكنك ارتداؤها، وحتى الكلمات التي يمكنك أن تحب بها.

أما الأحلام... فكان يجب حذفها.

لكن، رغم كل ذلك...

كنا نحلم.

لم يكن الحلم قراراً، بل كان غريزة. كان يحدث رغم الخوف، رغم المراقبة، رغم كل شيء. كنا نحلم بصمت، نحلم في أعماقنا، حيث لا تصل الأجهزة، ولا تستطيع السلطة أن ترى. كنا نكتب كلمات لا نجرؤ على قراءتها، ونخفي مشاعر لا نجرؤ على تسميتها، ونعيش حياةً أخرى، لا يعرفها أحد.

كبرتُ، وكان الحلم يكبر معي، يتسلل إلى عروقي كما لو أنه جزء من دمي، مثل سرٍّ لا يمكن التخلص منه، مخفيّ بين اللحظات العادية، بين ضحكات الأطفال في الشوارع وبين أصوات قطارات تنطلق بعيداً عن المدينة. كنتُ أعرف أنني مختلف، ليس لأني أردت ذلك، بل لأني لم أستطع أن أكون غير ذلك، لأن قلبي دائماً كان يهمس بما لا يسمعه أحد. كنتُ أشعر أن هناك شيئاً ينتظرني، شيئاً خارج حدود هذه المدينة، خارج حدود الخوف والروتين، شيء يختبئ بين نوافذ المباني القديمة وظلال الأزقة الضيقة.

لكنني كنت أعرف أيضاً أنّ لكل حلم ثمنه. وأن المدينة، التي تبدو صامتة في الظاهر، تحكم على أحلامنا قبل أن نولد بها، تراقب كل خطوة، كل فكرة، وتكتب علينا غراماً صامتاً. هنا، لم يكن الحالمون أبطالاً، بل كانوا مفقودين، شبحاً يتوه بين أضواء الشوارع ومصابيحها الصفراء، بين مقاهي صغيرة تبعث الدخان في الهواء كما لو أنها تحاول إخراج الأسرار دفعة واحدة.

ومع ذلك، استمررت في الحلم. كنت أراقب السماء في ساعات الغروب، أعد النجوم التي تظهر واحدةً بعد أخرى، وأتخيل أنّ كل نجم يحمل طريقاً جديداً، مفتاحاً لمكانٍ لم أزره بعد، لكنه كان يهمس باسمي دائماً. كنت أكتب في دفاتر صغيرة، على صفحات مشطوبة أحياناً، أحكي عن مدينة أخرى، عن حياة أخرى، عن مواجهة لم يخبرني بها أحد، عن امرأة ربما لا أعرفها بعد، لكنها كانت موجودة في كل طيف ضوء، في كل انعكاس للزجاج، في كل همس للريح بين الأشجار.

ثم جاء ذلك المساء...

المساء الذي تغير فيه كل شيء.

كانت المدينة مبللة بالمطر، شوارعها تتلألأ كأنها لوحة زيتية، كل انعكاس في المياه الراكدة يحمل وجوهاً لم أرها من قبل، لكنه بدا مألوفاً بطريقة لم أستطع تفسيرها. وأنا أسير بين الأرصفة، شعرت بأن الزمن توقف، أو ربما أنني توقفت أنا عن السير في الزمن نفسه. ثم رأيتها.

وقفت على زاوية ضيقة، معطفها رمادي اللون يلتصق بجسدها بسبب المطر، وعيونها... كانت مثل المرايا التي لا تعكس صورنا، بل تعكس ما نحن عليه داخلنا، كل أحلامنا، كل هزائمنا، كل ندوبنا. لحظة واحدة، شعرت بأن المدينة كلها اختفت، وأن هناك فقط نحن، مجرد نحن، محاطين بألوان المساء، بصوت المطر، بهمسات الريح بين المباني، وبظل طويل لنا على الجدار الصامت.

أدركت حينها أن أخطر ما يمكن أن يحدث في مدينة تحاسب على الأحلام... هو أن يلتقي حلمان.

اقتربتُ منها ببطء، كل خطوة كانت كمن يمشي فوق حبال معلقة بين الماضي والمستقبل، بين الخوف والرغبة، وبين كل شيء تعلمت أن أخافه ولا أستطيع الفرار منه. نظرت إليّ، ولم تبتسم، ولم تحزن، لكن في عينيها كان هناك كل شيء: انتظار سنوات، حنين مخفي، حكايات لم تحكى.

كأننا كنا قد التقينا من قبل، في حلمٍ سابق، أو في واقعٍ آخر، أو في مدينةٍ لم تولد بعد. كل شيء بدا مألوفاً، وكل شيء بدا جديداً. أخرجتُ يدها، وكانت المرة الأولى منذ زمن طويل التي أشعر فيها أن العالم كله يصغي إلى نفس الهمس، نفس اللحظة، نفس التقاء قلبين لم يلتقيا إلا الآن.

وهكذا، وسط المطر، ووسط المدينة التي لا تنام، بدأنا نسير معاً، خطوة بخطوة، كما لو أننا نكتب بداية فصلٍ جديد، لم يسبق أن كتبته أي مدينة، ولم يسمعه أي قلب.

وفي تلك اللحظة، أدركت أن الحلم لم يكن مجرد فكرة، بل كائن حي، ينبض معنا، يسير بين أيدينا، ويرسم لنا الطريق، طريقاً لا يعرف الخوف، ولا الزمان، ولا حتى النهاية.

وكان واضحاً أنه، مهما طال العمر، ومهما حاولت المدينة أن تسرق الأحلام، هناك لحظة واحدة، مجرد لحظة، حين يلتقي حلمان... كافية لتغيير كل شيء.

الفصل الأول: النافذة التي لا تُغلق

في ركنٍ منزوٍ من مدينةٍ تدعى "سراب"، كانت نافذة صغيرة يطل منها موسى، رجلٌ نحيل كظل الحكايات القديمة، طويل كأنّ الحزن مدّ له قامةً من الأبد، وعيونه عميقة كجروف صامتة لم يطرقها أحد. نافذته لم تكن تفتح على شارع، بل على صمتٍ مجلل بالحجارة والعتمة، صمت يبدو وكأنه يراقب كل شيء قبل أن يراقبه البشر. ومع ذلك، كان موسى يفتحها كل صباح، يطل منها كمن يطالع مجرّة سماوية، يبحث عن أي ومضة حياة، عن أي شعاع حرية، عن أي حركة لا تستطيع المدينة أن تدركها.

بيته كان غرفةً صغيرة، ضيقة، كأنها صُممت لتستوعب الحزن وحده. كرسي مكسور يستند إليه، وموقد صغير بالكاد يتنفس جمراً، ودفتر أوراقه صفراء، كأنها أوراق خريف لم تسقط بعد. موسى لم يكن فقيراً بالمعنى المألوف للفقر، بل كان فقيراً بطريقةٍ لا يفهمها إلا من فقد وطناً أو حلماً أو أماناً داخلياً ولم يعلن الحداد. الفقر هنا كان فقدان الأفق، فقدان الحق في التفكير والخيال، فقدان القدرة على أن تكون إنساناً كاملاً في عالم يراقب حتى تنفسك الأخير.

كانت "سراب" مدينة تحرم الحلم. لم تكن تعاقبك إن سرقت، بل إن تخيلت أنك حرّ. لم تكن تراقب كلماتك فحسب، بل كل ما يولد في قلبك من طيف أمنية، من نغمة داخلية، من لونٍ مفاجئ في حلم ليلي. لم تكن مجرد مدينة مراقبة، بل عقل جماعي يتحكم في الإحساس، يتحكم في الرغبات، يتحكم في النبض قبل أن يتحكم في الجسد.

كل صباح، كان موسى يفتح نافذته دون أن يغلقها، كأنها آخر فرصة لرؤية شيء حيّ، شيء لا يمكن للمدينة أن تراقبه. كان يقف مستنداً على الإطار البارد، يراقب الغيوم وهي تجلس على أسطح الأبنية، تتحرك ببطء، كأنها تكتب له رسالة سرية عن الحرية المفقودة. أحياناً يظل صامتاً لساعات، يتحدث داخلياً مع نفسه، مع الغيوم، مع الهواء البارد، كأنه يبحث عن صدى إنسانية قديمة في قلب مدينة خالية من الرحمة.

كان موسى يعرف أن كل ثانية من هذا التطلع ستُسجّل في سجل المخالفات الروحية، لكن قلبه ظل يعلو ويرتجف، ليس فرحاً، بل خوفاً وحنيناً معاً، لأنه يعرف أن هذا الفعل البسيط — مجرد النظر عبر نافذة — هو عصيان، ورفض صامت لكل القوانين المخيفة التي تحاول قمع الروح.

لم يكن موسى يتحدث مع أحد. لم يكن لأحد أن يسمع صوته، إلا دفتره الصغير. فكان يكتب: أسماء فقدها، أشكالاً لم يرها أحد، ألواناً اختفت من العالم، وأحلاماً لم يسمح لها بالظهور. كانت الأوراق صفراء، لكنها تحمل بداخلها حرارةً لم تفقدها المدينة، حرارةً كخيط الشمس الأخير قبل أن يغيب. في كتاباته، كانت المدينة تتلاشى مؤقتاً، وكان العالم الحقيقي يبدأ، عالم آخر لا تعرفه سلطات "سراب".

في إحدى الليالي الطويلة والباردة، بينما كان موسى يحدق في الشارع الخالي، رأى طفلةً صغيرةً تقف تحت نافذة مهجورة. لم تعرفه، ولم يعرفها أحد، لكنها حملت معها شعوراً غريباً، شعوراً بأن الحزن ليس وحده من يعيش في المدينة. كان جسدها صغيراً، لكن عينيها حملتا قسوة المدينة كلها، وعزمها على عدم الخضوع، وكأنها تحمل في قلبها كل الأسرار المحرمة.

اقتربت الطفلة من النافذة، رفعت يدها، لمست الزجاج، وكأنها تحاول لمس شيء حيّ في الداخل، شيء لا تستطيع المدينة أن تمسّه أو تراقبه. موسى لم يتكلم، لكنه شعر بأن الحزن الذي يحملونه كان واحداً، رغم الفارق في السن والحياة، رغم السنوات بينهما.

المدينة كانت صامتة، لكن صمتها لم يكن طبيعياً. كان صمتاً يختزل كل شيء، صمتاً يضغط على القلوب، صمتاً يحول الهواء إلى حديد، والأرواح إلى سجناء بلا أبواب. كل شيء فيها كان بارداً، بلا رحمة، بلا ظل للحلم أو الحياة. موسى أدار ظهره للنافذة، لكنه لم يغلقها. كان يعلم أن غلقها يعني الاستسلام، وأن ترك الضوء يدخل يعني الاحتفاظ بآخر شعاع أمل.

جلس على كرسيه المكسور، أطلق أنفاسه ببطء، وبدأ يكتب في دفتره:
"المدينة تمنعك من الحلم، لكن الحلم لا يمكن للمدينة أن تمنعه. نافذتي لن تغلق، حتى لو غطّت المدينة عينيّ."

وفي تلك اللحظة، شعر موسى بشيء يلمس قلبه، شيء قديم، كنسمة عابرة في صيف قاسٍ، كهمس لم يسمع منذ زمن. لم يكن فرحاً، ولم يكن حزناً، بل وعياً بأن المدينة لا تستطيع أن تمنع كل شيء... وأن بعض الأشياء، مهما حاولوا، تبقى حرة.

ظل موسى واقفاً عند نافذته حتى الفجر، يراقب المدينة، يراقب الغيوم، يراقب الظلال، ويكتب ويكتب ويكتب... كأن الكلمات نفسها كانت آخر ما تبقى له من الحرية، وأول ما سيقاوم به كل من أراد له أن ينسى كيف يُحلُم.

وفي صمت المدينة القاتل، أصبح موسى ونافذته ودفتره الصغير كل ما تبقى من حياة لم تقهر، وكل ما بقي من حلم لم يمس.
ومع شروق الشمس، ومع أول شعاع يطرق نافذته، أدرك موسى شيئاً لم يفكر فيه من قبل: أن الحلم، مهما كان صغيراً، مهما كان خفياً، هو فعل ثورة صامتة، وأن نافذة واحدة مفتوحة، ولو في غرفةٍ صغيرةٍ منسية، قد تكفي لتغيير كل شيء.

الفصل الثاني: شرطة الأمل

في أحد الأيام الرمادية، حين كان ضوء المدينة يترنح بين المباني كعاشقٍ محاصر، ويدور في الأزقة الضيقة باحثاً عن شيءٍ لم يسمح له بالوجود، دخل إلى الحي رجلٌ بثياب سوداء، حادة كظلال الحزن، ثقيلة كأنها تحمل عبء المدينة بأكملها على كتفيه. كان يحمل دفتراً جلدياً وقلماً يكتب بلا حبر، كأن الكتابة نفسها عقاب، كأن الكلمات نفسها أصبحت جريمة، وكل حرفٍ يسجل فيه يثقل القلب ويزرع الخوف في الأرواح.

اسمه هشام، من شرطة الأمل، ذلك الجهاز الصامت الذي يتحرك في المدينة ليقيس نبضات القلوب ويقرأ طيف الأحلام قبل أن تولد. كان يمشي بصمتٍ مقطّع، كأن الأرض تخشى صوته، كأن كل خطوةٍ منه تصنع ظلاً جديداً للحزن، وتحفر خطاً في وجدان المدينة. عيناه السوداوان، الباردتان كجليدٍ قديم، تلمحان كل شيء وتقرأان ما بين الحروف، بين الأنفاس، بين أي طرفة عين قد تكون بداية جريمة الحلم.

كان الحي هادئاً، أكثر من اللازم، كأنه يعرف مسبقاً أن هشام سيأتي، كأنه يستعد لاستقبال الموت الروحي بهدوء، لا صراخ، ولا دموع، فقط صمتٌ يضغط على الحلق كحبلٍ خفي، وصدى خطواته التي تكاد تحول كل حيّ إلى قبرٍ مفتوح. الأشجار الصغيرة على الأرصفة لم تتحرك، حتى الريح توقفت، كأنها تعرف أن هناك شيئاً محرماً سيحدث، وأن هذا الرجل الأسود هو سفير المدينة على فرض الصمت، على فرض الخوف، على فرض أن لا أحد يحلم بعد اليوم.

حين وقف هشام أمام باب أحد البيوت، لم يكن مجرد رجلٍ يقيم التفتيش، بل كان تجسيداً لكل القوانين الغامضة التي تقتل الحلم، كل التهديدات الصامتة التي تحول الأبسط من الرغبات إلى جريمة، كل الرغبات التي لا تقال، كل الحكايات التي تدفن قبل أن تُحكى.

وكانت المدينة نفسها تبدو وكأنها تتنفس معه، كل حجرٍ في الشارع، كل نافذةٍ مغلقة، كل ظلّ على الجدران، يشهد على بداية يومٍ آخر يحاسب فيه القلب قبل الجسد، ويقاس فيه الحلم قبل أن يكتمل.

طرق باب موسى ثلاث طرقاتٍ صمّاء، كل طقة كرصاصة صامتة تعلن عن وصول الموت الروحي. فتح موسى الباب دون خوف، كأنه كان ينتظر أن تحاسب روحه، كأن الزمن كله تمحض لهذه اللحظة.

قال هشام ببرود الجليد الذي يقتل أي دفء:
– وردتنا تقارير بأنك نظرت إلى القمر ثلاث مراتٍ الأسبوع الماضي.

رد موسى بهدوء، كما لو كان يتحدث إلى طيفٍ قديم في صدره:
– القمر صديقي الوحيد في هذا العالم المصفّد.

أخذ هشام نفساً عميقاً، كمن يستعد ليجرم نفسه قبل أن يجرم الآخرين:
– هل كتبت؟

– نعم، – أجاب موسى، صوته منخفض لكنه ثابت – سطراً وحيداً: "أنا حيّ لأنني أحلم."

دوّن هشام شيئاً في دفتره بلا حبر، بلا أي لون، كأن الكلمات نفسها صارت عبئاً ثقيلاً على الروح. ثم قال ببرودٍ أكثر، وكأن كل حرفٍ من كلامه سيف يقطع الهواء:
– تلك جريمة. ستُراقب. وستسجل أحلامك.

لم يره موسى يغضب، ولم يشعر بالخوف على الفور، لكنه شعر ببرودة المدينة تسلل إلى قلبه، كأن كل نبضة فيها أصبحت مراقبة، وكل فكرة فيها أصبحت محتملة الجريمة.

أخذ هشام يخطو داخل الغرفة ببطء، خطواته كأقواس العقاب. ألقى نظرة على كرسي موسى المكسور، على الموقد الذي يكاد يختنق من البرد، على دفتره الأصفر. كل شيء في الغرفة كان شاهداً على حياة لم تسمح لها بالوجود.

– لماذا تحلم؟ – سأل هشام، وكأن السؤال ذاته مجزرة.

ابتسم موسى ابتسامةً باهتة، ابتسامة لا يعرف لها أحد معنى سوى الحزن العميق:
– لأن الحلم هو ما يجعلني أستطيع البقاء حياً.

ابتلع هشام الكلمات، وعيناه تحاولان استخراج كل شرارة حياة من موسى، كأنهما تبحثان عن دمعة ليحولاها إلى جريمة. ثم سأل:
– وهل تعرف ماذا سيحدث إذا غامرت بالحلم مرة أخرى؟

– سأدفع ثمنه، – قال موسى، صوته منخفض لكنه ثابت – لكن قلبي لن يتوقف عن التوق إلى السماء.

وقف هشام للحظة، كأنه تردد أمام صخرة صماء، ثم دوّن مرة أخرى، بدون حبر، كأن كل ما يسجل في دفتره مجرد فراغ يمتصه الصمت:
– كل يوم تمسح المدينة المزيد من الألوان من عينيك. كل ابتسامة، كل شعور، كل حلم... سيسجل، وسيقاس.

جلس موسى على كرسيه، ينظر إلى النافذة، إلى السماء الرمادية، إلى الغيوم التي تتحرك ببطء، وكأنها تعرف أنه على وشك أن يخسر جزءاً من روحه. كان يشعر بثقل الكلمات التي لم تكتب بعد، بثقل الأحلام التي لم تحلم بعد، كأن كل ثانية ستحاسب.

ثم قال هشام قبل أن يغادر:
– كن حذراً. شرطة الأمل لا تغفر.

خرج الرجل ببطء، تاركاً موسى في غرفته الصغيرة، محاصراً بالصمت الثقيل، كأن المدينة نفسها أخذت نفساً عميقاً وقررت أن تمنع أي بقايا حياة.

جلس موسى على الأرض، دفتره الأصفر بين يديه، ينظر إلى الكلمات التي كتبها قبل قليل، وكأنها آخر شريان للحياة:
"أنا حيّ لأنني أحلم."

ثم التفت إلى النافذة، فتحها على الغيوم، على ضوء خافت يطرق الأفق، على الهواء البارد الذي لم تسجله المدينة بعد. ابتلع الحزن، ابتلع الخوف، لكنه لم يبتلع الأمل.

كانت المدينة قاسية، صامتة، بلا رحمة، بلا حكاية، لكنها لم تعرف بعد أن الحلم، ولو كان مجرد وهم، يمكن أن يكون فعل ثورة صامتة. وأن نافذة واحدة مفتوحة، ولو في غرفة صغيرة منسية، قد تكفي لتذكير قلبٍ بماذا يعني أن يكون حياً... وأن يحلم.

ظل موسى واقفاً عند النافذة طوال الليل، يكتب ويكتب، يراقب ويصغي، وكل كلمة هي صرخة صغيرة في وجه المدينة، وكل حلمٍ صغيرٍ هو تمرد صامت، وكل نفسٍ هو رفضٌ أن تُسلب منه الحياة.

الفصل الثالث: بيت الأحلام المحرّمة

منذ تلك الليلة التي مرّ فيها هشام، بدأ الحيّ يتغير بطريقة لا يمكن تفسيرها إلا بالخفاء. لم يعد موسى مجرد رجل فقيرٍ غريب الأطوار يعيش بين الجدران الباردة ودفتر أصفر، بل أصبح رمزاً صامتاً لكل ما لم تسمح المدينة بوجوده: الشجاعة، الحلم، والإرادة الصغيرة التي ترفض الانحناء.

بدأ الأطفال يراقبون نافذته. يختبئون خلف الجدران المتصدعة، يلوّحون بأصابعهم الصغيرة نحو الضوء الخارج من نافذته، وكأنهم يحاولون قراءة ما لا تستطيع عيون المدينة أن تراه. الكبار أيضاً صاروا يمرّون بالقرب من منزله ببطء، يلتفتون نحو النافذة، يحبسون أنفاسهم للحظة، وكأن مجرد النظر إلى موسى يمنحهم فرصةً لمحو قيود الخوف عن أنفسهم، ولو للحظة قصيرة. كان هناك شيء ما في عينيه، في طيف ابتسامته الباهتة، في صمته الطويل، يشبه النبوءات: حكاية لم تكتب بعد، وعد لم يسمح له بالظهور، حبر لم يخلق بعد.

وفي الليل، حين تُسدل المدينة ستارها الرمادي، كان موسى يغلق عينيه ويدخل عالمه الداخلي. عالمٌ لا تعرفه سلطات "سراب"، عالمٌ حيث البحر يطفو في قلب المدينة، يغمر الأزقة الباردة بالموج والضوء. الأشجار تمشي على الأرصفة، تتكئ على الجدران، وتتمايل مع الريح، كأنها تعيد كتابة التاريخ المنسي. النساء يضحكن بلا خوف، أصواتهن ترقص على الحيطان كألحان محرمة، والرجال يكتبون الشعر بدل تقارير العمل، يسكبون أحلامهم على الجدران بدل أن يدفنوها في دفاتر الرقابة.

لكن كل حلمٍ كان يحمل معه ثمنه، ثمنٌ ثقيل كالصمت الذي يكسو المدينة. موسى كان يبكي أحياناً بعد أن يغادره النوم، ليس لأنه فقد السعادة، بل لأن الحلم في "سراب" ليس وعداً بالحرية، بل مأساة تنتظر أن تسجل في دفتر ما، في سجل ما، في صفحة لم تقرأ بعد. كل حلمٍ كان يترك خيطاً من الضوء لا تستطيع المدينة قمعه، لكنه يحمل معه صدى الخوف من العقاب، من هشام، من كل رجلٍ أسود، من كل قانونٍ صامت، من كل الحيطان التي تراقب وتنصت دون أن تومئ.

وفي إحدى الليالي، بينما موسى يجلس على كرسيه المكسور، يدفن رأسه بين كفّيه، يسمع أصوات الريح تتسلل من الشقوق في الجدران، طرق شيء خفيف على الباب. لم يكن صوت هشام، بل خفيفاً، متردداً، كنبضة صغيرة في قلب صمت المدينة الطويل.

فتح موسى الباب ببطء. أمامه وقفت طفلة صغيرة، ترتدي معطفاً بالياً، وعيناها تحملان حكمة أكبر من عمرها، ويدها ترتجف وهي تمسك بكتابٍ محترق الأطراف. كانت تخشى أن يسمعها الهواء، أن يسجلها الضوء، أن تتحول إلى جريمة لم يُسمح بها.

– هل... هل يمكن أن أحلم هنا؟ – قالت بصوت خافت، كأنها تحاول سماع همسات قلبها فقط.

ابتسم موسى ابتسامة حزينة، ابتسامة يعرف أن المدينة ستعتبرها تمرداً، لكنه شعر بأن قلبه يفيض بالرحمة: هذا الحلم صغير، لكنه مقاومة صامتة، وكل من يجرؤ على الحلم في هذا المكان هو ثائر بصمت. فتح لها الباب، ودعاها للدخول إلى عالمه الداخلي، إلى دفتره الأصفر، إلى نافذته التي لا تغلق.

ذلك المنزل الصغير أصبح فيما بعد "بيت الأحلام المحرّمة". جدرانه لم تعد تستوعب مجرد موسى، بل صارت مأوى لكل من تجرؤ قلوبهم على المقاومة الصامتة، لكل من رفض الخضوع لمراقبة المدينة لكل فكرة، لكل حلم، ولكل شعور لم يسمح له بالظهور. هنا، بين دفاتر موسى الصفراء، وبين نافذته المفتوحة على الغيوم، بدأ الحيّ يتعلم شيئاً: أن الحلم لا يباع، ولا يؤخذ، وأن بعض الأشياء، مهما حاولوا، تبقى حرة.

مع مرور الأيام، أصبح الأطفال يأتون ليلاً، يحملون دفاتر صغيرة، يكتبون رسائل لا يستطيع أحد قراءتها، يرسلونها عبر النوافذ إلى قلب موسى. الكبار صاروا يضعون أيديهم على قلبهم وهم يمرون أمام البيت، يرددون كلمات لم يسمح لها بصوتٍ عالٍ، يتعلّمون أن الحلم ليس جريمة، بل تنفس، وأن نافذة واحدة مفتوحة، ولو في غرفة صغيرة منسية، يمكن أن تزرع ثورة في قلب مدينة محاصرة بالصمت.

ومع كل شروق شمس، ومع كل نسمة هواء تتسلل من الشقوق في الجدران، كان بيت الأحلام المحرّمة يكتب فصلاً جديداً: فصلاً عن صمت لم يستطع شيء كتمه، عن دموع تتحول إلى ثورة، عن ضوء صغير يكبر مع كل نفس يحلم به في الخفاء، وعن أمل لا يعرف القيود، ولا يعرف الخوف، ولا يعرف المدينة.

الفصل الرابع: المحكمة الصامتة

جاء الاستدعاء في صباحٍ رمادي، ممزوج برائحة الرطوبة والخراب الذي يلف أزقة المدينة. الورقة الرماديةً التي سلمها أحد موظفي البريد بدت أثقل من جسد موسى كله، وكأن الحبر الأسود المطبوع عليها يثقل قلبه قبل أن يصل إليه. الكلمات كانت صادمة في بساطتها:

"أنت متهم بالحلم. الحضور إلزامي أمام محكمة ضبط الوعي."

وقف موسى في غرفته الصغيرة، ينظر إلى الورقة وكأنها مرآة لحياةٍ كلها صمت وظلال. كل حرفٍ فيها كان كالجدار الذي يقفل أمام نافذته، وكل كلمةٍ خنجر جديد يثبت أن المدينة لا تعرف الرحمة، وأن الحرية ليست سوى وهمٍ يمكن محوه بنقرة قلم أو بخط كتابة.

عبر موسى الأزقة الخانقة، حيث المباني تنهار صامتة، والهواء الثقيل يضغط على صدره. كل خطوة تتردد كنبضة قلب معلقة في فراغٍ لا يسمع سوى الصمت. الأطفال يختبئون خلف الجدران، والكبار يمرون صامتين، وكل شيء حوله يشهد على مدينةٍ لا تعرف سوى الرقابة، مدينة تسجل حتى أنفاسك وتحاسب كل شعور يولد في داخلك.

عندما وصل إلى المحكمة، ارتفع قلبه في صدره كخفقان طائر محاصر. القاعة كانت هائلة، سقفها عالٍ يكاد يلمس الغيوم، وجدرانها رمادية قاتمة، مغطاة بصمتٍ ثقيلي يلتهم الأصوات قبل أن تقال. الجلوس كان في صفوف متباعدة، لكن كل كرسي بدا وكأنه حجر في قبر جماعي. كل من جلس هناك، من الموظفين والمراقبين، كان بلا تعبير، بلا نفس، بلا حياة. وجوههم تشبه أقنعة الحجر، وجوه لا تنبض، تعكس فقط صدى المدينة.
على المنصة، القاضي لم يكن إنساناً، بل صورة حية على الجدار. عيناه زجاجيتان تتلألأ بلا حياة، فمه مغلق لكنه يتحدث، صوته يملأ المكان دون أن يتحرك. كل كلمة منه كانت كصفعة صامتة على الوجه، كخنجر يمر في الصدر بلا دماء:
– موسى بن إبراهيم، متهم بارتكاب أحلام متكررة تهدد أمن المدينة.

ارتجف موسى، لكن قلبه ظل ينبض ببطء، يحاول أن يتمسك بآخر شعاع من شجاعته:

– أنا لم أهدد أحداً، – قال، صوته منخفض لكنه ثابت – فقط حلمت لنفسي.

– وهذا أسوأ، – جاء الرد بلا رحمة – من يحلم لنفسه سيوقظ الآخرين.

كان الصمت بعد تلك الكلمات ثقيلاً جداً، كما لو أن الجدران نفسها تنهار على صدر موسى، وكأن كل ركن من أركان القاعة يهمس له بأن الحلم أصبح جريمة، وأن كل فكرة في رأسه الآن قابلة للقتل قبل أن تولد.

ثم صدرت الكلمات:

– نُزِعت الأحلام.

وكأن الصمت نفسه ابتلع قلبه. كل لون في داخله، كل شعاع ضوء، كل حلمٍ صغير كان يختبئ في صدره بدأ يتلاشى، يتبخر في الهواء البارد للمحكمة. شعر موسى بأنه يفقد جزءاً من روحه، قطعةً صغيرة من وجوده. حتى أن الهواء بدا ثقيلاً كأنه يريد أن يضغط على قلبه، يمنعه من التنفس بحرية، يسلخه من كل شيء جعله حياً.

لكن في الداخل، في مكانٍ لم تصل إليه يد المحكمة، بقي شيء صغير: خيط رفيع من ضوء، همس صامت في قلبه. دفتره الأصفر، كلماتٍ لم تكتب بعد، أنفاسه الخاصة التي لم تسجل... شيء لم تستطع المحكمة أن تمسّه.

ظل موسى يجلس بعد ذلك، لا يتحرك، ينظر إلى سقف القاعة، كأنه يبحث عن أي شق ضوء يسمح له بالهروب، أي خيط أمل يمكنه الإمساك به. كل ثانية تمر كانت كدقيقة في جحيمٍ بلا نهاية، وكل كلمة لم تقال كانت صرخة مخنوقة في قلبه.

بعد دقائق أو ساعات، خرج من المحكمة. المدينة رمادية كما كانت، ولكن قلبه لم يعد كما قبل. كل شيء حوله بلا حياة، بلا ضوء، بلا ابتسامة، بلا حلم... إلا أنه، في أعماقه، كان يعلم شيئاً واحداً: حتى لو سُحبت الأحلام، فإن القلب والذاكرة لن يستسلما، وأن الحلم، ولو خفياً، يمكن أن يعيش في الخفاء، بعيداً عن أعين المدينة، بعيداً عن دفتر هشام، بعيداً عن القضاة الصامتين.

عاد إلى نافذته، جلس على كرسيه المكسور، أخذ دفتره الأصفر، وبدأ يكتب في صمت:

"حتى لو نزعوا الأحلام من أيدينا، لا يمكنهم أن يمحوها من القلب. الحلم ليس جريمة، إنه بقايا الروح التي لم تستسلم."

في تلك الليلة، كانت المحكمة قد سحبت كل ما يمكن أن يسجل، ولكن موسى ظل واقفاً عند نافذته، يراقب الغيوم، يستمع إلى الريح، يكتب ويكتب، وكل كلمة كانت صرخة صغيرة في وجه المدينة، وكل حلمٍ صغير كان ثورة صامتة، وكل نفسٍ كان رفضاً أن تُسلب منه الحياة.

وبين صمت المدينة الثقيل، وبين الظلال الطويلة للقصور والمباني، أصبح موسى، ودفتره، ونافذته المفتوحة، رمزاً صامتاً لكل من يجرؤ على الحلم في عالمٍ يريد سحق الأحلام، لكل من يؤمن أن الحرية ليست فقط فعلاً، بل مقاومة صامتة، وأن الأمل، مهما حاولوا، لا يمكن محوه.

الفصل الخامس: الذاكرة التي تشتعل

أُدخل موسى إلى غرفةٍ تحت الأرض، حيث الهواء يختنق قبل أن يصل إلى الرئتين، والجدران تلمع برطوبة لا تنكسر، وكأنها تحرس كل خفقة قلب وكل فكرة محظورة. في وسط الغرفة كانت آلة ضخمة، عرشٌ من معدن مكسور وزوايا حادة، كأنها صُممت لتشوه الأحلام قبل أن تولد، لتقيس كل شيء فيه: الأفكار، الذكريات، حتى نبض الروح.

وضعت المجسات على رأسه، باردة كالثلج، لكنها أقسى من أي ألم عرفه موسى، كأنها تحاول تجميد كل شعور، وقتل أي وميض حياة قبل أن يصل إلى وعيه. بدأ قلبه يخفق كأنه يعلم أن هذه المرة ليست مجرد تهديد، بل محاولة لإزالة وجوده من العالم، شطب كل ما هو حي فيه.

بدأت الآلة بالعمل، تهمس، تقرأ عقله، تسجل كل فكرة. وكل فكرة تصبح خيطاً يسحب نحو السكون الأبدي. موسى لم يقاوم، لكنه... بدأ يحلم بصوتٍ عالٍ، صوتٌ خرج من أعماق رأسه كصرخة محتجّة، كصرخة طفلٍ لم يسمع من قبل.

رأى أمه غارقة في ضوء الصباح الباهت، تزرع الريحان في ساحة المدرسة، يديها ترتجف من البرد، لكنها كانت تبتسم، كأنها تقول له: «حتى في الفقر والخوف، هناك شيء يسمى الحياة». رآه صغيراً، يركض خلف الطاولات، يختبئ من صراخ المدينة، يضحك بلا خوف، وصوت ضحكه يملأ الزوايا المظلمة من ذاكرته.

ثم رأى جنازة الماضي، جنازة كل الأمان، كل الحروف التي لم تكتب، كل الأحلام التي منعت من الظهور. كان يمشي بين الزهور الذابلة والطرق المهجورة، كل خطوة تهتز كنبضة قلب معلقة في فراغٍ بلا نهاية، كل نفسٍ يخرجه يختلط بصدى البكاء المدفون في ذاكرته.

مع كل حلمٍ، بدأت الآلة تصرخ داخلياً، أنوارها المعدنية ترتعش، والصمامات تصدر صريراً عالياً، وكأنها عاجزة عن احتواء قوة ذاكرته، قوة الحلم، قوة الرفض التي يملكها موسى في قلبه. امتلأت الغرفة بدخان أبيض كثيف، يغطي كل زاوية، يبتلع كل صوت، يطغى على كل ضوء.

لكن موسى لم يخف، لم ينهار. كل ذكرى مشتعلة، كل صورة في عقله كانت ناراً لا تطفأ، وكل لحظة حزن أو فرح كانت وقوداً يشعل قلبه أكثر، ويحول الألم إلى مقاومة صامتة.

الآلة بدأت تتحطم من الداخل، بصرخات المجسات، بوميض الأسلاك، وكأن كل جزء منها ينهار أمام قوة الحلم. شعر موسى وكأن روحه تسحب في عاصفة، لكنه ظل واقفاً، عينيه تلمعان في الظلام، وصوته لا يزال يخرج من عقله، كلمات بلا حروف، أحاسيس بلا حدود، ذكريات لا يمكن للقمع أن يمحوها.

في قلبه ظل خيط رفيع من الضوء: دفتره الأصفر، الكلمات التي لم تكتب بعد، أنفاسه الخاصة التي لم تسجل، كل شيء لم تمسه يد الآلة. كان هذا الخيط هو كل شيء: حياته، هويته، حريته التي رفضت أن تمحى.

مع آخر ومضة من الضوء، ومع آخر صرير معدني، توقفت الآلة، لكن موسى لم يهزم. الحلم لم يمت، الذاكرة لم تُمحَ، والروح، رغم كل القمع، ظلت مشتعلة.

في صمت الغرفة، وسط بقايا الدخان الأبيض والأسلاك المحترقة، عرف موسى حقيقة لم يعرفها من قبل:

«حتى لو حاولوا سحق الأحلام، حتى لو استنزفت كل الألوان، حتى لو ضاعت كل اللحظات، فإن القلب الذي يتذكر، والذاكرة التي تحترق، لا يمكن أن تسلب منه الحياة، ولا يمكن أن يطفأ الضوء الذي ينبع من الداخل».

خرج موسى من الغرفة، جدران المدينة رمادية كما كانت، لكنها شعرت، ولو لحظة، بخطورة الحلم. عاد إلى نافذته، جلس على كرسيه المكسور، أمسك بدفتره الأصفر، وكتب بصوتٍ يكاد يسمعه العالم بأسره:

«الذاكرة التي تشتعل هي المقاومة. والأحلام، حتى وإن سحبت، تعيش في الصمت، تحرق الظلام، وتعلن أننا ما زلنا أحياء».

الفصل السادس: نبيّ الحلم

عاد موسى إلى بيته بعد أيامٍ من الصمت الطويل، بعد المرور عبر شوارع المدينة الرمادية التي كانت تنظر إليه كما لو كان شيئاً غريباً، مخيفاً، لكنه حيّ. لم يعاقبوه، بل تخلوا عنه. قالوا بصمت: «هذا لا يصلح». كأنهم أعلنوا أن القلوب الحرة لا يمكن تهذيبها، وأن الحلم لا يسحق إلا ليعود أقوى.

لكن الخبر انتشر كنسمة شتوية تخترق أبواب المدينة الصامتة: موسى أحرق آلة نزع الأحلام.

بدأ الناس يأتون إليه، يقتربون من بيته الصغير كمن يقترب من أسطورة حية. الأطفال يقفون عند نافذته، عيونهم تتسع للضوء الذي يخرج من غرفته، يطلبون منه أن يصف لهم الحلم: كيف يكون، كيف يلوح في الهواء، كيف يمكن أن يلمس القلب قبل أن يلمس العيون.

الشيوخ يأتون بخطوات بطيئة، كأن كل خطوة تحمل ثقل سنوات الحرمان، ويطلبون أن يسمعوا صوته، أن يسمعوا الكلمات التي تعلمها من الألم، من الصمت، من نافذةٍ صغيرة تركها مفتوحة على السماء، على الهواء، على الحياة.

النساء يحملن الخبز، والماء، والأشياء الصغيرة، لكنه لا يحتاجها. ما يبحثن عنه هو صوته، حكاياته، وهمس القلب الذي يذكرهم أن الحرية لم تمت بعد. يأتين بهدوء، يقترين من النافذة، يلمسنها بيده، كأنها آخر شيء حيّ في المدينة.

ومع كل يوم، أصبح بيته ليس مجرد غرفة صغيرة، بل ملاذاً لكل الحالمين. كل من طُرد من وظيفته لأنه كتب قصيدة، كل من عُذّب لأنه غنّى، كل من شاهدوه يرقص في زاوية مظلمة خوفاً من أعين المدينة، جاء إليه. وجدوا في بيته مأوىً، وجدوا فيه دفتراً أصفر يحتضن أسرارهم، نافذةً مفتوحة على الغيوم، على الهواء، على الحرية التي لم يسمح لهم بها.

موسى صار نبيّاً للحلم، رجلاً لا يركع للمدينة، ولا يسمح لها أن تمحو نور الخيال من عيون الناس. أصبح رمزاً للمقاومة الصامتة، ونوراً يلمع في كل قلبٍ يجرؤ على الحلم. كل من يأتون إليه يخرجون محمّلين بأمل جديد، يجرؤون على الحلم، ولو في الخفاء، لأن البيت لم يعد مجرد غرفة، بل مكانٌ تولد فيه الأحلام من جديد.

وفي كل مساء، عند كرسيه المكسور ودفتره الأصفر، كان موسى يكتب، يروي المدينة الصامتة كيف يمكن للحلم أن يحرق، لكن لا يمكن قتله. يكتب كلمات تصبح شعلةً صغيرة لكل قلبٍ يائس، لكل نفسٍ يرفض الاستسلام، لكل عينٍ تبحث عن الضوء وسط الظلام.

كان بعض الحالمين يأتون يحملون قصصهم الصغيرة، يفتحون دفاترهم أمام موسى، يكتبون كلمات خفية، رسائل صامتة، أحلاماً لم يسمح لهم بها أحد. كان

يسمعهم، يبتسم لهم بابتسامة باهتة، يمد لهم يد الرحمة، ويغرس فيهم الإيمان بأن كل حلم صغير يمكن أن يكون ثورة.

أحياناً كان الأطفال يسألون:
– موسى، هل يمكنني أن أحلم كما تحلم أنت؟
ويجيبهم بصوت هادئ، لكنه يختزن القوة في كل كلمة:
– الحلم لا يعطى، بل يستعاد. ومن يجرؤ على استعادته، يصبح حراً.

وفي بعض الليالي، كانت المدينة صامتة تماماً، لكن في بيت موسى كانت الحياة تشتعل. أصوات الحالمين، همسهم، ورقص ضوء القمر الذي يدخل من النافذة، كل ذلك يصبح موسيقى السرية، مقاومة صامتة ضد كل من يريد أن يقمع البشر في المدينة.
مع مرور الأيام، صار البيت عنواناً: بيت الأحلام المحرّمة. كل من فقد صوته، كل من احتجب عنه الضوء، كل من أراد أن ينطفئ في صمت المدينة، وجد في موسى ملاذاً، وجد نافذةً مفتوحة، وجد دفتراً أصفر يحمل الألوان التي تحاول المدينة طمسها.

ومع كل فجر، مع كل نسمة هواء تتسلل من الشقوق في الجدران، كان بيت موسى يكتب فصلاً جديداً: فصلاً عن الصمت الذي لا يمكن لأي سلطة أن تخنقه، عن دموع تتحول إلى أمل، عن ضوء صغير يكبر مع كل نفسٍ يحلم به في الخفاء.

وهكذا أصبح موسى ليس مجرد رجل، بل رمزاً للحلم الذي لا يسحق، نبيّاً للذاكرة التي ترفض أن تمحى، صوتاً لكل من يرفض الاستسلام، ونوراً لكل من يبحث عن الحرية وسط المدينة الرمادية.

وفي تلك اللحظة، أدرك الجميع، الكبار والصغار، أن الحلم، مهما حاولوا سحبه، يظل حياً، وأن نافذة واحدة مفتوحة، ولو في غرفة صغيرة منسية، تكفي لتغيير كل شيء.

الفصل السابع: الثورة التي بدأت من نافذة

ذات صباحٍ رمادي، لم يجد الناس موسى. لم يقبض عليه، لم يهجر، لم يهرب... لم يبقَ له أثر. كأن المدينة ابتلعته، أو كأن الحلم نفسه أخذه إلى مكانٍ آخر، بعيداً عن أعين الرقابة والآلات، بعيداً عن صمت القلوب الصماء.

لكن نافذته... بقيت مفتوحة.

الزوايا الباردة للجدران، الرطوبة التي تشبه الخوف القديم، صمت الأروقة... كل شيء ظل كما هو، لكن الضوء الذي خرج من النافذة كان مختلفاً. لم يكن شمساً، لم يكن شعاعاً طبيعياً، بل كان نوراً غريباً، حلماً ضائعاً يعود إلى أهله. كان يتسلل إلى الأزقة، يلمس الأسطح، يفتح أبواب البيوت المغلقة، ويوقظ القلوب التي نسيت.

الأطفال كانوا أول من شعروا به. توقفت خطواتهم فجأة، عيونهم تتسع، كأنهم رأوا شيئاً لم يسبق لهم رؤيته: مدينة تتنفس، مدينة تحلم، مدينة لا تعرف القيود بعد الآن.

الشيوخ، الذين ظنوا أن كل شيء قد انتهى، وجدوا أنفسهم يقفون أمام النوافذ، يستمعون إلى صمتٍ مليء بالوعود. النساء حملن دفاتر صغيرة، كتبن كلمات لم يسمح لهن أن يكتبنها في صمت المدينة، وأصبحت تلك الكلمات تتسرب عبر الشقوق، تتشابك مع ضوء النافذة، وتخلق موسيقى سرية، ثورة لا تحتاج إلى صراخ.

ومنذ ذلك اليوم، تغير اسم المدينة. لم تعد تدعى "سراب"، ولم تعد مجرد مكانٍ يراقب الأفكار، يقتل الحلم، ويضغط على القلوب. أصبحت تعرف باسم مدينة الحالم الأخير.
وصار من لا يحلم فيها يسأل، بخوف ودهشة:
– ما الذي كسر فيك جناحك؟

كانت النافذة المفتوحة رمزاً لكل شيء: لكل ضوء سرقوه، لكل حلم حاولوا أن يسحقوه، لكل نفسٍ رفضوا أن يتنفس بحرية. كل من نظر إليها شعر بالثورة الصامتة تتسلل إلى دمه، يوقظه، يذكره أن الحياة لا يمكن أن تسلب، وأن الحلم، مهما حاولوا تدميره، يبقى دائماً حياً في مكانٍ ما، في قلبٍ لم يستسلم.

والأغرب أن الضوء لم يكن وحده. معه جاء الهمس. همس موسى، همس الحالم الأخير، يملأ الأزقة، يطرق أبواب البيوت المغلقة، يذكر الجميع:
– الحرية تبدأ من نافذة صغيرة. الحلم يبدأ من قلبٍ لم يكسر.

ومع مرور الأيام، صارت المدينة تعج بالحالمين الجدد. أولئك الذين اعتادوا أن يختبئوا في الظلال، صاروا يرفعون رؤوسهم، يكتبون أحلامهم على الحيطان، في دفاتر صغيرة، على أوراق مهملة، على الأرض... وكل حلم كان يترك أثراً، وكل أثر كان

يضيء شارعاً، ويعيد روح موسى إلى كل زقاق، إلى كل بيت، إلى كل قلبٍ تأخر في الحلم.

هكذا، اختفى موسى جسداً، لكنه ظل حاضراً في كل نافذة مفتوحة، في كل دفتر أصفر، في كل ضوء يسقط على أرض المدينة. لقد صار أسطورةً حية، نبيّ الحلم الأخير، رمزاً للثورة التي بدأت بصمت، من نافذة صغيرة، ولم تنتهِ بعد.

وفي المدينة الجديدة، مدينة الحالم الأخير، أصبح الحلم حقاً لا يسلب، ونافذة واحدة، مهما صغر حجمها، تكفي لتغيير العالم بأسره.

الفصل الثامن: عصر الحالمين

مرت سنوات على اختفاء موسى، ومع كل شروق شمس، كانت مدينة الحالم الأخير تنمو وتتنفس على إيقاع الضوء القادم من نافذته التي لم تغلق أبداً. الأزقة التي كانت رمادية ومقفلة أصبحت تنبض بالحياة، حاملةً همسات الأطفال، ضحكات النساء، وأصوات الشعراء الذين لم يعودوا يخشون القلم. كل زاوية، كل حجر في الطريق، كان يروي قصة صغيرة عن من رفض الاستسلام، عن من حلم بصمت، عن من أعاد كتابة المدينة من الداخل.

المدينة نفسها صارت تتغير، كما لو أن كل حلم دخل إلى جدرانها، وترك أثره في حجرها وفي الهواء، وفي كل نسمات الريح. الأشجار التي كانت ميتة، صارت تميل، تتحرك، كأنها تراقص الريح، وتفتح أغصانها للحياة. البحر، الذي لم يراه موسى إلا في أحلامه، بدأ يطل ببطء، ينساب عبر الأزقة، يغسل الأرض من رماد القمع، يحمل معه رائحة الحرية.

وفي تلك الأجواء المضيئة، ظهرت أرواح الحالمين، أولئك الذين اعتادوا أن يخافوا، أن يخافوا من الكلمات، من الحروف، من مجرد أن يفكروا. الآن كانوا يسيرون بلا خوف، يحملون دفاترهم، يكتبون أحلامهم بصوتٍ عالٍ، يغنون، يرقصون، ويعيدون للحياة ألوانها الضائعة. كل شخص كان يحمل في قلبه جزءاً من موسى، وكل نفس كان تحيةً له، وكل ضحكة كانت صدى لأحلامه المضيئة.

ثم، في إحدى الليالي، وبينما كانت المدينة كلها تغفو على وقع الموسيقى التي خلقتها الرياح، عاد موسى. لم يأتِ بصخب، لم يطل بالظهور في الطرقات، لكنه وقف عند نافذته، يراقب ما بناه من ترك وراءه، يبتسم ابتسامةً باهتة، كانت كافية لتخبر الجميع: الروح لا تموت، والحلم لا يقمع إلى الأبد.

صعد إلى سطح منزله، حيث كانت السماء مرآةً للحرية، ورفع يده كما لو كان يرسم خطاً خفياً على المدينة، خطاً يوصل كل قلب إلى آخر، كل حلم إلى حلم، كل ذكرى إلى ذكرى. وقال بصوتٍ يسمعه كل من كان مستعداً لأن يسمعه:
– الحلم هو من يحررنا... ليس القوة، ولا القانون، ولا حتى الخوف. الحلم هو ما يجعلنا أحياء.

ومن تلك اللحظة، صار كل من يمر قرب نافذة موسى، أو قرب أي نافذة مفتوحة في المدينة، يتساءل:
– ما هو الحلم الذي أنت مستعد أن تحميه؟

صارت المدينة مكتظة بالنافذات المفتوحة، ودفاتر الأطفال، وأوراق الحالمين، وضحكاتهم، وأحلامهم التي لم تسجل بعد. وأصبح كل شارع، كل حديقة، كل منزل، مدرسةً للحياة، درساً في الحرية، شهادةً على أن الأحلام يمكن أن تنتصر، وأن موسى، بالرغم من كل الألم والقمع، كان نبيّ الحلم الأخير، قائد ثورة صامتة، لا ينتهي أثرها أبداً.

وفي النهاية، أدرك الجميع شيئاً لم يعرفوه من قبل: الحلم، ولو بدأ من نافذة صغيرة، يمكن أن يغير العالم بأسره.

صرخة النافذة

في قلب مدينة الحالم الأخير، حيث ضوء نافذةٍ واحدة لم تغلق أبداً، بقيت روح موسى تتسلل بين الجدران، بين الحجر والهواء، بين أوراق الدفاتر الصفراء التي كتبت أحلامه ولم تُمحَ.

الناس أصبحوا يأتون من كل مكان، يحملون معهم الحكايات التي لم تُروَ، ضحكات لم تسمع، دموعاً لم تبكى، وكل حلمٍ صغير في صدرهم كان يردد صدى صوته:
– لا تخافوا. الحلم باقٍ.
لكن موسى نفسه لم يعد لهم، لم يطل بالظهور، كأن المدينة لم تُعِد له حقاً أن يكون بين أيديهم. اختفى كما تظهر النجوم بعد غروب الشمس، لكنه ترك النافذة مفتوحة، وكأنها صرخة في وجه كل من أراد أن يسلب الحرية، وكأنها قلبه الذي لم يمت، ينبض في الصمت، يذكر الجميع بأن الأمل لا يموت.

كل من عاش في المدينة بعده عرف الحقيقة، رغم الحزن الذي لم يفارقهم:
– كل حلمٍ مسروق يمكن استعادته.
– كل قلبٍ مقيد يمكن تحريره.
– وكل روحٍ مسجلة يمكن أن تعود حرة.

وصارت المدينة نفسها قصيدةً طويلة، تقرأ بصمت الليل: كل نافذة مفتوحة، كل دفتر يكتب فيه بصوتٍ خافت، كل ضحكة صامتة بين الأزقة، كلها فصولٌ من ملحمة موسى. وظهر في كل وجه طفل، وفي كل ضحكة امرأة، وفي كل دمعة رجل، خيطٌ صغير من الضوء الذي تركه لهم، الضوء الذي لن يطفأ أبداً.

وفي النهاية، كل من يمرّ من المدينة الجديدة، مدينة الحالم الأخير، يسمع صوتاً داخلياً، همساً يردد عبر الأزقة، بين الحجر والماء والسماء:
– إن الحلم باقٍ... حتى لو غاب الحالم.

وهكذا، أصبح موسى أسطورةً حقيقية، ليس لأنه بقي، بل لأنه غادر وترك كل شيء حيّاً: الأحلام، الأمل، المقاومة الصامتة، ونافذةً واحدةً يمكن أن تغيّر العالم بأسره.

وكل من يفتح نافذة في أي مكان، مهما كانت صغيرة، يكتب على قلبه الصامت:
– أنا أحلم، إذن أنا حي.

عصفورة القلب والميناء المنسي

في تلك المدينة الصغيرة التي تتدلى على حافة البحر كما لو كانت صدفةً مهجورة من زمن بعيد، كان الهواء يعبق برائحة الملح والبحر، وعبير الزيتون الذي يشق طريقه من الغابات القريبة ليصل إلى الأزقة الضيقة والبيوت البيضاء المتشابكة. وكانت الشمس، حين تصعد في الأفق، تبدو كلوحة مشتعلة بالألوان، لكنها سرعان ما تخبو عند الغروب، تاركة المدينة في ضوءٍ باهت، شبيه بذاكرة لم تكتمل بعد.

الميناء هناك لم يكن كبيراً، لكنه كان عميقاً بما يكفي ليحتوي كل الأسرار، كل الآمال، وكل الحنين الذي يفيض من قلوب ساكنيه. وكانت القوارب الصغيرة تتأرجح على الماء بهدوء، كأنها تعرف أن كل موجة تحمل معها حكاية لم تُروَ، وأن البحر هنا لا يغضب إلا حين يغيب أحدهم عن العالم الذي يحبّه.

وسط هذا المشهد، كان هناك رجل يمشي كل صباح على الرصيف الخشبي للميناء. خطواته بطيئة وهادئة، لكنها تحمل صدىً لا يسمعه سوى البحر. كان قلبه ممتلئاً بالحنين، وعيناه تبحثان عن شيء لم يعد موجوداً إلا في ذكرياته. هذا الرجل، سامر، كان يعرف منذ البداية أن الحياة يمكن أن تكون صامتة، لكنها لا تزال قادرة على صنع الدمار بنفس الطريقة التي يصنع بها الحب.

كان يعتقد أن كل شيء حوله، من الأمواج إلى الغابات، يحمل بصمة ليان. ليان، المرأة التي كانت في صمته أكثر حضوراً من أي شيء حي، التي كانت تشبه كل الأشياء الجميلة في العالم دفعة واحدة، والتي علمته كيف يكون الحب بلا شروط، كيف يكون الانتظار بلا أمل، وكيف يكون الغياب أكثر حضوراً من الوجود نفسه.

ليان لم تكن مجرد شخص. كانت البحر حين يغضب ويهدأ، وكانت الغابة حين تهب الرياح بين الأشجار، وكانت الشمس حين تشرق لتغسل كل شيء بالذهبي، وكانت القمر حين يتسلل خلسة ليحرس المدينة في الظلام. كل شيء فيها كان قصيدة، وكل لحظة معها كانت لوحة من النور والظل، لا يمكن تفسيرها بالكلمات، ولا يمكن قياسها بالزمن.

ومع ذلك، جاءت لحظة الرحيل. اللحظة التي تحطم فيها كل شيء على مهل، بلا صخب، بلا صراخ، بلا مقدمات. اللحظة التي أدرك فيها سامر أن الحب أحياناً لا يحافظ على ذاته إلا في غياب من نحب. وفي ذلك الغياب، يبدأ قلبه في اكتشاف شيء أكبر: أن الحب لا ينتهي بانفصال الأرواح، بل يستمر كالميناء، يحمل كل الذكريات، كل الصمت، وكل الصرخات الخفية في الأمواج، حتى وإن أصبح الشخص الذي أحببناه مجرد ظل في الأفق البعيد.

في هذه المدينة، وعلى هذا الميناء، تبدأ قصة سامر. قصة رجل أحب بكل قلبه، وخسر كل شيء، ثم اكتشف أن الحب، رغم خسارته، لا يموت أبداً. بل يتحول،

يصبح هواءً يملأ الصدور، موجة تعانق القدمين، وعصفورة تحلق في القلب، لا تعرف حدوداً، ولا تعرف موتاً.

وهكذا، مع كل صباح، ومع كل موجة، ومع كل شجرة زيتون تهتز في الريح، يظل سامر يعيش بين الحنين والذكريات، بين الفقد والحب، بين الميناء الذي لم ينسه والبحر الذي يحتفظ بكل شيء...

يستيقظ على صرير الأمواج، يسمع هدير البحر كأنها نغمة مكررة في قلبه، كأن كل موجة تتحدث باسمه، وتهمس باسمها. يرى الضوء يتسلل بين الأشجار، يلامس وجهه، فيذكره بابتسامة ليان، بضحكتها التي لم تغادر عقله، وكأن الريح لا تحمل فقط رائحة البحر، بل عبق وجودها الذي لم يمت.

يمشي على الرصيف الخشبي، يتأمل القوارب الصغيرة التي تتمايل برفق، وكأنها ترقص على أمل العودة. يرى في كل زاوية، في كل حجر، في كل شعاع شمس، ذكرياتهما معاً: ضحكة صافية، كلمة عابرة، لمسة دافئة تركت أثرها على قلبه إلى الأبد. ويعلم أن كل شيء حوله، من البحر إلى الغابات، أصبح شهادةً على حبٍ لم يخفُ رغم الغياب، على قصةٍ لم تنتهِ رغم الفقد.

أحياناً يقف طويلاً، ينظر إلى الأفق، حيث يلتقي البحر بالسماء، ويتساءل: هل هي هناك، بعيداً، تنظر إلى نفس الأفق، تشعر بنفس النسيم، تسمع نفس الأمواج؟ ثم يبتسم بحزن، لأنه يعرف أن الحب أعمق من المسافات، وأقوى من الزمن، وأصدق من أي حضور.

ويظل سامر يسير على الميناء، يحمل قلبه كعصفورة حائرة، تحلق بين الأمس واليوم، بين الحقيقة والذكرى، بين الفراغ الذي تركه الغياب والدفء الذي تركه الحب. وكل شيء حوله، كل موجة، كل غصن، كل شعاع قمر يتسلل خلسة، يصبح مرآةً لماضيه، لشغفه، ولعذابه الحنون.

وهكذا، يظل سامر يعيش بين الصمت والصخب، بين الليل والنهار، بين الحنين الذي يملأ قلبه والذكريات التي تعانق روحه، بين الفقد الذي يثقل صدره والحب الذي يرفع روحه، بين الميناء الذي يحتضن كل أسراره والبحر الذي لم ينسه أبداً، والذي يحمل، بلا كلل، كل حكاية حب لم تمت، كل شعور لم يخفت، وكل قلب أحب بصدق، حتى في غياب من أحب.

الفصل الأول: المدينة التي لا تنام

كانت المدينة تتدلى على حافة البحر كما لو كانت صدفة مهجورة منذ زمن بعيد، صدفة احتفظت بكل أسرار البحر والريح والزيتون. من بعيد، بدت بيوتها البيضاء كأحجار مرصوفة على بعضها، تتكئ على بعضها البعض كما العجائز الذين تعبوا من الوقوف طويلاً، لا يملّون، ولا يغفلون عن مراقبة المارين.
وأشجار الزيتون تحيط بالمدينة كأم لا تكفّ عن الحراسة، كأنها تحفظ كل خطوة، وكل نفس، وكل سر يمر عبر الأزقة الضيقة والبيوت المتشابكة.

الميناء لم يكن كبيراً، لكنه كان عميقاً، عميقاً كقلوب الذين ينتظرون، كقلوب أولئك الذين يعرفون أن الانتظار، وإن كان مؤلماً، هو وحده من يمنحهم شعوراً بالحياة. كانت المياه هادئة أحياناً، تمسح وجه المدينة بصمت، وأحياناً تتماوج بعنف لتذكر أن البحر، مثل الحب، لا يمكن ضبطه.

سامر كان واحداً من هؤلاء الذين يعرفون معنى الانتظار.
كان يقف كل صباح على الرصيف الخشبي للميناء، قبل أن تفتح المتاجر أبوابها، وقبل أن يوقظ الصيادون قواربهم. كان ينظر إلى الأفق، كأن عينيه تحاول أن تقرأ شيئاً وراء خط البحر، شيئاً لا يراه أحد، شيئاً يعرفه هو وحده.

لم يكن ينتظر سفينة.
لم يكن ينتظر حدثاً يمكن أن يرى أو يقاس.
كان ينتظرها.

ليان.

كان يفكر بها كما لو أنها جزء من كل شيء حوله: في الأمواج التي تتكسر على الصخور، في صوت الريح التي تمر بين أعمدة الرصيف، في أشعة الشمس التي تتسلل بين أغصان الزيتون، وفي ظل الأشجار الذي يلامس وجهه في الصباح الباكر.

كل شيء يذكره بها: ضحكتها التي كانت تتردد في قلبه كصدى بعيد، عيناها اللتان تشعان بالحياة والسر معاً، طريقتها في السير وكأنها تعرف كل أسرار الأرض والسماء، وكيف كانت تلمس الأشياء بلا خوف، كما لو أن العالم ملكها، وأن الحب الذي بينهما كان كاملاً، بلا شروط، بلا قيود.

كان يمشي على الرصيف، وأحياناً يمر بجانب قارب صغير متأرجح، فتخيلها تقف هناك، تبتسم له كما فعلت في أول لقاء لهما. كان يسمع هدير البحر وكأنه يهمس باسمها، كأن الأمواج نفسها تحمل رسائلها إليه، تتسلل إلى قلبه وتوقظ كل ذكرى غرست في أعماقه.

المدينة لا تنام حقاً.

حتى حين ينام سكانها، تظل الأزقة والشوارع تتنفس، تهمس، تنتظر، كما يفعل قلب سامر كل صباح. كل نافذة مغلقة، كل باب، كل حجر، وكل غصن زيتون يحمل أثرها.
كل شيء حوله صار شهادة على وجودها، على الحب الذي لم يخِف رغم الغياب، وعلى الانتظار الذي أصبح جزءاً من حياته، جزءاً من نسيج المدينة نفسها.

ولم يكن سامر وحده الذي يعرف هذا الانتظار.
الميناء، القوارب، الأمواج، وحتى الريح، كلها تعرف أن هناك قلباً ينتظر، قلباً يرفض أن ينسى، قلباً مازال يعيش على ذكريات حب لم ينتهِ، حب ظل حاضراً في كل صباح، في كل موجة، في كل شجرة زيتون تهتز في الريح.

وهكذا، مع كل صباح، ومع كل موجة تتكسر على الصخور، ومع كل شجرة زيتون تهتز في الريح، يظل سامر يعيش بين الحنين والذكريات، بين الفقد والحب، بين الميناء الذي لم ينسه والبحر الذي يحتفظ بكل شيء...

يستيقظ مع أول شعاع للشمس يلمس المياه، فيشم رائحة البحر والملح كما يشم عبق ليان في كل نسمة. يرى القوارب الصغيرة تتمايل بهدوء، وكأنها تروي له حكايات قديمة عن أقدار لم تتحقق، عن لقاءات لم تكتمل، عن الحب الذي ظل حيّاً رغم الرحيل. يلمس الخشب البارد للرصيف تحت قدميه، فيتذكر خطواتها، ضحكتها، وكيف كان قلبه يخفق حين تمر أمامه على الرصيف نفسه، وكأن المدينة بأسرها كانت تعرف سرّ عشقه.

يستمع لصوت الريح وهي تعانق أغصان الزيتون، كأنها تحمل رسائلها إليه، كأنها تخبره أنها لم تنسَ، وأن كل شيء من حوله—الميناء، الأمواج، الصخور، السماء، حتى الطيور التي تحلق فوق الماء—يحمل بصمتها. وفي كل ظل على الأرض، يرى ملامحها، فيرى ابتسامتها، فيسمع صوتها يردد اسمه بصمت، بين الأمواج والهواء والصمت ذاته.

المدينة لا تنام حقاً. حتى حين يغرق سكانها في أحلامهم، تظل الأزقة والشوارع تتنفس، تهمس، تنتظر، تراقب، كأنها تعرف أن هناك قلباً لا يهدأ، قلباً يرفض أن ينسى، قلباً يرفض أن يقبل أن يكون الحب مجرد ذكرى عابرة. وكل نافذة مغلقة، وكل باب، وكل حجر، وكل غصن زيتون يحمل أثرها، يحمل عبء الانتظار، يحمل صدى الذكريات، ويحفظ الحكاية التي لم تنتهِ بعد.

ويظل سامر، بلا كلل، يعيشه كل صباح، وكل غروب، وكل لحظة بين النهار والليل، يعيش على الأمل الذي لم يمت، على الحب الذي ظل حيّاً رغم الغياب، وعلى الحنين الذي صار جزءاً من كيانه، من روحه، من نسيج المدينة نفسها. حتى البحر، بعمقه اللامتناهي، يحافظ على كل شيء، يحمل كل موجة معها حكاية، كل نسمة معها ذكرى، وكل قطرة من الماء معها شعوراً من قلب سامر الذي أحب بصدق، وأبقى الحب حياً، رغم كل شيء.

الفصل الثاني: اللقاء الذي غيّر ترتيب الفصول

تعرف عليها في غابة الزيتون شمال المدينة، حيث تتشابك الأغصان وتتسرب أشعة الشمس بين أوراق الشجر، فتخلق أرضية من نور وظلال تتحرك مع الريح كراقصة خجولة. كان ذلك في خريفٍ رطب، حين تكون الأرض مغطاة بأوراق صفراء جافة، كأنها رسائل لم تقرأ بعد، تحمل أسرار الأشجار والطيور والسماء، ورسائل لم يكتب لها أن تصل إلى أي يد.

كانت تقف فوق صخرة صغيرة، تحاول أن تلتقط صورة للبحر الذي يلوح بعيداً بين الأغصان، وكأنها تريد أن تحفظه لنفسها وحدها، كذكرى تتسلل إلى قلبها قبل أن يراها أحد. فجأة، انزلقت قدمها على الأرض الرطبة، وارتسمت الدهشة على وجهها للحظة، قبل أن يتمسك بها سامر، الذي كان يمر بالصدفة على نفس الطريق.

حين التقت عيناهما، لم يحدث شيء خارق. لم تسقط السماء، ولم تتوقف الريح.
لكن قلبه، الذي ظل صامتاً لسنوات، تحرك لأول مرة منذ زمن طويل.

قالت ضاحكة، وهي تحاول استعادة توازنها:
— "كنت سأقع."

قال مرتبكًا، وهو يبتسم بخجل وينظر إلى يدها بين يديه:
— "وأنا كنت سأندم لو تركتكِ."

ضحكت، وكانت ضحكتها... تشبه طائراً صغيراً يخرج من صدرها ويحط في صدره، يغرد بلا توقف، يملأ المكان دفئاً وحركة وحياة.

ومن تلك اللحظة، صار كل شيء مختلفاً. الطريق إلى البيت أصبح أقصر، كأن الأرصفة نفسها تتعاون معه لتسريع الخطى. الليل أصبح أدفأ، حتى الظلال لم تعد ثقيلة على الجدران. والبحر، الذي كان يبدو دائماً وحيداً وموحشاً، أصبح أقل وحدة، كما لو أن وجودها فيه أصبح جزءاً من نغماته، من هديره، من كل موجة تتكسر على الصخور.

جلسا معاً على حافة الصخرة، وأصابع قدميهما تلمس الأرض المبللة بأوراق الخريف، يتحدثان بصوت منخفض، وكأنهما يخشيان أن يسمعهما أحد. تحدثت ليان عن البحر والغياب، عن الأشجار التي تحب أن تسمع قصصاً جديدة، وعن الضوء الذي يتسلل بين الأغصان في ساعات الصباح الباكر. كان سامر يستمع فقط، ينظر إليها، يحاول أن يحفظ كل تفاصيل وجهها، كل حركة يدها، كل نبرة صوتها، كأنها آخر شيء يمكن أن يراه قبل أن يغادر العالم.

الوقت توقف بينهما، لكن ليس بصمت مخيف، بل بصمت يشبه السحر، بصمت يسمح لكل شيء بالاختلاط: الماضي بالمستقبل، الذكريات بالأحلام، الصمت

بالكلمات. كل ابتسامة، كل نظرة، كل ضحكة، كانت تعيد ترتيب فصول حياته، تجعل كل يوم جديد أشبه بورقة بيضاء تنتظر أن تكتب فيها الحكاية التي لم يجرؤ على كتابتها من قبل.

حتى الريح، التي كانت تمر بلا مبالاة، توقفت للحظة، تتسلل بين الأغصان وكأنها تراقب اللقاء، تحمل معها رائحة البحر والأرض المبتلة، عبير الزيتون، ورائحة أوراق الخريف. كل شيء أصبح قريباً جداً من قلبه، من ذاكرته، من نفسه.

ومن تلك اللحظة، لم يعد أي شيء كما كان. كل صباح أصبح يحمل معه عبق حضورها، كل خطوة على الأرصفة الرطبة تذكره بأن قلبه قد استيقظ بعد سبات طويل، وكل موجة تتكسر على الصخور تحمل معها صدى ضحكتها، كما لو أن البحر نفسه صار يهمس باسمها. كل شجرة زيتون تهتز في الريح، وكل نسمة هواء، وكل شعاع شمس ينسل بين الأغصان، أصبح يرسل له رسائل خفية، رسائل صغيرة من الحياة، من الفرح، ومن الحنين الذي لم يكن يعرف كيف يظل حياً طوال هذه السنوات.

حتى أصوات المدينة تغيرت بالنسبة له. صوت القوارب الصغيرة التي تصطدم بالرصيف، وصوت خطوات الصيادين على الحصى، وصوت الطيور التي تعبر السماء، كلها صارت تنبض بالحياة بطريقة مختلفة، كما لو أن كل شيء أصبح مشتركاً معه، يشترك في هذه اللحظة، يحمل ذاكرته، ويحفظ حضوره. حتى الأمكنة التي كان يمر بها يومياً، الأزقة الضيقة، المقاهي المهجورة، النوافذ المغلقة على ضوء خافت، كلها أصبحت شاهدة على ميلاد جديد لقلبه، قلبٍ تعلم أن ينتظر، قلبٍ تعلم أن يحيى بعد صمت طويل، قلبٍ تعلم أن يرى الحياة من خلال حضورها، من خلال ضحكتها، من خلال كل شيء صغير في العالم الذي أصبح أكبر وأجمل بوجودها.

الميناء نفسه، الذي طالما كان مكاناً للصمت، أصبح الآن شاهداً على أول مرة تحرك فيها قلب سامر بعد سنوات طويلة من الانتظار والحنين والصمت. الموجات التي كانت مجرد ماء، صارت موسيقى تصاحبه، والرياح التي كانت تعبر بلا مبالاة، صارت تحمل له حكاياتها، والضوء الذي ينعكس على سطح الماء صار يرسُم وجهها في قلبه كل صباح. حتى الغياب، الذي كان يشبه جداراً صلباً، أصبح الآن نوعاً من الوعد، وعد بأن الحب لا يموت، وأن كل شيء يمكن أن يتغير عندما تدخل روح واحدة في قلب آخر، لتملأه بكل ما فقده من قبل.

وهكذا، أصبح كل يوم جديد بالنسبة له كصفحة بيضاء، تنتظر أن تكتب فيها الحكاية، أن تحكى، أن تعاش، أن تحفظ، ليس بالكلمات وحدها، بل بالهواء، والريح، والضوء، والصمت، وكل حركة صغيرة في المدينة، وكل صدى في قلبه. وكل شيء من حوله صار مشتركاً معه في هذه اللحظة، في هذا الشعور، في هذا الحب الذي لم يكن مجرد شعور عابر، بل كان حضوراً دائماً، نبضاً حياً في كل مكان، في كل لحظة، وفي كل شيء.

الفصل الثالث: زمن الامتلاء

كانت ليان تمشي وكأنها تعرف الأرض منذ آلاف السنين، وكأن كل حجر، وكل جذع زيتون، وكل أثر على التراب، يرحب بها باسمها قبل أن تدوس عليه قدماها. كانت تلمس جذع الزيتون كما لو كانت تُسَلّم على جدّ قديم، على روح عاشت هنا منذ زمن بعيد، وكانت تنحني لتشم التراب بعد المطر، فتستوعب كل رائحة، كل رطوبة، كل شيء يخبرها بما لم يقال بعد.

كانت تقول له أحياناً، بنبرة هادئة، وكأنها تعطيه مفتاحاً لعالم خفي:
— "البحر لا يسمع، بل يفهم."

وسامر، الذي طالما عاش حياته في صمت وحنين، بدأ يتعلم كيف يصغي. كيف يرى التفاصيل الصغيرة التي يمر بها الناس ولا يلتفتون إليها. كيف يشعر بالشيء قبل أن يعرف اسمه، وكيف يحس بالفرح أو الألم دون أن يخاف من مواجهته.

كانا يجلسان معاً عند الميناء مساءً، حين تتحول الأمواج إلى خيوط من فضة تتراقص تحت ضوء القمر، وتصبح الريح موسيقى ناعمة تغمر المكان. كانت ليان تضع رأسها على كتفه وتغمض عينيها، وكأنها تثق أن قلبه سيحفظها، ويخفف عنها كل شيء. ثم تقول بصوتٍ خافت، وكأنها تخاطب البحر قبل أن تخاطبه:
— "لو اضطررت يوماً إلى الرحيل، لا تكره البحر."

كان سامر يضحك بخفة، يحاول أن يخفف من وقع الكلمات على قلبه،
— "لن ترحلي."

تصمت. وصمتها لم يكن فراغاً، بل كان ثقلاً من أسرار لم يفهمها آنذاك، كان وعداً مبهماً بالحياة والموت، بالحب والغياب، لكنه في الوقت نفسه كان دعوة له لكي يتعلم الصبر، ويكتشف أن بعض الأشياء في الحياة لا تقال، بل تعاش، وتحس، وتترك أثرها على الروح.

ومع مرور الأيام، صار كل لقاء مع ليان رحلة جديدة في تفاصيل الحياة نفسها. تعلم معها أن البحر يحمل كل شيء، من الفرح إلى الحزن، من الانتظار إلى الفقد، وأن الأشجار لا تحكم على أحد، بل تمنح الظل والسكينة لكل من يقف تحتها. تعلم أن الليل ليس مجرد وقت للظلام، بل لوحة تتغير ألوانها كل لحظة، وأن كل موجة تحمل رسالة، وأن كل نسمه هواء تحمل معها سرّاً صغيراً يمكن أن يملأ القلب.

وأصبح الميناء بالنسبة لهما مكاناً للامتلاء: مكان يجلسان فيه، لا يحتاجان فيه إلى الكلام أحياناً، فالصمت أصبح لغة يفهمانها بلا تعليم. كان ينظر إلى وجهها تحت ضوء القمر، وكل حركة من أصابعها، وكل نفس، كانت تعلمه معنى وجود شخص آخر في الحياة، معنى الامتلاء بالحب، بالسكينة، بالحرية التي تأتي عندما تكون قريباً من من يحبك حقاً.

حتى المدينة نفسها تغيرت في عينيه. لم تعد مجرد أماكن وأزقة وبيوت، بل أصبحت ذاكرة حية، مرآة لمشاعره، شاهدة على كل خطوة، كل ابتسامة، كل لمسة، كل لحظة صمت ممتلئ بالمعنى. وكل شيء أصبح يحتفظ ببصمتها: الضوء على الرصيف، الريح بين الأغصان، الأمواج على الصخور، وكل صوت، حتى أصغر طائر في السماء، أصبح جزءاً من هذا الزمن الذي ملأه وجودها، زمن الامتلاء.

وهكذا، أصبح قلبه لا يقدر على الفقد، لكنه تعلم أن يعيش في هذا الامتلاء. تعلم أن يحتضن كل لحظة معه، كل ضحكة، كل صمت، كل همسة، وكل نظرة تحمل ما بين السطور. أصبح يعرف أن الحب الحقيقي ليس في التملك أو السيطرة، بل في القدرة على التواجد، على المشاركة، على أن يشعر بوجود الآخر كما يشعر بوجود البحر الممتد بلا نهاية، كما يشعر بأشعة الشمس وهي تتسلل بين أغصان الزيتون، وكما يشعر بصوت الريح وهي تمر بين الأعمدة القديمة للميناء، أو بظل الغيوم التي تعبر السماء بلا قصد.

تعلم أن الحب عالم كامل، له قوانينه الخاصة، لا يمكن لأي شخص آخر أن يفسره إلا من يعيشه. أصبح قلبه ممتلئاً حتى بالغياب، حتى بالأشياء الصغيرة التي لم تقل، حتى بالصمت الذي يحمل معنى أكبر من الكلمات. كل خطوة يسيرها في المدينة، كل نافذة يمر بجانبها، كل موجة تصطدم بالصخور، وكل نسمة هواء تمر بين أوراق الشجر، كانت تذكره بها، تملأ قلبه، تجعل من كل شيء حوله انعكاساً لحضورها.

صار يتنفس الحب كما يتنفس الهواء، يلمسه في كل شيء، يسمعه في الأمواج، يراه في ضوء القمر، يلمسه في رائحة المطر، ويشعر به في صوت المدينة الذي أصبح يهمس باسمهما معاً. أصبح الحب ليس مجرد شعور عابر، بل حياة كاملة، تجربة يومية متجددة، كل لحظة فيها تحمل معنى، وكل يوم فيها هو فصل جديد من الامتلاء الذي لا ينتهي، عالم يحتفظ بالذكرى، بالصمت، بالفرح، بالاشتياق، وبكل ما يجعل قلبه حياً، نابضاً، ممتلئاً حتى لو لم يسمع ولا يرى من أحد.

الفصل الرابع: الرحيل الذي لم يكن مفاجئاً

الرسالة جاءت قصيرة، مختصرة، لكنها حملت كل شيء: الفقد، الألم، الحقيقة التي كان يعرفها لكنه لم يود مواجهتها بعد.

"سامر...
يجب أن أذهب.
المرض عاد.
ولا أريدك أن تراني أذبل."

قرأها مراراً، كل مرة كأن الكلمات تثقل قلبه أكثر من المرة السابقة. ثم جلس على الأرض، ليس لأنه ضعيف، بل لأن ساقيه لم تعدا تثقان بالأرض، كأن العالم قد انقلب فجأة ولم يعد لديه أي شيء يمكن أن يمسك به.

لم تخبره من قبل، لم ترد أن يكون حبه مشروطاً بالخوف، لم ترد أن يرى عينيه وهي تذرف الدموع على جسدها أو روحها، لم ترد أن يكون الفرح معلقاً بالمرض أو الموت، لذلك رحلت صامتة، كنسيم يمر ولا تلاحقه عين، كظل يغادر فجأة دون أن يترك أثراً ظاهراً.

سافرت إلى مدينة بعيدة للعلاج، تاركة خلفها كل شيء، تركت قلبه يصرخ بلا صوت، تركت المدينة والبحر والأشجار شاهدة على رحيلها الصامت. مكالماتها في البداية كانت دافئة، كانت ضحكتها تتسلل إلى الهاتف، كانت تهدئه، تعده بالعودة، تعده بأن الغياب مؤقت، وأن كل شيء سيكون كما كان.

لكن المسافات بدأت تكبر، كل يوم أصبح الحبل الذي يربط بين قلبيهما أرق، الصوت يبهت شيئاً فشيئاً، حتى التنفس بدا كأنه يقطع الكلمات قبل أن تصل، والصمت بدأ يطول، يملأ الفراغ بين المكالمات، بين رسائل قصيرة لم تكتب، بين ذكريات لم تعاش.

حتى جاء الاتصال الأخير.

لم تكن هي.

صوت آخر على الطرف الآخر، يخبره بما لم يجرؤ أحد على قوله، يخبره بما كان يراه قلبه قبل أن تقرأه عينيه: أن ليان لن تعود، أن العلاج لم يفلح، وأن الرحيل كان حتمياً منذ البداية، لم يكن مفاجئاً، لكنه كان أشد قسوة لأنه أصبح حقيقة، حقيقة لا يمكنه التراجع عنها، لا يمكنه تمييزها عن الكابوس الذي عاشه لسنوات في صمت قلبه.

جلس هناك لساعات، يحدق في الرسالة على هاتفه، يحاول أن يفهم كيف يمكن للحب أن يكون موجوداً بهذا الشكل القوي، وكيف يمكن أن يختفي الشخص الذي جعلك تشعر بأن كل العالم ملكك في لحظة واحدة. شعر بفراغ يمتد داخله، كأن

المدينة نفسها صامتة، كأن البحر توقف عن الكلام، وكأن الأشجار لم تعد تهتز مع الريح، وكأن كل شيء في العالم أصبح صدى لرنين غيابها.

لم يكن يبكي، ولم يكن يتنفس بسرعة، بل كان يعيش اللحظة كما لو أن قلبه يذوب، كل جزء فيه ينهار ببطء، وكل ذكرى معها تتكرر في عقله كلوحة لم تمسح ألوانها أبداً، كأغنية لم يسمع لحنها الأخير بعد، وككلمة حب لم تقال.

الرحيل لم يكن مفاجئاً، لكنه كان النهاية، النهاية التي تتسلل بصمت، كظل طويل يمتد في المدينة بلا صوت، كنسيم يمر بين الأشجار ولا يترك أثراً على أوراقها. النهاية التي تحطم كل شيء بلا ضجيج، بلا صراخ، بلا وداع، لكنها تترك فراغاً يملأه الصمت، فراغاً يختنق فيه القلب ويبحث عن نبضه المفقود في كل زاوية من زوايا المدينة.

النهاية التي تعلم أن القلب، مهما أحب، مهما صبر، مهما حاول أن يحتفظ بكل شيء، لا يملك أكثر من لحظة، لا يملك سوى ذاكرة تحفظ الأسماء، الأصوات، والضحكات، بينما الأشخاص يغادرون بلا سابق إنذار، تاركين وراءهم المدينة، البحر، الأشجار، وحتى الريح تحمل ذكرى غيابهم.

كل زاوية من الميناء صارت شاهدة على هذا الرحيل، كل موجة تصطدم بالصخور كانت تهمس باسمها، وكل شعاع قمر يتسلل إلى نافذة غرفته يذكره بما فقد. الهواء نفسه أصبح يثقله الغياب، وكأن كل نسمة تحمل معها طيفاً من الماضي، وكل شيء من حوله أصبح يصرخ بصمت، يحاول أن يملأ الفراغ الذي تركته، ويعلمه أن الحب أحياناً يعني الانتظار، أحياناً يعني الصمت، وأحياناً يعني الرحيل دون وداع.

الفصل الخامس: الميناء الذي ابتلع صوته

منذ ذلك اليوم، صار سامر يأتي إلى الميناء كطقسٍ يومي، كأن الميناء أصبح جزءاً من كيانه، جزءاً لا يمكن أن يفصله عن حياته. لم يعد ينتظرها، فهو يعرف جيداً أن رحيلها ليس لحظة يمكن عكسها، وأن الصمت الذي تركته وراءها أثقل من أي كلمة قد يقولها.

لكنه ينتظر أثرها، أي شيء يذكره بها: ضحكة عابرة في الهواء، نسمة تمر بين الأعمدة الخشبية، رائحة البحر ممزوجة برائحة التراب الرطب بعد المطر. كل شيء حوله أصبح يشير إليها، وكل حركة في الميناء تروي له قصتها بصمت.

كان يجلس على نفس اللوح الخشبي الذي جلست عليه ذات مساء، يمرر يده على الخشب كما لو كان يتحسس دفء يدها، كأنه يريد أن يمسك شيئاً ملموساً من الماضي، كأن وجودها يمكن أن يعود للحظة واحدة فقط. يتذكر كيف جلست هناك، كيف كانت تميل برأسها، وكيف كانت تتحدث وكأن البحر كله يستمع إليها.

أحياناً، في لحظة صمت طويلة، كان يتخيلها تمشي نحوه، شعرها يتطاير مع الريح، وابتسامتها تسبقه قبل أن تصل إليه. كانت الضحكة، حتى لو كانت في خياله، تملأ المكان دفئاً وحنيناً، تجعل الأمواج تبدو أهدأ، وتخفف من صعوبة الوحدة.

ثم يعود كل شيء إلى مكانه: البحر يتلاطم، الريح تعصف، والأرض فارغة، الفراغ يلتهم كل ما بقي من صدى وجودها. الجدران، الأعمدة، القوارب الصغيرة، كل شيء يبدو ساكناً، وكأن المدينة نفسها تشهد على صمته، على كل صرخة قلبه التي لم يسمعها أحد، على كل لحظة فقد لم تكتمل فيها الكلمات.

الميناء أصبح كائناً حياً في حياته، يحمل صوته ويبتلعه في آنٍ واحد. يحمل ذكرياته ويعيدها إليه كل يوم، لكنه لا يعيده إليها، لا يعطيه فرصة واحدة للتواصل، بل يذكره بالغياب، بالصمت، بالحب الذي ظل ممتداً رغم الفقد.

ومع كل مساء، حين تغرب الشمس وتتحول الأمواج إلى خطوط فضية تحت ضوء القمر، كان سامر يجلس هناك، يتنفس البحر، يسمع الريح، ويحاول أن يحفظ آخر شيء يمكن أن يمسك به: ذكرى ليان، أثرها، ضحكتها، لمستها، حتى لو كان كل شيء مجرد صدى في الميناء، مجرد وهم يجعل قلبه ينبض من جديد، ولو للحظة واحدة.

الفصل السادس: الاكتشاف

بعد عامٍ كامل من صمت المدينة والميناء، وبعد أشهر من الانتظار والغياب، زار سامر أمّها. لم يكن يعرف ما الذي سيجد، لكنه شعر منذ اللحظة الأولى أن شيئاً كبيراً ينتظره، شيء يمكن أن يغيّر كل ما اعتقد أنه عرفه عن الحب، الفقد، والذكريات.

أعطته أمها دفتراً صغيراً، قديماً بعض الشيء، حواف صفحاته مطوية ومصقولة من كثرة الاستخدام. قالت بهدوء، كأنها تخشى أن ينكسر شيء في قلبه بمجرد سماعها:
— "كانت تكتب لك... طوال الوقت."

جلس سامر على المقعد الخشبي القديم في زاوية الغرفة، يفتح الدفتر بحذر، كأنه يفتح باباً إلى الماضي، إلى قلبها، إلى روحها. الصفحات الأولى كانت مليئة بخطوط متعرجة، وأحياناً تختلط الكلمات مع الرسومات الصغيرة: طيور، أمواج، أشجار زيتون.

ثم وصل إلى آخر صفحة، وهناك توقفت الكلمات، لكنها كانت الكلمات التي حملت كل شيء:

"سامر...
أنا لا أخاف الموت.
أنا أخاف أن تنسى البحر بسببي.
أخاف أن يتحول الميناء إلى قبر.
عد إليه.
واكتب.
واجعلني عصفورةً لا جنازة."

بكى.

لم يكن البكاء لأنه ماتت، بل لأنه اكتشف أنها كانت تفكر فيه حتى وهي تموت، كانت تهتم بقلبه، بذاكرته، بمكانها في حياته، حتى وهي تغادر العالم. بكى لأنه فهم معنى الحب الحقيقي: أنه لا ينتهي بالموت، وأنه أحياناً يكون أكبر من أي وجود مادي، أكبر من أي ضحك أو كلمة أو حضن.

جلس هناك طويلاً، يقرأ الدفتر مرة أخرى، يحاول أن يحفظ كل حرف، كل سطر، كأنه يريد أن يأخذها معه، كأنه يريد أن يجعل وجودها حقيقياً في قلبه مهما ابتعدت روحه عنه. شعر بأن الحب الذي عاشه معها لم يكن مجرد لحظة، بل كان تجربة كاملة، تعليماً للحياة، صبراً على الغياب، قدرة على رؤية الجمال حتى وسط الألم، فهماً للبحر، للميناء، وللصمت.

وفي تلك اللحظة، قرر سامر أن لا يترك الميناء يتحول إلى قبر، ولا قلبه إلى حديقة مهجورة. قرر أن يكتب، أن يجعل كلماتها تعيش، أن يجعلها عصفورةً تطير في

قلبه، في صفحات الدفتر، في المدينة كلها، في الأمواج، في الريح، وفي كل زاوية كانت قد لمسها يوماً.

كان يعرف أن الطريق لن يكون سهلاً، وأن الحزن سيظل جزءاً منه، لكن الاكتشاف أعطاه قوة، أعطاه مهمة، أعطاه سبباً للاستمرار، لأجلها، ولأجل قلبه، ولأجل كل شيء جعل من الحب حياة، ومن الفقد بداية جديدة.

الفصل السابع: التحول

في صباحٍ هادئ، وقف سامر عند الميناء كعادته، لكن الجو بدا مختلفاً عن كل صباحٍ مضى. لم يكن هناك صمتٌ ثقيل يضغط على صدره، ولم يكن قلبه متشبثاً بالغياب. كان شيءٌ آخر يملأ المكان، شيءٌ رقيق، شيءٌ كأنه يسري في الهواء، يلمس قدميه، يهمس بين الأمواج.

لم يعد ينتظرها كما كان يفعل، لم يعد قلبه متعلقاً بصوت خطواتها أو بصدى ضحكتها، لم يعد يترقب ظهورها بين القوارب أو عند الرصيف. لم يكن الفقد مرّاً بعد الآن، بل صار حضورها في كل شيء حوله، كأنها أصبحت جزءاً من المدينة، من البحر، من الريح، من كل موجة تضرب الصخور.

شعر بها في النسيم الذي مرّ على وجهه، يلمس خده برفق، وكأنها تهمس باسمه، تحمل له كل حبها الذي لم يمت. شعر بها في صوت الأمواج، حين لامست قدميه، تذكره بكل اللحظات التي جلس فيها معها على الرصيف، بكل الابتسامات، بكل الصمت الممتلئ بالحب. وشاهد طائراً صغيراً حطّ بجانبه، ثم طار، وكان قلبه يرفرف معه، كأن هذه اللحظة الصغيرة تحمل كل ذكرياتها، كل روحها، كل وجودها في هذا العالم.

ابتسم.

لأول مرة منذ عام كامل ابتسم من قلبه، من روحه، ابتسم وهو يشعر بالتحرر، بالسلام، بالحب الذي تغير شكله لكنه لم يختفِ. أخرج دفتره القديم، فتح صفحة جديدة، قلمٌ في يده، وبدأ يكتب، وكأن الكلمات تستطيع أن تحول الحزن إلى حياة، والفقد إلى حضور مستمر:

"ليان،
لم أكره البحر.
لم أترك الميناء.
لكنني لم أعد أنتظركِ كعائدة...
بل كحضورٍ في كل شيء."

أدرك أخيراً أن الحب لا يموت بالموت، وأن الفقد ليس النهاية. الحب يتحول، يتغير شكله، يصبح جزءاً من الهواء الذي نتنفسه، من الأمواج التي تحتضن قدميك،

من الأشجار التي تهمس بأوراقها، من الطيور التي تطير وتعود. الحب يصير موجةً، يصير نسمة، يصير عصفورةً في القلب، لا تعرف حدوداً، ولا تعرف الموت، ولا تعرف الغياب.

جلس هناك لساعات، يكتب، يتأمل البحر، يستمع إلى الريح، ويشعر أن ليان حاضرة في كل شيء. في ضوء الشمس، في صمت الميناء، في كل ركن من المدينة التي تعلم أنها ستظل دائماً شاهدة على حبهما، على صموده، وعلى التحول الذي جعل الفقد بداية، والحزن بداية جديدة للحب الذي لا ينتهي.

وفي تلك اللحظة، لم يكن سامر وحده، لم يعد قلبه يضيق بالصمت أو بالغياب. كان الحب موجوداً في كل شيء حوله، في كل موجة، في كل طائر، في كل نسمة هواء، كأنه عصفورة تحلق بلا حدود داخل قلبه، تطوف بين الماضي والحاضر، بين الذكرى والحياة، بين الحزن والفرح، وتعلمه أن الحب الحقيقي يظل حياً، مهما غاب من أحببنا.

النهاية

كبر سامر.

وشاب شعره، وتغيرت ملامح وجهه، وتعمقت التجاعيد حول عينيه كما لو أن البحر نفسه نقش عليها قصصه، قصص الأمواج، والرياح، والصمت الطويل.

لكن الناس في المدينة صاروا يعرفونه بلقبٍ جديد:
"رجل الميناء."

لم يكونوا يعرفون قصته كاملة، لم يعرفوا عن ليان، عن الحب الذي غادر جسدها، لكنه بقي حياً في قلبه. لم يعرفوا عن السنوات التي جلس فيها على الرصيف الخشبي، يستمع إلى الأمواج، يكتب في دفترٍ قديم، يحاول أن يحتفظ بها في كل موجة، في كل نسمة، في كل ضوء قمر يتسلل إلى نافذته.

كانوا يرونه كل صباح، يبتسم للبحر، يمر بين القوارب، يلمس الخشب، ينظر إلى الأفق وكأنه يرى شيئاً لا يراه غيره. يظنون أنه مجرد رجل عادي يحب البحر، لكنه كان يحمل داخله شيئاً أكبر بكثير: ذاكرة كاملة، حياة كاملة، حب لم يمت، حب تحول إلى روح، إلى نسيم، إلى موجة، إلى حضور في كل شيء.

ولم يكون أحد يسمع، ولم يكن من الممكن أن يسمع، أن في قلبه عصفورةً لم تمت، لم تغادره، بل تعلمت الطيران داخله. كانت تحلق بين الأمواج، بين الأشجار، بين كل زاوية في الميناء، بين كل ذكرى وصمت وحزن وفرح عاشه. كانت هناك دائماً، ترشّ الحياة على قلبه، تجعل كل صباح جديداً مليئاً بالأمل، وتجعل كل موجة تحمل معها حضورها، كل ضحكة، كل لمسة، كل شيء كان قد جمع بينهما.

وهكذا، صار سامر، رجل الميناء، رمزاً للحب الذي لا يموت، للحياة التي تستمر رغم الفقد، للصمت الذي يصبح موسيقى، وللغياب الذي يتحول إلى وجود دائم، داخل النفس والمدينة والبحر نفسه.

حتى لو غابت الأجساد، يبقى الحب حياً.
حتى لو اختفى الصوت، يبقى الصدى.
وفي قلب سامر، كانت العصفورة تحلق، بلا قيود، بلا خوف، بلا نهاية...

الوطن يساوي حذاء

لم تكن قاعة المحكمة تتسع لذلك الصمت.
كان الصمت فيها أكبر من الجدران، أكبر من الأعلام المعلقة، وأكبر من صورة الوطن المتدلية خلف منصة القاضي، كأنها شمسٌ لا تغيب.

كان الصمت يتمدد فوق الرؤوس كسحابةٍ ثقيلة، يهبط على الأكتاف، ويتسرب إلى الصدور، حتى ليخيَّل للمرء أن الهواء نفسه أصبح أبطأ وأثقل، وكأن الكلمات ترفض أن تولد فيه. كانت المقاعد الخشبية مصطفّةً بانتظامٍ صارم، لكنها لم تكن قادرةً على ضبط ارتعاش القلوب الجالسة عليها. عيونٌ متحفزة، وشفاهٌ مطبقة، وأيدٍ متشابكة في توترٍ خفيّ، كأن الجميع ينتظر شرارةً واحدةً تشقّ هذا السكون المهيب.

تسلل الضوء من النوافذ العالية شاحباً، بلا دفء، وانساب فوق الرخام البارد، فعكس وجوهاً متجهّمة، وأخرى متحفّزة، وثالثةً ما تزال تبحث عن معنى لما سيحدث. في صدر القاعة ارتفعت صورة الوطن، واسعةً زاهية الألوان، تظهر حقولاً خضراء، وجبالاً شامخة، وسماءً زرقاء صافية؛ صورةً مثاليةً إلى حدّ الطهر، كأنها لا تعرف الغبار، ولا الطرق المكسوة بالحجارة، ولا أقداماً عاريةً تسير فوقها.

وتحت الصورة مباشرةً، علت منصّة القاضي، عاليةً مهيبة، تفصل بين من يحاكم ومن يحكم، بين من يسأل ومن يسأل. كان الخشب الداكن المصقول يلمع تحت الضوء، والمطرقة الصغيرة تستقرّ في يدٍ اعتادت أن تنزل الأحكام كما تسدل الأبوابُ ستائرها الثقيلة.

لم يكن الصمت مجرد غيابٍ للصوت، بل كان حضوراً كثيفاً للمعنى؛
صمتٌ يحمل في جوفه سؤالاً لا يقال، واتهاماً لا يحتاج إلى شهود، وانتظاراً مشدوداً كوترٍ على وشك أن ينقطع.

حتى الأعلام المعلقة على الجدران بدت ساكنةً أكثر مما ينبغي، كأنها تخشى أن ترفّ في هذا التوقيت، وكأن أي حركةٍ منها قد تفسر انحيازاً أو اعتراضاً. أما الساعة المعلقة في أعلى الجدار، فكانت تدقّ بإيقاعٍ بطيء محسوب؛ كل دقةٍ فيها تشبه خطوةً ثقيلةً نحو لحظةٍ فاصلة.

في ذلك المكان، لم يكن الأمر مجرد جلسة محاكمة.
كان أشبه بمحاكمة فكرة، أو بمحاكمة كلمةٍ خرجت من فمٍ بسيط، لكنها ارتطمت بجدارٍ شاهقٍ من المعاني.

الجميع يعرف العبارة.
الجميع سمعها تتردد في الساحات، وتنتقل من فمٍ إلى آخر كهمسةٍ خطيرة:

«الوطن يساوي حذاء».

عبارة قصيرة، لكنها كسرت انتظام اللغة، وأربكت التراتيب المقدّسة للكلمات. كيف يمكن لكلمتين بسيطتين أن تضعا الوطن، بكل ما يحمله من رموزٍ وأحلامٍ وتضحيات، في كفّةٍ واحدة مع حذاء؟

كان ذلك هو السؤال الذي يثقل الجوّ، ويجعل الصمت أكبر من القاعة نفسها.

وفي اللحظة التي فتح فيها الباب الخلفي، وارتد صداه في الفراغ، بدا كأن الصمت ذاته قد التفت ليرى القادم.
دخل المتهم...

ومع دخوله لم يتغير شيء في القاعة، إلا أن الصمت ازداد عمقاً، كأن الجميع أدرك أن الكلمات، أخيراً، وجدت من يجرؤ على حملها.

دخل المتهم مكبّل اليدين، لكنه لم يكن مكبّل الروح.
كان حافياً.

نعم، حافياً في قاعةٍ مفروشةٍ بسجادٍ أحمر كثيف، كأن الأرض تخجل من قدميه فتغطي نفسها، أو كأنها تحاول أن تخفي قسوتها تحت طبقةٍ من الزينة الرسمية.

ارتفعت همهمةٌ خافتة بين الحضور، سرعان ما تضخمت ثم انكسرت على صوت الحاجب وهو يهتف بصرامة:

– محكمة!

دخل القاضي بخطواتٍ ثقيلة موزونة، وجلس خلف مكتبه الخشبي العريض. كان حضوره كافياً لأن يعيد ترتيب الصمت في القاعة. رفع المطرقة، وطرق بها مرةً واحدة، فارتجف الهواء، واستقامت الرؤوس، وانكمشت الهمسات.

– القاضي: كفاك تظلماً وارتباكاً ودموعاً. أقسم أن تقول الحق، ولا شيء غير الحق.
– المتهم: أقسم.
– القاضي: ضع يدك على الكتاب المقدّس، لا على دليل الهاتف.
– المتهم (بصوتٍ خفيض): أمرك، سيدي.

رفع يده المرتجفة ببطء. ولم يكن ارتجافها خوفاً، بل برداً؛ فقد كانت قدماه العاريتان ترتعشان فوق الرخام البارد، كأنهما تشهدان وحدهما على شيءٍ لا يراه الآخرون.

بدا جسده ثابتاً، لكن الأرض تحته لم تكن كذلك. وكان في مشهد قدميه العاريتين ما يشبه الجملة الناقصة التي تنتظر من يكمل معناها.

– القاضي: هل كنت، بتاريخ كذا ويوم كذا، تنادي في الساحات العامة والشوارع المزدحمة بأن الوطن يساوي حذاء؟
– المتهم: نعم.

– القاضي: وأمام طوابير العمال والفلاحين؟
– المتهم: نعم.
– القاضي: وأمام تماثيل الأبطال، وفي مقابر الشهداء؟
– المتهم: نعم.
– القاضي: وأمام مراكز التطوّع والمحاربين القدامى؟
– المتهم: نعم.
– القاضي: وأمام أفواج السياح والمتنزهين؟
– المتهم: نعم.
– القاضي: وأمام دور الصحف ووكالات الأنباء؟
– المتهم: نعم.

ساد صمتٌ طويل.
حدّق القاضي فيه بعينين تضيقان شيئاً فشيئاً.

– القاضي: الوطن... حلم الطفولة، وذكريات الشيخوخة، وهاجس الشباب، ومقبرة الغزاة والطامعين، والمفتدى بكل غالٍ ورخيص... لا يساوي في نظرك أكثر من حذاء؟ لماذا؟ لماذا؟

رفع المتهم رأسه. وللمرة الأولى، نظر في عيني القاضي مباشرة.

قال بصوتٍ لم يكن فيه تحدٍّ، بل وجعٌ صافٍ:

– لقد كنتُ حافياً يا سيدي.

لم يفهم الحضور في البداية.

لكن القصة لم تبدأ في تلك القاعة.
لم تولد تحت سقفٍ مرتفعٍ تتدلّى منه القوانين، ولا بين جدرانٍ مطليةٍ بهيبة الدولة.

بدأت في قريةٍ بعيدة، حيث البيوت من طينٍ يابس، تتكئ على بعضها كأنها تتساند في مواجهة الريح، وحيث الشتاء يدخل بلا استئذان، يتسلل من الشقوق، ويقيم في الزوايا الباردة دون أن يطرق باباً.

هناك كان صبياً صغيراً، نحيل الجسد، واسع العينين، يمشي خلف أبيه كل صباحٍ إلى الحقل. كانت الأرض ممتدّة أمامهما بلونها الترابي الصامت، والندى يعلق برودته على أطراف العشب اليابس. كان الصبي يحاول أن يخطو على آثار قدمي أبيه، كأنه يتعلم المشي من جديد، أو كأنه يخشى أن تبتلعه الأرض إن ابتعد قليلاً.

كان أبوه رجلاً بسيطاً، تكسو وجهه تجاعيد مبكرة صنعتها الشمس والعرق والانتظار. وفي الطريق إلى الحقل، كان يردد دائماً، بصوتٍ يشبه نصيحةً محفوظة:

"الوطن، يا بني، هو الأرض التي تطأها قدماك."

كان يقولها بثقة من يملك تعريفاً نهائياً للأشياء، وكأن المعنى لا يحتمل جدالاً.

توقّف الصبي لحظة، ونظر إلى قدميه الصغيرتين.
كانتا متشققتين من البرد، مغطاتين بطبقةٍ رقيقة من التراب اليابس، كأن الأرض قد التصقت بهما ولم تعد تميز بينهما وبينها. أحسّ بوخزٍ خفيفٍ حين داس على حجرٍ حاد، فعضّ على شفتيه كي لا يتأوّه.

رفع رأسه نحو أبيه وسأله ببراءةٍ صافية:

"وإذا لم يكن لدي ما أقي به قدميّ؟"

توقف الأب عن المشي لحظةً، ثم ضحك ضحكةً قصيرةً حاول أن يجعلها خفيفة، لكنها خرجت مثقلةً بشيءٍ خفيّ. ربت على رأس ابنه، ومضى في طريقه.

لم يجب.

وربما لم يكن الصمت يومها عجزاً عن الإجابة، بل اعترافاً بأن السؤال أكبر من حقلٍ وقرية، وأثقل من قلب رجلٍ بسيطٍ لا يملك سوى الأرض... ولا يملك لها حذاء.

كبر الصبي.
كبر قبل أوانه، كما تكبر الأشجار التي تضربها الرياح باكراً. تمدد جسده، لكن في داخله ظل ذلك السؤال القديم يمشي حافياً.

مات الأب في حربٍ لم يفهم أسبابها، حربٍ سمع اسمها كثيراً، لكنه لم يفهم يوماً لماذا تبدأ الحروب، ولا لماذا تنتهي الأمهات بالبكاء. عاد الأب في صندوقٍ خشبيٍّ ثقيل، ملفوفاً بعلمٍ كبير، ترفرف أطرافه فوق الصندوق كأنها تحاول أن تخفف من وطأته.

كان المشهد مهيباً. رجالٌ بوجوهٍ جامدة، كلماتٌ كبيرة تلقى في الهواء، أكتافٌ تحمل الصندوق ببطءٍ محسوب. اقترب الصبي، نظر إلى الخشب المصقول، ولم يرَ وجه أبيه.

قالوا له:
"أبوك مات من أجل الوطن."

رددوا العبارة وكأنها عزاءٌ كافٍ، أو تفسيرٌ نهائيٌّ لكل شيء.

نظر إلى الصندوق طويلاً، ثم أنزل عينيه إلى قدميه الحافيتين. كانتا لا تزالان كما هما: متشققتين، باردتين، ملتصقتين بالأرض. لم يفهم كيف يموت الإنسان من أجل شيءٍ لا يستطيع أن يحمي قدمي ابنه من البرد. لم يفهم كيف يكون الوطن عظيماً إلى هذا الحد، وصغيراً إلى هذا الحد في آنٍ واحد.

كبر أكثر.

عمل في البناء.

كان يحمل أكياس الإسمنت على ظهره حتى تنحني كتفاه، ويخلط الرمل بالماء بيدين خشنتين لا تعرفان الراحة. كان يبني بيوتاً لناسٍ لم يرهم من قبل، يرفع الجدران طابقاً بعد طابق، ويسوي الأرضيات بعنايةٍ، كأنها ستستقبل أقداماً تستحق الدفء.

وكان كل مساءٍ يعود إلى غرفته الضيقة في أطراف المدينة، يخلع الغبار عن شعره ووجهه وثيابه، يغسل يديه من الإسمنت العالق، ثم ينظر إلى قدميه... فلا يجد ما يخلعه عنهما. لم يكن يملك حذاءً يضعه جانباً، ولا رباطاً يفكه، ولا جلداً يمسحه. كان يعود كما خرج: حافياً.

في أحد الأيام، جمع ما ادخره من نقودٍ قليلة، ودخل متجراً للأحذية. كانت الأرض هناك لامعة، تعكس صورته المشوشةً. شعر للحظةٍ أنه دخل عالماً آخر، عالماً لا يعرف الغبار.

وقف أمام حذاءٍ أسود بسيط. لم يكن فاخراً، ولا يلمع كالأحذية المعروضة في الواجهة، لكنه كان متيناً، صامتاً، وكأنه ينتظره. تخيل قدميه داخله، محميتين، دافئتين، تمشيان بثقةٍ على الرصيف. تخيّل نفسه يعبر الشارع دون أن يشعر بحصى الطريق. لم يكن يريد أكثر من ذلك؛ كان يريد فقط أن يشعر بأنه إنسانٌ كامل.

سأل عن ثمنه.

نظر البائع إليه من أعلى إلى أسفل، ثم قال ببرودٍ معتاد:
– هذا يساوي أجرة أسبوعين.

صمت.
أعاد الحذاء إلى مكانه ببطء، كأنه يعيد حلماً إلى الرفّ.

خرج من المتجر وهو يبتسم ابتسامةً باهتة، تختلط فيها المرارة بشيءٍ يشبه السخرية. سار في الشارع، وكل خطوةٍ على الإسفلت الحارّ كانت تذكيراً صامتاً بعجزه.

قال في نفسه، بصوتٍ لم يسمعه أحد:

"إذن... أنا لا أساوي أسبوعين."

وكانت تلك الجملة، الصغيرة والبسيطة، أثقل من كل الكلمات الكبيرة التي قيلت يوم عاد أبوه في صندوقٍ مغطى بعلم.

في الساحة العامة، كانت مكبرات الصوت تصدح بالأناشيد.
الأعلام ترفرف، والخطابات تعلو.

وقف بينهم، حافياً كعادته، وصاح فجأة:

"الوطن يساوي حذاء!"

صمتت الساحة.

تقدّم شرطي وأمسك بذراعه.

– ماذا قلت؟
– قلت إن الوطن يساوي حذاء.
– أتسخر؟
– لا... أنا أتألّم.

تجمهر الناس.
بعضهم شتمه، وبعضهم بصق أمامه، وبعضهم قال: "خائن!"

لكنه لم يكن خائناً.
كان فقط يبحث عن شيءٍ يقي قدميه من الأرض القاسية.

عاد القاضي إلى الحاضر، وصوت المتهم لا يزال يتردّد في أذنيه:

– لقد كنتُ حافياً، يا سيدي.

– القاضي (بشيءٍ من الغضب): وهل هذا يبرر الإهانة؟
– المتهم: لم أُهِن الوطن.
– القاضي: قلت إنه يساوي حذاء!
– المتهم: لأن الحذاء، يا سيدي، يحمي القدم من الجرح... والوطن، إن لم يحمِ أبناءه، فماذا يساوي لهم؟

تململ الحضور.

– المتهم (متابعاً): علمونا أن الوطن أم، والأم لا تترك طفلها يمشي حافياً في الشتاء.
– القاضي: أنت تخلط بين الشعارات والواقع.
– المتهم: بل أبحث عن واقعٍ يليق بالشعارات.

اقترب أحد الحراس وهمس في أذن القاضي.
هزّ القاضي رأسه، ثم نظر إلى قدمي المتهم من جديد.

كانتا متشققتين، مليئتين بالندوب.

– القاضي: هل تملك الآن حذاءً؟
– المتهم (مبتسماً بحزن): لا يا سيدي. حتى في يوم محاكمتي، جئت حافياً.

ساد صمتٌ ثقيل.

في الصفوف الخلفية، كانت امرأة تبكي.
قالت بصوتٍ مرتجف:

– ابني أيضاً حافٍ...

ثم نهض رجلٌ مسنّ وقال:

– قاتلتُ في الحرب ثلاث سنوات. عدتُ بساقٍ واحدة... ومعاشي لا يكفي لشراء حذاءٍ لحفيدي.

بدأت القاعة تتحول من محكمةٍ إلى مرآة.

طرق القاضي بمطرقته بعنف:

– النظام! النظام!

لكنه كان يعلم أن النظام الحقيقي ليس في الصمت، بل في العدالة.

نظر إلى صورة الوطن خلفه؛ كانت تلمع تحت الضوء.
ثم نظر إلى الأرض... إلى قدمي المتهم.

– القاضي (بصوتٍ أخفض): لو عاد بك الزمن، هل كنت ستقول العبارة نفسها؟
– المتهم: نعم.
– القاضي: ولماذا؟
– المتهم: لأنني حين قلتها، لم أكن أبحث عن حذاءٍ لقدمي فقط... بل عن كرامةٍ تمشي معي.

صمت القاضي طويلاً، ثم قال:

– المحكمة ترفع الجلسة للمداولة.

وقف الجميع.

لكن قبل أن يخرج، خلع القاضي حذاءه.
مشى خطوتين حافياً على أرض القاعة الباردة.

تجمّد في مكانه.

كانت الأرض أقسى مما ظنّ.

عاد إلى كرسيه وجلس ببطء.

– القاضي: الحكم...

توقّف، ثم نظر إلى الحضور.

– القاضي: المتهم غير مذنب.

ضجّت القاعة.

– القاضي: لأن الوطن لا يُهان حين نطالبه بأن يكون وطناً.

اقترب من المتهم، وهمس له بصوتٍ لم يسمعه أحد:

– غداً... ستصلك هدية.

ابتسم المتهم ابتسامةً صغيرة.

– شكراً، يا سيدي... لكنني لا أريد حذاءً لنفسي فقط.
– ماذا تريد إذن؟
– وطناً... لا يضطر فيه أحد إلى أن يصرخ في الساحات طلباً لحذاء.

في اليوم التالي، انتشرت صور القاضي وهو يمشي حافياً في أحد الأحياء الفقيرة.

وانتشرت عبارةٌ جديدة على الجدران:

"الوطن ليس حذاءً...
بل هو الذي يمنحك حذاء."

أما المتهم، فقد شوهد يمشي في السوق، لا يزال حافياً...
لكن هذه المرة، لم يكن يمشي وحده.

كان الناس يسيرون إلى جانبه، ينظرون إلى أقدامهم... كأنهم يرون الأرض لأول مرة.

"حتى على الغصن الأخير، حيث يلتقي الفقد بالأمل، تبقى الأرواح معلقة بين الذكرى والحلم، تحلق في صمتٍ، وتهمس بأن الحب والحياة لا يموتان، بل يزهران في كل وداع، وفي كل ابتسامة لم تقل بعد."

"ليست كلّ الأغصان تتكسر...
بعضها ينتظر الريح الأخيرة ليزهر".
On a Last Branch
على غصنٍ أخير